

اخترنا لك ١١

حقيقة الشيوعية

اهداءات ٢٠٠١

الدكتور/ القطب محمد طبلية

القاهرة

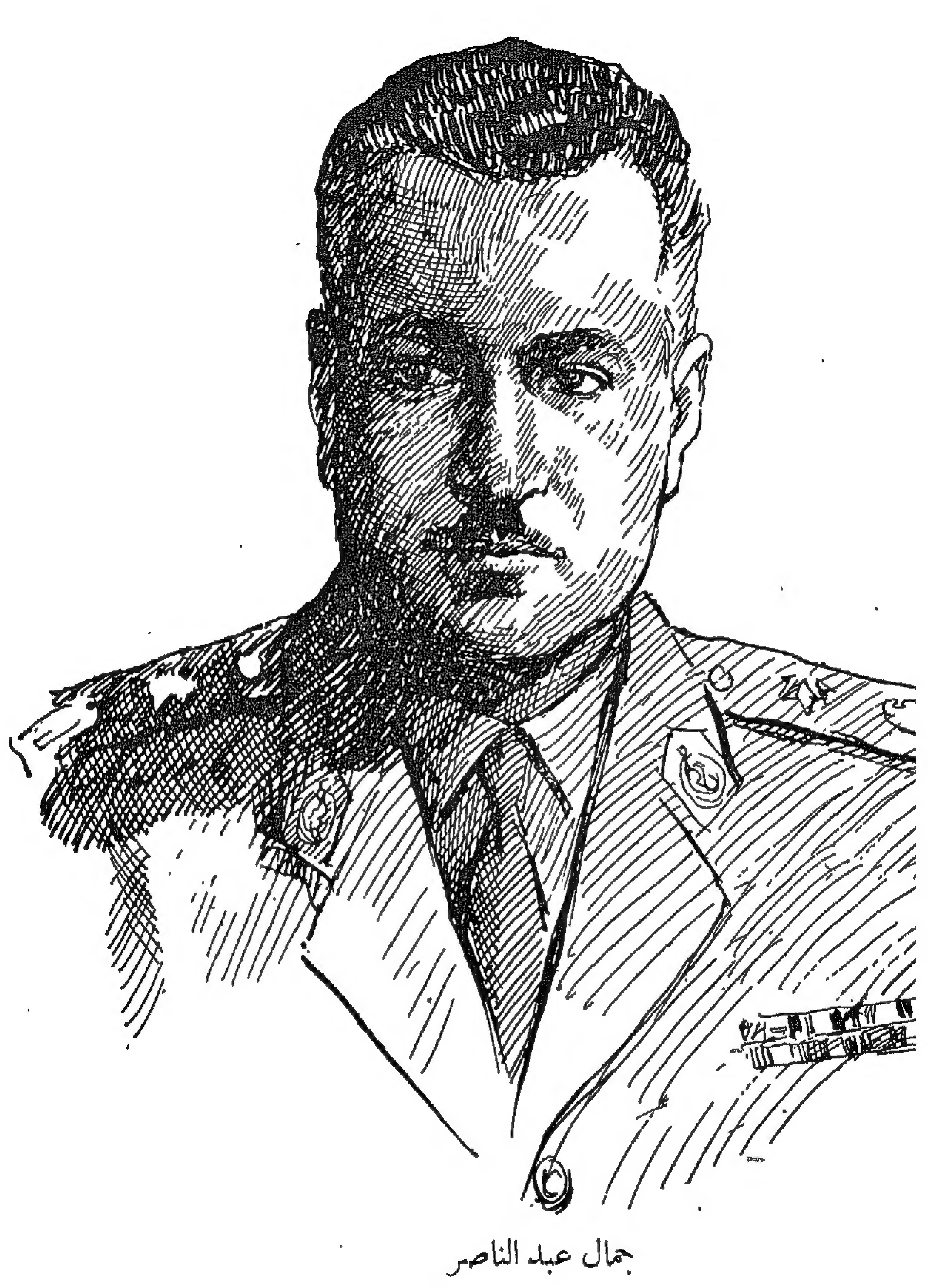
حقيقة الشيوعية

اشترك فى إعداد هذا الكتاب :

- أمين شاكر
- سعيد العريان
- على أدهم

(طبعة ثالثة)

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر



جمال عبد الناصر

الشيوعية . . .

بقلم

جمال عبد الناصر

أصبحت كلمة الشيوعنة من الكلمات الشائعة التى تردد ويطلقها بعض الناس دون أن يعرفوا ما هى الشيوعية ولا ما هى نظرية الشيوعية ، وحتى أولئك الذين أتيحت لهم فرصة الإطلاع على النظرية الشيوعية كما وضعت ، لم تتح لهم فرصة الإطلاع على وجهها الآخر الذى يغفل الداعون للشيوعية ذكره حتى لا تفقد النظرية قيمتها ، وهم بهذا يجهلون أو يتجاهلون كيف تطبق الشيوعية عملياً .

وهذا الكتاب يشرح الشيوعية من جميع زواياها — الزوايا البراقة والزوايا المظلمة — كما يبين ما بين النظرية والتطبيق من تباين .

إن الشيوعية حين أصبحت نظاماً للحكم انقلبت إلى شيء آخر غير ما كان يأمله دعاتها — وما أكثر النظريات التى تفتن وتخدع ، حتى إذا دخلت فى دور التطبيق العملى انحسر عنها لثامها وأسفرت عن حقائقها الأليمة !

كل ما كسبه الشيوعيون من شيوعيتهم أنهم صاروا آلات فى جهاز الإنتاج العام — وكانوا بشراً ذوى إرادة !

قد كفروا بالدين لأن الدين فى عرف الشيوعية خرافة !

وكفروا بالفرد لأن الفرد فى دين الشيوعية لا كيان له ولا حقيقة لوجوده وإنما الكيان للدولة !

وكفروا بالحرية لأن الحرية نوع من إيمان الفرد بذاته ، وليس للفرد فى النظام الشيوعى ذات ولا إرادة !

وكفروا بالمساواة فى نظام الدولة ، لأن الدولة فى دستور الشيوعية طبقات تنتظم فى هرم يتربع على قمته فرد ويحتشد ملايين الشعب فى القاعدة !

ألا ما أبعد واقع الشيوعية عن دعوة دعاتها !

* * *

٧

ونحن المصريين . . .

نحن العرب . . .

نحن المسلمين والمسيحيين فى هذه المنطقة من العالم . . .

نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . . .

ونؤمن بأن لكل عامل جزاء عمله ، ولا تزر وازرة وزر أخرى . . .

ونؤمن بأن لكل فرد فى كل جماعة كياناً فى ذاته ، وكياناً فى أهله . وكياناً فى قوميته العامة وفى بلده . . .

ونؤمن بحرية العمل ، وحرية الكسب ، وحرية النفقة فما لا يعود على المجموع بمضرة !

ونؤمن إلى كل ذلك بالأخوة الإنسانية ، وبالتكافل الاجتماعى ، وبالإيثار القائم على الاختيار لتوثيق الروابط الإنسانية .

ونؤمن بأن لكل فرد فى الدولة حقاً وعليه واجباً يكافىء هذا الحق ! وأن على الدولة لكل فرد فيها واجباً ولها عليه حقاً يكافىء هذا الواجب ! فهى تبعات متبادلة بين الحكام والمحكومين ، ليس فيها قهر ولا إذلال ولا تسلط ولا طبقات قليلة العدد من السادة وطبقة ضخمة من العبيد !

هذا ديننا وذاك دين الشيوعية . . .

فلتؤمن الشيوعية بما تشاء وتكفر بما تشاء ، فليس يعنينا ما تؤمن به وما تكفر ! وإنما يعنينا أن نؤكد إيماننا بديننا الذى ندين الله عليه ونترسّم دستوره فيما نعمل لأنفسنا ولقومنا . . .

كل ما بيننا وبين الشيوعية فى مذهب الحكم أو فى مذاهب الحياة ، أن الشيوعية دين . . . ولنا دين ! ولسنا تاركين ديننا من أجل دين الشيوعية .

روسيا القيصرية

لم يكن للروس أو — المسكوف — شأن يذكر فى التاريخ حتى أوائل القرن الثامن عشر ، فقد ظلوا خلال العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة قوماً خاملين فى ميدان السياسة والحضارة ، رغم كثرة عددهم ، واتساع رقعة بلادهم ؛ وقد كانت بـلادهم فى طريق التتار الذين كانوا يغيرون من أواسط آسـيا على أوربا ، فأثرت تلك الغارات المتتابعة فى حياتهم العامة ، وعاقتهم عن مجاراة الشعوب الجرمانية — فى وسط أوربا وشمالها — التى سارت بخطوات واسعة نحو الحضارة .

وقبل أن يقوم القائد المغولى جنكيزخان بغزواته ، كانت روسيا منقسمة إلى إمارات عدة ، بقيت تشن بعضها على بعض الغارات نحو قرن من الزمان ، ثم دهمهم جنكيزخان فى طريقه لغزو القبائل التركية التى كانت تسكن غربى بحر قزوين ، فاخترق جورجيا ، واجتاز جبال القوقاز حتى وصل إلى سهول (ستبس) فى جنوبى روسيا ١٢٢٤ م على أن المغول قرروا الجلاء عنها فجأة ، ثم عادوا إليها بعد ثلاثة عشر عاماً ، وكانوا إذ ذاك بقيادة « باتو » حفيد جنكيزخان ، الذى دمر بجيوشه كل ما اعترضه فى طريقه ، وأسس له عاصمة جديدة على نهر الفلجا تسمى (سراى) ، وظل المغول يحكمون روسيا أكثر من قرنين ، عند ما قام أمراء « موسكو » بتكوين مملكة عظيمة موحدة مقرها موسكو .

عند ذلك بدأ عهد جديد بتولى إيفان الثالث حكم روسيا (١٤٦٢— ١٥٠٥) ، وهو الذى استطاع توحيد معظم الإمارات الروسية وبدأ يحاول الخروج بروسيا من عزلتها والاتصال بالأمم الغربية ، وشرع فى إيجاد العلاقات الودية والسياسية مع كثير من إمارات أوربا وممالكها ، وعلى الأخص الولايات الإيطالية ، كفلورنسا وروما ونابلى ، وتزوج من أسرة الإمبراطور قسطنطين ، آخر أباطرة القسطنطينية !

وكان إيفان أول من غرس الأوتوقراطية فى روسيا ، إذ كان يميل بطبعه إلى الحكم الاستبدادى ، معتقداً أن الناس عبيد الحاكم ، وأنه ظل الله فى أرضه ، ينوب عنه فى حكم عباده ؛ فكان بذلك أول من بذر روح الطغيان الذى ظلت روسيا ترزح تحت أعبائه عدة قرون .

وجاء بعده خلفاء كان الاستبداد دينهم والطغيان حليفهم ، فحفيده إيفان الرابع (١٥٣٣ — ١٥٨٤) لقّبه الناس Ivan the terrible « إيفان الفظيع » ، لكثرة الفظائع التى ارتكبها فى أواخر عهده وقد تولى الملك طفلا ، تشرف عليه أمه كوصية على العرش ، فلما ماتت بعد خمس سنوات ، آلت الوصاية إلى « شوسكى » أحد الأشراف ؛ ولم يكد إيفان يبلغ الثالثة عشرة من عمره حتى أمر أمراً فجائياً بالقبض على شوسكى وإلقائه حيّاً للكلاب تأكله ، وكان القصد من ذلك أن يلقى الرعب فى قلوب الأشراف حتى لا يجرؤ أحدهم على مشاركته فى السلطان .

وكان إيفان أول من تلقب بلقب « قيصر » تشبها بقياصرة الدولة الرومانية الشرقية ، وفى السنة التى تم فيها تتويجه قيصراً — أى عام ١٥٤٧ —

تزوج من بيت « رومانوف » الذى أصبح الحكم القيصرى فى سلالته من بعد ؛ وقد مات إيفان وترك ولداً ضعيفاً، هو « تيودور » الذى انقضت بموته أسرته ، وأعقبت وفاته فترة من الفوضى والتنازع على العرش ، انتهت بنجاح أحد أمراء . بيت « رومانوف » سنة ١٦١٣ فى تولى العرش .

* * *

وفى فترة الاضطراب التى تلت وفاة إيفان الرابع ، عمت الفوضى ، وازداد اضطهاد الفلاحين ، مما حملهم على الفرار من أراضيهم إلى الغابات أو إلى سيبريا . وكان الموقف دقيقاً عند ما تولى العرش ميشيل رومانوف (١٦١٣ — ١٦٤٥) مؤسس أسرة رومانوف ، وهى الأسر التى ظلت تحكم روسيا حتى حدث الانقلاب الشيوعى سنة ١٩١٧ .

اعتلى ميشيل العرش فى أعقاب الفوضى التى أخلت الأرض من فلاحيها وتركت الأشراف حيارى لا يجدون الأيدى العاملة التى تكدح فى الأرض وتُخرج منها ذهباً لا ينتفع منه سوى هؤلاء الأشراف الإقطاعيين ، فجأروا بالشكوى من حالة الفقر والبؤس التى تهددهم ، وانحصرت مطالبهم فى إيجاد طريقة لاسترجاع هؤلاء البؤساء الهاربين .

لبت الحكومة نداء الأشراف ، ووضعت التشريعات اللازمة لإرجاع الفلاحين إلى الأرض ، وإلا استهدفوا للسجن أو الإعدام ؛ ونشط البوليس فى جمع الفلاحين وتصديرهم إلى الأراضى الزراعية ، وصدر مرسوم قيصرى فى عام ١٦٤٨ ، كان فاتحة نظام رقيق الأرض ، إذ كان من نتيجته تسليم الفلاحين للأشراف باعتبارهم جزءاً من أملاكهم ، بحجة أن ذلك

يعيد الاستقرار ، ويسخر الجميع للمصلحة العامة ، ويوفر الأيدي العاملة ، فيزداد إنتاج البلاد ، وتجاهلت الحكومة حقوق الفلاحين ، لأنها أعطت رق الأرض صبغة قانونية،وطبقت عليهم بعض القوانين القديمة التى وضعت للعبيد ، فأصبح الفلاحون تحت رحمة سادتهم ملاك الأراضى كأنهم قطيع من الأغنام ، وصارت الأرض تباع بما عليها من البشر ، بل كان بعض الأشراف يستعمل فلاحيه كعملة يسدد بها ديونه ، أو يستبدل بهم متاعاً يريد شراءه !

وقد عانى الفلاحون فى روسيا خلال القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر من ألوان العذاب ما جعلهم يفضلون الفرار إلى غابات سيبريا المجهولة ، كما أدى الطغيان فى بعض الحالات إلى فرار بعضهم لتكوين عصابات لقطع الطرق ومهاجمة المزارع الكبيرة أثناء الليل ، ولكن الغالبية العظمى من سكان روسيا ظلت ترزح تحت نير الرق والاستعباد .

* * *

ولما تولى الحكم بطرس الأكبر (١٦٨٩ — ١٧٢٥) أعظم ملوك آل رومانوف ، كان من المنتظر أن تشمل إصلاحاته العديدة ونهضته الكبرى تحرير الفلاحين من رق الأرض ؛ ومع أن بطرس الأكبر اتجه بنهضته إلى الأخذ بمبادئ الحضارة الحديثة ، فقد أهمل ذلك الجانب الإنسانى فى سياسته ؛ ذلك لأنه كان يعتقد أن نظام رقيق الأرض يصلح لإنهاض الإنتاج الزراعى ، وأنه أصبح من العمد التى يستند عليها بناء الدولة الاقتصادى وكيانها الاجتماعى ، بل إن بطرس الأكبر زاد الفلاحين

عنتاً فوق عنت ، فقد أباح للإقطاعيين استخدام الفلاحين فى منازلهم ، وحرّم عليهم مغادرة الأراضى بغير إذن كتابى من سادتهم ، وذلك إذا لم تبعد رحلة الفلاح عن أرض سيده أكثر من عشرين ميلا ، فإن زادت على ذلك كان عليه أن يخطر الحكومة ، فإن لم يفعل عُدّ فى نظر القانون هارباً ، ويحاكم بتلك التهمة الخطيرة .

ويلاحظ هنا التشابه الكبير بين هذه القوانين القيصرية ، والتشريعات العمالية فى روسيا الشيوعية كما سنصفها بعد ، وهو تشابه يلفت النظر ، ويحمل على اليقين بأن معاملة الزرّاع الروس فى العهدين القيصرى والشيوعى مستمدة من فلسفة واحدة !

* * *

وقد نجح بطرس الأكبر فى جعل سلطان القيصر مطلقاً لا رادّ لحكمه ولا معقب لمشيئته ، وحتى الكنيسة لم تفلت من قبضته ، ففى سنة ١٧٠٠ توفى البطريرك ، وسرعان ما ألغى بطرس منصبه ووضع نفسه على رأس الكنيسة ؛ ومنذ ذلك الوقت أصبح رجال الدين فى خدمة القيصر ، وأصبحت الكنيسة أكبر أداة لتأييد الحكم الأوتوقراطى فى روسيا .

وقد حكم بعد بطرس الأكبر قياصرة ضعاف ، عمت فى عهدهم الفوضى ، وكثرت حوادث فرار الفلاحين من الأرض ولم تجد الحكومات المتعاقبة بدّاً من الاعتماد على الأشراف الإقطاعيين ، فمكنوهم من رقاب فلاحيهم ، وأصبح للسيد منذ عام ١٧٦٥ حق عقاب الفلاحين كما يحلو له .

وكان الأشراف نوعين : أشراف الدم ، وهم أمراء المقاطعات ؛

وأشراف العمل ، وهم كبار الموظفين ووجوه الدولة الذين اكتسبوا ألقاب الشرف على حسب نظام خاص وضعه بطرس الأكبر .

وقد احتكر الأشراف مع القيصر والأسرة المالكة تسعة أعشار الأرض الزراعية فى روسيا ، كانوا يتمتعون بامتيازات تشبه امتيازات الأشراف فى فرنسا قبل الثورة الفرنسية ، كاحتكار الرتب السامية فى الجيش ووظائف الحكومة الكبرى ، والإعفاء من الضرائب ، وحق تسخير رقيق الأرض فى الأرض ، إلى غير ذلك من الامتيازات التى جعلت أغلبية الشعب إلى جانبهم عبيداً مسخرين . . .

وبقى نظام الحكم فى روسيا أوتوقراطياً ، فالقيصر ظل الله فى الدولة ، وموظفوه الطغاة ظل القيصر فى المقاطعات والأرياف .

ورضى الشعب قروناً طويلة بما قسم له ، حتى إذا استهل القرن التاسع عشر ، ظهرت فى روسيا طبقة من المفكرين كانوا على اتصال دائم بما يجد من أوربا — وعلى الأخص فرنسا — من أفكار تقدمية جديدة ، فقد قرءوا هجوم فولتير على النظام الفرنسى القائم حينذاك ، وأطلعوا على آراء مونتسكييه فى الحرية ، وآراء جان جاك روسو فى حقوق الإنسان وتحطيم قيوده .

وقد كان القرن التاسع عشر مليئاً بالأفكار الجديدة ، والنظريات السياسية المستحدثة ، والانقلابات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وكانت روسيا فى الواقع أحق من الدول بأن تنال نصيبها من ثمرة تلك النظريات الجديدة ، إلا أن حكومتها الأوتوقراطية أغلقت أبوابها فى وجه

التجديد أو الإصلاح ، ولم يسمح نظامها بإجراء أى تعديل إلا فى أضيق الحدود ، فقد حاول بعض القياصرة القيام ببعض مشروعات الإصلاح ، ولكنها كانت كلها جزئية لا تفى بالغرض المنشود ، ولو وازنا بين النظام الأوتوقراطى القيصرى فى روسيا ، ونظام الحكم المطلق فى بعض الدول الأوربية ، لوجدنا الفارق يكاد ينحصر فى أن ملوك الغرب كانوا — برغم تمتعهم بالسلطة المطلقة — يعترفون بسلطات القانون، أما فى روسيا، فلم يكن القيصر يعترف بوجود القانون ؛ ويتمثل ذلك جلياً فى القيصر بول الأول (١٧٩٦ — ١٨٠١) فقد كان عند ما تُذكر أمامه كلمة القانون ، يشير إلى صدره صائحاً « هنا القانون » .

وبينما كانت شعوب أوربا فى القرن التاسع عشر تجاهد فى سبيل حريتها وتخليص شعوبها من الحكم المطلق ، كان قياصرة الروس يتشبثون بنظمهم القديمة ، ويعملون على كبت حركات الإصلاح .

يضاف إلى ذلك أن السلطة المكملة للأوتوقراطية تكره التجديد وتحارب الإصلاح ، لأن المبادئ الحرة الجديدة قامت لتحرم هؤلاء الإقطاعيين من الإثراء والتنعم على حساب الشعب ، لذلك قاموا بدورهم بالمعاونة على التجسس على الجماعات التى تطالب بالإصلاح وتنادى بالدستور وتهتف بالاشتراكية .

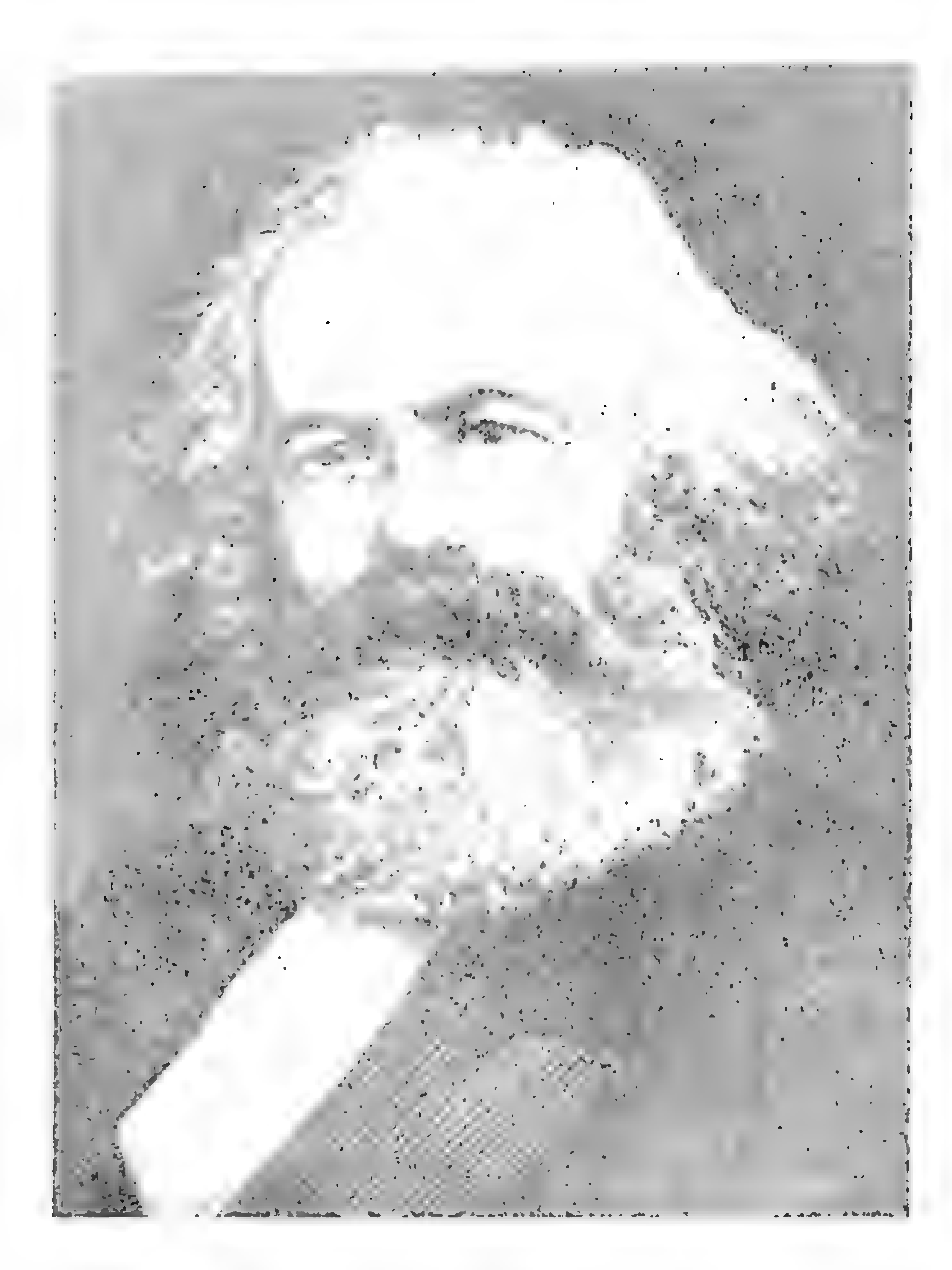
وبهذا تسربت الأفكار الاشتراكية الماركسية إلى روسيا ، فوجدت أرضاً خصبة متعطشة لمثل تلك المبادئ ، وظهر أول كاتب روسى اشتراكى هو « باكونين » الذى كان يعتقد أن الثورة وحدها هى السبيل

إلى تحقيق مبادئ الفيلسوف الاشتراكي الألماني كارل ماركس .

* * *

وقد ولد كارل ماركس فى مدينة تريفز Treves بألمانيا ، كان أبوه يهوديًّا اعتنق المسيحية ، وقد أراد أن يهيئه للمحاماة أو لوظيفة فى الحكومة البروسية (الألمانية) ، ولكن كارل ماركس اختار لنفسه أن يشترك فى ثورات عام ١٨٤٨ ، فأصبح من أنصار جماعة ألمانيا الفتاة ، ثم سافر إلى باريس ، حيث اتصل بالاشتراكيين الفرنسيين ، وقابل هناك الفيلسوف الألمانى فردريك إنجلز (١٨٢٠ — ١٨٨٥) Engels الذى كان قد أمضى فى إنجلترا بعض الوقت متصلا بالاشتراكيين الإنجليز .

وفى سنة ١٨٤٥ طُرد ماركس من باريس ، فذهب إلى بروكسل وبصحبته زميله وصديقه إنجلز ؛ وهناك أخذ يواصل نشاطه . وقد طُلب إليه فى ذلك الحين أن يضع لائحة للجمعية الشيوعية الألمانية التى اتخذت باريس مركزاً لنشاطها ، فأصدر أول لائحة شيوعية ، وهى لائحة على أعظم جانب من الخطورة ؛ تقدَّم فيها بفلسفة جديدة للتاريخ ، وبرنامج جديد للإصلاح الثورى ؛ وقد تبين أنه تأثر فى قراءته بفلسفة « هيجل » التى تفسر التاريخ فى قاعدة تضع الماضى والحاضر والمستقبل فى ترتيب منطقى محتوم ، فتقول تلك الفلسفة إن الشيوعية البدائية بعد خلق الإنسان قد قهرتها النظم الإقطاعية ثم حلت محلها ، ثم جاءت البورجوازية الرأسمالية فحلت محل النظم الإقطاعية ، وقد جاء دور الطبقات العمالية الكادحة لقهر الطبقات البورجوازية وانتزاع ما فى أيديها ؛



کارل مارکس

فالتاريخ بأكمله ما هو إلا كفاح بين الطبقات ، ودكتاتورية الرأسماليين لابد أن تخلفها دكتاتورية العمال ، ثم يخلف دكتاتورية العمال مجتمع عديم الطبقات ؛ لذلك كان كارل ماركس يدعو العمال من جميع الأجناس فى العالم إلى الاتحاد ليكسبوا حرب الطبقات ضد الرأسماليين.

وهكذا كان كارل ماركس فى برنامجه الذى وضعه للطبقة العمالية — التى أطلق عليها الكلمة الرومانية القديمة البرولتاريات — مُنكراً لمبادئ القومية والوطنية ، إذ يجمع العمال كلهم من جميع الأجناس فى قومية نظرية مشتركة ضد الرأسماليين من جميع الأجناس ، وهو فى الوقت نفسه يتهم الدين بأنه يساعد على الاستغلال ، لأن الكنائس كانت دائماً تحالف الرأسماليين ، وقد تأثر عدد كبير من المثقفين الروس بهذه المبادئ .

وأصبحت حالة روسيا فى أواخر القرن التاسع تستدعى الإصلاح ومحاولة تطبيق بعض النظم الاشتراكية المعتدلة ، حتى لا يحدث الانفجار الذى يهدد كيان الدولة ؛ ولكن القياصرة والنبلاء والإقطاعيين لم يحاولوا من جانبهم تحقيق العدالة الاجتماعية فى بلادهم على أية صورة من الصور . ومع أن القيصر إسكندر الثانى قد قُتل بقنبلة ألقيت على عربته فى أحد شوارع بطرسبرج سنة ١٨٨١ ، فإن ابنه القيصر إسكندر الثالث (١٨٨١ — ١٨٩٤) لم يعتبر بمقتل أبيه ، بل ظل سادراً فى حكمه الاستبدادى ، وزاد عليه مراقبة الصحف والمطبوعات ، ومنع دخول الكتب الأوربية ، وطرد ومنع أولاد العمال والفلاحين منعاً باتاً من

متابعة الدراستين الثانوية والعالية ، وعمد إلى تقوية نفوذ الأشراف والإقطاعيين على حساب العمال والفلاحين والطبقة المتعلمة ، وتبعه نيقولا الثانى ، ذلك القيصر الذى قامت الثورة الشيوعية فى عهده ، فكان كالملك لويس السادس عشر ، متردداً بين الإصلاح والرجعية ، وكان ضعيف العزيمة ، سقيم الوجدان ، حتى انتهى به الأمر أن وضع ثقته فى راهب أفاك ، يتظاهر بالتشدد فى الدين والدين منه براء ، ولم يحاول القيصر أن يتفهم معنى العدالة الاجتماعية ، وانتهى الأمر به إلى خشبة الإعدام ، ووقعت روسيا فريسة فى براثن الشيوعية .

ونشبت الثورة الشيوعية الحمراء فى روسيا ، سنة ١٩١٧ ، خلال الحرب العالمية الأولى ، ولم تزل ناشبة حتى اليوم ؛ وانتهت منذ ذلك التاريخ ديكتاتورية القياصرة ، لتخلفها فى الحكم ديكتاتورية من نوع آخر ، يصفونها بأنها ديكتاتورية العمال ؛ ولكنها فى حقيقتها ليست ديكتاتورية عمال ، بل لعل العمال هم بعض ضحاياها ، أو أكثر ضحاياها ؛ وإنما هى ديكتاتورية طبقة ممتازة ، فرضت نفسها باسم العمال على الجهاز الحاكم ، وملكت السلطات كلها فى يديها ، فاجتمع لها من أسباب البطش والقوة أكثر مما كان فى أيدى القياصرة ، ليستغلوه على وجه أشنع وأبشع مما كان فى أيدي القياصرة ؛ وذلك هو النظام الشيوعى فى روسيا ؛ وسنفصل مجمل ذلك كله فى الفصول التالية من هذا الكتاب . . .

نحن والشيوعية

لماذا نهتم بالشيوعية ونُعنى بدراستها ؟

ذلك سؤال قد يتوجه به أحد القراء إلينا أو إلى نفسه ، وعلينا أن نجيبه ؛ فنحن لا نحاول هذه الدراسة عبثاً ولغير غاية ، وإنما نستهدف غرضاً قومياً نرجو أن يعود على أمتنا بالخير . . .

فى رواية « فاوست » للشاعر الألمانى العظيم « جيتى » يتحدث أحد المواطنين الألمان فيقول « أحب شىء إلىّ فى أيام الآحاد والأعياد ، أن أتحدث عن الحروب الدائرة فى بلاد الترك ، بعيداً عن ديارنا وأوطاننا ؛ هنالك تزهق النفوس ، وتتطاير الرءوس ، وهنا أجلس إلى نافذة الحانة ، فأحتسى قدحاً من الصهباء ، وأرى الزوارق تغدو فى النهر وتروح ؛ ثم أعود إلى دارى فى المساء ، فأرى السلم ضارباً أطنابه ، والسكون يشمل كل شىء ؛ فأحمد الله على السلام والسلامة ! »

بمثل هذه اللهجة التى تنم على البلادة وجمود الحس وضيق الأفق ، يتحدث المواطن الألمانى كما يصوره لنا جيتى فى روايته المشهورة ؛ ولكن ذلك كان فيما سلف من الزمان ، وقد انطوى ذلك العهد ولن يعود مرة أخرى ، وليس فى وسع إنسان رشيد ، فى أى ركن من أركان الدنيا ، أن يتحدث فى العهد الحاضر بمثل هذه اللهجة ؛ فقد أصبح العالم كلا متصل الأجزاء كالجسم الحى ، فحدوث أزمة اقتصادية أو سياسية فى أية أمة من أمم

أمريكا الجنوبية ، أو نشوب حرب فى الشرق الأقصى ، أو وقوع كارثة من الكوارث فى إحدى أمم أوربا الشمالية ، لابد أن يكون له صدى وأثر بعيد المدى فى سائر أنحاء العالم ، ولذا أصبحت محاولة فهم المشكلات العالمية الأساسية فريضة على كل فرد . . .

ولا مناص للفرد فى الدول الديمقراطية من متابعه السياسة العالمية والإلمام بها ، ليستنير عقله ، ويتسع أفقه، ويشارك عن فهم وبصيرة فى تدبير سياسة أمته وبناء مستقبلها ؛ والذى يتخلى عن هذا الواجب أو يقصر فيه ويلقى حبله على غاربه ويلوذ بعدم الاكتراث، إنما يقصر فى حقه نحو نفسه ونحو بلاده ونحو الإنسانية جميعها ، وكأنه يقبل أن يرى الأشياء بعيون الغير لا بعينيه ، ويفكر برءوسهم لا برأسه ، ويستسلم لإرادتهم متنازلا عن إرادته . . .

وتداخل السياسات العالمية ، واشتباك المصالح والأهداف ، وصراع الاقتصاديات ، وتطاحن الآراء والمذاهب والنظريات — كل ذلك يجعل محاولة الفهم مسألة شديدة التعقيد ، محفوفة بالأخطار والمزالق ؛ وليس من السهل أن يجد الإنسان فيها الطريق الوسط بين التعقيد والتبسيط ، وعلى المواطن المسئول أن يضع نفسه فى مكان السياسى الذى يدبر الخطط ويرسم الاتجاهات ، أو الزعيم القومى الذى يقود الجماعات ويلهب الحماسة ، أو الموظف أو العامل أو المزارع ، ليستوفى تجارب كل منهم ويضبط أحكامه على طبيعة أعمالهم . . .

ولا نزاع فى أن أكبر مشكلات العصر السياسية ، هى مشكلة ذلك النزاع العالمى القائم بين الديمقراطيات الغربية وروسيا السوفيتية ؛ أو بلفظ آخر: النزاع القائم بين الرأسمالية والشيوعية ؛ فنى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، أخذ الخطر الشيوعى يشتد ويستفحل وتتوالى نُذره ، وشغل أفكار كبار الساسة فى العالم الحر ، حتى كثر توقعهم للحرب العالمية الثالثة ؛ فهل هذا الخطر من نتاج الخيال ونسيج الأوهام التى تمليها المخاوف ويصورها سوء الظن بالقوى التى تعمل خلف الاتحاد السوفييتى ؟

لقد اشتاق العالم إلى السلام ، بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، وكان هناك أمل عند بعض المفكرين فى أنه من الممكن التفاهم مع الشيوعيين ، وأن تعيش الشيوعية إلى جانب غيرها من النظم السياسية الأخرى ؛ ولكن الأيام لم تحقق هذا الظن الحسن ، وخيبت هذا الأمل المرجو ، وكشفت عن نيات الشيوعيين ، وأظهرت تدبيراتهم الهدامة ، وأهدافهم الخفية ، وخططهم المرنة الملتوية . . .

وسنحاول أن نصف الشيوعية فى هذا الكتاب بسماتها الحقيقية ، والصفات التى تلابسها ، لا كما تصورها الدعايات المتهمة ، أو كما يتحدث عنها المغرضون المضللون ، أو الأغرار المخدوعون والمتهوسون المفتونون ، أو كما تزينها وتزخرفها أوهام الواهمين وأحلام الحالمين الذين يحاولون أن يخلقوا من قبحها ودمامتها حسناً وجمالا ، ومن جحيمها جنة ونعيماً . . .

والحكومات فى العصر الحاضر تعنى بأحوال الفرد الاقتصادية

والسياسية والثقافية والاجتماعية ، وليست وظيفتها مقصورة على صيانة الأمن ، ولا تستطيع حكومة مسئولة أن تتخلى الآن عن ذلك الواجب ؛ ولكن المشكلة هى : كيف تنهض بهذا العبء دون أن تجور على حرية الفرد وتفنى شخصيته ؛ ولا سبيل إلى ذلك إلا بطريق تشجيع الفرد على المشاركة فى الحكم والتوجيه ، وتزويده بالثقافة والخبرة والتجربة اللازمة لذلك ، وإنماء ملكاته بالتربية الصحيحة وممارسة الخدمات الاجتماعية وضروب الحياة القومية فى المدرسة والحقل وميادين الصناعة والتجارة ؛ والنظام الشيوعى يسلب الفرد حريته ، ويضعه تحت الوصاية القاهرة ، والرقابة الشديدة التى تكاد تحصى عليه أنفاسه وتعد حركاته وسكناته ، والذين يعملون على إدماج بلادهم فى حظيرة الشيوعية يحاولون تعريضها لحكم قاس وديكتاتورية صارمة تعتمد فى تدعيم سلطانها على الجاسوسية ، وتقوم على خنق الحريات ، وقد يدفع بعض الناس إلى ذلك ضيقهم بأحوال بلادهم ، ولكنهم فى مثل هذه الحالة يستجيرون من الرمضاء بالنار ، ولو أنهم علموا ما بالشيوعية من شرٍّ وهوان ، أو لو أنهم عاشوا فى جوها وعانوا تجربتها ، لملئت قلوبهم منها رعباً ونفوراً .

وأسطورة « إلغاء نظام الطبقات » التى تتغنى بها الشيوعية ، خرافة لم تحدث قطُّ ولا يمكن أن تحدث فى يوم من الأيام ، لأنها مخالفة لطبائع الأشياء ؛ وما دامت الناس تتفاوت فى القدرات والملكات ، فكيف يمكن أن يسوَّى بينهم فى الأقدار والدرجات والطبقات ؛ فاختلاف الطبقات مسألة باقية ودورة خالدة ؛ وفى روسيا السوفيتية نفسها ، قد

انمحت الطبقات ، لتأخذ طبقات أخرى جديدة فى الظهور ؛ وغاية مايمكن الوصول إليه فى ظل أحسن النظم الاجتماعية، هو تحسين علاقات الطبقات بعضها ببعض ، بدون تعريض المجتمع للرجات العنيفة والانقلابات المدمرة ؛ والبلاد التى قطعت مرحلة لا بأس بها فى هذا السبيل عن طريق الضرائب التصاعدية وضريبة الميراث ، قد أيأس تقاربُ الطبقات بها دعاة الشيوعية . . .

ولا نزاع فى أن النظام الرأسمالى لا يخلو من ظلم وغبن وفقر وشقاء ، وأنه حتى فى ظلال الديمقراطية الحقة ، فى حاجة ماسة إلى التهذيب والإصلاح ، ولكنه على سوئه يترك الفرصة متاحة لأى إنسان ، ليشق طريقه وينال حظه ويحقق طموحه ؛ والفقير حينما يقع فى وهمه أو يستقر فى يقينه أن فقره ضربة لازم، وأنه لا يجدى فى علاجه الكفاية والذكاء والتوفر على العمل والإخلاص فيه ، ، يسخط على النظام القائم ، ويتبرم به ، ويعمل على هدمه ؛ وهذه هى الثلمة التى تدخل منها الشيوعية على النظام الرأسمالى ، ومن لا يكون له نصيب من الحظ فى دولة من الدول يود زوالها ، ويجهد فى تقليص ظلها ؛ وأما إذا اتسعت للناس مجالات العمل ، وأتيحت لهم الفرص المواتية ، وتيسر لهم تحقيق طموحهم ورفع مستواهم ، فإنهم يقبلون على العمل بنفس مطمئنة ، ويقدرون قيمة النظام الذى يعيشون فى رحابه ، ويستمسكون به ، ويدافعون عنه . . .

والنظم الديمقراطية هى نتاج عقول راجحة وتفكير حر مستنير ، يقوم على أساس صحيح من فهم النفس الإنسانية وظروفها وحاجاتها ؛

والشيوعيون يغلب عليهم التعصب والتهوس ، والإيمان الأعمى بالانقلابات الدامية والثورات الحمراء والهدم والتخريب ، وعندهم أن الغاية تبرر الوسيلة ، ولا يلقون بالهم إلى أن الوسيلة إذا ساءت وقبحت مس هذا القبح والسوء الغاية المبتغاة وأثر فيها .

وقد كتب مرة الزعيم الشيوعى لينين إلى مكسيم جوركى الأديب الروسى المشهور ، رسالة يقول فيها : « هلاك ثلاثة أرباع العالم ليس بشىء ، وإنما الشىء الهام أن يصبح الربع الباقى منهم شيوعيين ! »

ويعتقد الشيوعيون أنهم بمناصرتهم للشيوعية وترويجها وإذاعتها يساعدون فى تقريب الغاية البعيدة التى يتجه إليها التاريخ البشرى ، أو الحركة التاريخية العالمية الشاملة كما يسمونها ؛ ولا يخالجهم شك فى أن الشيوعية ستنتصر فى النهاية ، وأن انتصارها كالقضاء المحتوم لا يمكن دفعه ولا فائدة من مقاومته ، لأنها كالتيار المكتسح الغامر ، وأنهم لو كفوا عن الدعاية وقعدوا لقامت الحركة الديالكتيكية بتحقيق الغاية التى يتجه إليها التاريخ من أقدم العصور ، وإنما هم قوم أخيار ، متطوعون للمساعدة ، أسخياء ببذل الجهد ، حريصون على مصلحة البشرية القاصرة ؛ فهم يستعجلون الوصول إلى أرض الميعاد ، وإلى النعيم المرتقب ؛ ويرون أن النظام الرأسمالى قد قضى مهمته واستنفد طاقته ، وأن طبقة العمال الكادحين — البروليتاريا — هم الآلة الجديدة لتحقيق التطور الاجتماعى ، وأن نجاح هذه الطبقة لازم لتسير الإنسانية فى مراحل التقدم ، أى أن نجاح هذه الطبقة لازم للإنسانية جميعاً لا لطبقة بعينها ...

وقد كان لهذا اللون من ألوان التفكير الشيوعى أثره الواضح فى احتقار الفرد والاستهانة بقيمته ، لأن هدف الشيوعيين هو نجاح الجماعة ، من غير أى اعتبار لقيمة الفرد ، وقد قبلوا النظرية التى استنبطها كارل ماركس من فلسفة « هجل » وعدّل فيها وبدّل لتلائم أهدافه . . .

وعند هجل أن الفرد ليس حقيقة كالمجتمع ، وإنما هو « تعبير خاص » عن المجتمع ، وهجل من أنصار النظرية القائلة إن المجتمع وحده هو الموجود حقاً ، وأن الأفراد ليسوا سوى تجريدات ، أو مختصرات من الكل الاجتماعى المعين ، ومرد هذه النظرية إلى النظرية القائلة بأن كل الأشياء الزائلة المحدودة ، بما فيها العقول البشرية ، قوام وجودها علاقاتها بسائر الأشياء ، وأننا لا نعرف عن الأشياء سوى نظام علاقاتها بسائر الكون ، وخارج هذه العلاقات لا يمكن معرفة شىء . . .

وتطبيق هذه النظرية على أحوال المجتمع يجعل الفرد مديناً للمجتمع بكل شىء ، فحياته فى مجموعها وفى كل لحظة من لحظاتها تعبير عن إرادة المجتمع وتفكيره ، والتقاليد التى ينشأ فيها الفرد هى التى تغذو تفكيره وتصوغ عقليته وتنصب فى قوالبها تجاربه ، وهو لا يستطيع أن يسمو على ثقافته التقليدية إلا إذا أرغمته على ذلك ظروف حياته الاجتماعية ؛ ويحاول هذا المذهب أن يشق طريقاً لطرافة الفرد الموجدة الخلاقة ، وأن يجد لها تفسيراً لا يتعارض مع تلك النظرية ؛ فيجعلها معبرة عن الروح العامة التى غلبت عليه وتملكته . . .

وواضح أن هذا المذهب يؤدى إلى تأليه المجتمع ، وانتقاص قيمة

الفرد ، ويتبع ذلك أنه من الخير للفرد أن يقف مواهبه على خدمة المجتمع ، فهو لا يخدم المجتمع عن طريق خدمته لمصالحه ، ولكنه على عكس ذلك يخدم مصالحه عن طريق تفانيه فى خدمة المجتمع ، وهو بذلك يحقق ذاته الحقيقية فى رأى الفلسفة المثالية !

ولما كان الفرد فى حالة عزلته عن المجتمع يزول كيانه ، لأن وجوده محض تجريد من المجتمع الكلى ، فإنه ليس من حقه أن يقف من المجتمع موقف القاضى الذى يصدر الأحكام ويقدر البواعث ويزن الأفعال وينقد الآداب الذائعة والعرف المتبع . . .

ولما كان تفكيره جزءاً يسيراً من ثقافة المجتمع الكلية ، فمن خطل الرأى ، ومن الخفة والطيش ، أن يحكم على تلك الثقافة فى ضوء فهمه الخاص وتفكيره الفردى .

ولما كان ضميره الأدبى نفسه صورة ناقصة من الضمير العام ، فمن الفساد والشر أن يحكم على الآداب المتواضع عليها فى ظل بداهته الأدبية ، وواجبه الأسمى أن ينهض بأعباء وظيفته الاجتماعية أقوى نهوض ، ويؤديها على أحسن وجه ؛ وهناك أفراد قلائل ممتازون ، أوتوا البصيرة النافذة التى يتعرفون بها حاجات المجتمع وإمكانيات تقدُّمه ، وهؤلاء هم الذين يتولون تفسير الإرادة العامة والإبانة عن مقاصدها ، وهم العقل الذى تفكر به البيئة الاجتماعية ، وبدون وساطة هؤلاء وإرشاداتهم تتعثر الجماعات فى عشواء الجهالة ، وتتنكب الطريق السوى . . .

ولا خفاء فى أن الإيمان بهذا المذهب ، اعتراف بوجود طبقة خاصة

من حقها السيطرة والتوجيه ؛ وهو كذلك مذهب يلائم الحزب الثورى الذى يزعم أن له رسالة لإصلاح المجتمع ، ويشعر بأنه فى حاجة إلى النظام الصارم والتماسك الشديد والطاعة التامة والولاء الكامل من الأعضاء والأتباع . .

وقد استخرج ماركس هذا المذهب من فلسفة هجل المثالية، وزوّد به فلسفته المادية، واستطاع بذلك أن يجعل للثورة هدفاً أخلاقياً ملائماً لنشوء طبقة أوليجارشية ، تتولى القيادة والتوجيه ، وتفرض على شيعتها الطاعة العمياء . . .

ويثير هذا المذهب فى نفوس أتباعه لوناً من ألوان الحماسة تشبه الحماسة التى يبعثها الدين فى نفوس المؤمنين به ، فالفرد يعتقد أنه يعمل لغاية تعلو على غاياته الخاصة ،وهذا سبب من أسباب قوة أثر هذا المذهب ، ومن أسباب خطورته فى الوقت نفسه ؛ فهو يمهد السبيل لعبادة الحزب ، أو عبادة الدولة ، أو عبادة الأرومة الشعبية ؛ ويخلق نوعاً من التهوس والضيق والتعصب لا ينفع فى علاجه المنطق ولا التفكير السليم ، وهو ما يلحظه الإنسان حينما يتخوّنه الحظ فيجد نفسه فى حضرة أحد المفتونين بالشيوعية ، وهو من ناحية أخرى يملى فى الغرور للأفراد النزاعين إلى فرض أنفسهم وتأكيد شخصيتهم ، ويجعلهم يعتقدون فى أنفسهم أنهم قادة ملهمون ، وأنهم يجب أن يكونوا فى موضع التجلة والتقديس ؛ وقد يبدو لهم أن يجعلوا أهواءهم ونزواتهم قوانين واجبة الطاعة ، وهو إلى ذلك يزود هؤلاء الذين يرون من حقهم التزعم والقيادة بالحجج التى تسوغ

كل ضروب الطغيان وألوان الاستبداد ؛ وأشد من ذلك كله خطورة ، أنه يجعل الأفراد العاديين الذين لم يرزقوا حظاً من النشاط الفكرى ، يطرحون عن كاهلهم عبء التبعة الفكرية والأخلاقية ، ويتقبلون الآراء والأفكار بغير نقد ولا مناقشة ، سواء من القادة والأعلياء أو من الدعاية التى تسيطر عليها الطبقة الحاكمة ، ويصبح هذا المواطن الذى تنازل عن عقله وضميره وألغى تفكيره وشخصيته ، آلة مسخرة عمياء ، وصدى أينما تذهب به الريح يذهب ، وهذا هو المصير المحتوم للفرد فى النظام الشيوعى . . .

ومن السهل القول بأنه فى إبان الثورة لا محل للتسامح والترفق والرحمة واحترام الشخصية الإنسانية ، وهذا حق ، ولكن هذه المذاهب الخطرة التى لا تقيم للفرد وزناً قد لا تؤذى فى أيام اشتعال الثورة ، وقد تكون قليلة الضرر فى الفترة التالية ، فترة البناء والإنشاء ، ولكن الموقف يتغير بعد ذلك شيئاً فشيئاً ، إذ تهدأ الحماسة الملتهبة ، ويصبح المعول على النظرية فى ذاتها ؛ واعتقاد الشيوعيين أن الأخلاق خادمة للمجتمع ، مسخرة لغايات الثورة ، قد يميل بهم إلى الاستعانة بالكذب والمغالطة وتشويه الحقائق والاتهامات الباطلة ومحاربة أعدائهم بكل سلاح . . .

وفكرة المجتمع الشيوعى الخالى من الطبقات والقائم على المساواة المطلقة ، حلم قديم فى صورة جديدة ، وقوة الدعاية الشيوعية مستمدة من عاملين : العامل الأول تظاهرها بالصبغة العلمية ، وإضفاء ثوب الحقيقة الواقعة التى لا تقبل الجدل على تفسيرها المادى الاقتصادى للتاريخ ، والطنطنة به ،

وعدّه كشفاً عظيماً ، والواقع أن التفسير المادى للتاريخ أمر له أهميته ، ولكنه أحد التفسيرات الكثيرة وليس هو التفسير الوحيد ؛ فقد تكون عوامل التاريخ اقتصادية ، وقد تكون شيئاً آخر غير الاقتصاد ؛ فالعامل الاقتصادى هو أحد العوامل الفعالة فى التاريخ ، ولكنه ليس هو العامل الفذ ؛ وقد اعترف إنجلز صاحب كارل ماركس وزميله فى الجهاد ، فى رسالة كتبها إلى بلوخ فى سنة ١٨٩٠ — أى قبل وفاته بخمس سنوات — بأنه هو وماركس قد بالغا فى تقدير أهمية الأسباب الاقتصادية . وأكد مضمون هذه الرسالة لصاحبه ستاركنبرج فقال : « ماركس وأنا مسئولان جزئياً عن حقيقة أنه فى بعض الأوقات قد أعطى أتباعنا أهمية للعامل الاقتصادى أكثر مما يستحق ، ولقد اضطررنا إلى تأكيد صفته المركزية فى معارضتنا لخصومنا الذين كانوا ينكرونه ، ولم يكن هناك وقت ولا مكان ولا فرصة لإنصاف العوامل الأخرى فى الحركة التاريخية . »

ولكن برغم ذلك كان لهذه النظرية فى تفسير التاريخ تأثير ساحر . . .

والعامل الثانى من عوامل قوة الشيوعية ، الأمل الذى تبعثه فى نفوس أتباعها ، فالشيوعية ترحب بالجهاد والكفاح والثورة والدماء ، باعتبارها وسائل لازمة لغاية بهيجة مشرقة لامعة ، هى وجود عالم خال من الطبقات ، ليس فيه دين ولا قومية ولا شعوبية ولا ثروة تُفاضل بين الناس ، عالم لا يعرف البؤس والشقاء ، ولا الفقر والحاجة ، ولا الاستغلال والاستعباد ؛ وهى بذلك تعارض الفلسفات الأخرى اليائسة الحتمية التى فسربها التاريخ بعض المفكرين المحدثين حين

زعموا أن الحضارة الحديثة قد قدر لها الإخفاق والانهيار ، وأنها لا مفر لها من أن تلقى مصير الحضارات الزائلة المندثرة ، مثل الحضارة اليونانية والحضارة الرومانية وغيرهما من الحضارات البائدة ؛ وأشهر ممثلى هذه النزعة ، المفكر الألمانى المعروف « شبنجلر » مؤلف كتاب « تدهور الغرب » ، وقد ظهر كتابه فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وقد استخلص شبنجلر من دراسته لحضارات عدة سالفة قوانين نشوء الحضارات وسقوطها ، وأدوار الطفولة والشباب والكهولة التى تمر بها الحضارة ، وتكهن بسقوط الحضارة الغربية الذى ظهرت نُذره ولاحت لوائحه فى نمو المدن الضخمة والأبنية الشاهقة والمجتمعات ذات اللون الواحد ، وفى نقص قوة الحيوية والابتكار فى الآثار الفنية والأدبية والفلسفية العلمية ، وفى ظهور النظم الديكتاتورية والنزعات القيصرية . . .

وقد وجد المؤرخ البحاثة توينبى صعوبة فى تجنب مثل هذه النتيجة التى انتهى إليها شبنجلر ، ويرى توينبى أنه من السهل على الأجيال المتأخرة أن تقدر دورات النمو والسقوط فى الحضارات السالفة ، ولكن من الصعوبة بمكان أن نقيس بدقة المرحلة التى بلغتها الحضارة الراهنة ، وهو يفسح مكاناً لحرية العمل الإنسانى الذى قد يستطيع منع سقوط الحضارة واستنقاذها من مخالب الفناء ، وهو يعلق أمله بالروح الدينية العامة .

وتحاول حملة الدعاية الشيوعية فى خارج روسيا أن تثير كل طبقة وكل جماعة وكل فرد ، وأن تحرك أحقاده وتشعل نقمته ، وهى تستغل

جو السخط . والتذمر والنقمة لتبث أفكارها ، وتلوح للناس بالجنة الموعودة والنعيم المقيم ، وجهد الدعاية الشيوعية فى الخارج قائم على تنظيم التذمر والسخط والتبرم بكل لون من ألوان الحياة .

وهدف الشيوعية النهائى : الاستبداد والطغيان المطلق الذى لا يعرف حداً فى المكان سوى حدود الكوكب الأرضى ، ولا يعرف حداً فى الزمان ، لأن الشيوعيين يرفضون أن يتطلعوا إلى عهد يتجاوز العهد الشيوعى ، ولا حدود لسلطانهم على الفرد ؛ ورغبتهم فى السيادة والسلطان تحثهم على السيطرة على كل إنسان وتملكه واحتيازه وسلب حريته العقلية والاقتصادية ؛ وهذا ما يجعل الشيوعية فى حرب مع المعتقدات الدينية والأخلاقية وجميع القيم الإنسانية .

والشيوعية تنزل ميدان الدعاية والحرب باعتبارها ديانة أرضية ودولة عتيدة وارفة الظلال مبسوطة السلطان .

وجشع الشيوعية عظيم ، فهى تريد أن تبتلع كل شىء وتشمله وتجتويه ، وهى تحاول أن تمحو فوارق العقائد والمذاهب والقوميات والأجناس ، وتعمل على زعزعة رواسى النظم القائمة وتفكيك روابطها والتشكيك فى قيمها ، لتنشئ الأفراد نشأة جديدة على النمط الذى تريده .

ويعتقد الشيوعيون اعتقاداً جازماً غلاباً أن الشيوعية هى ما يجب أن يكون وأن يغلب ويسود ، وأن تاريخ العالم بأسره وماضى الإنسانية جميعه يستمد معناه من هذه الحادثة المنتظرة ، حادثة انتصار الشيوعية الشامل واشتمالها على العالم بحذافيره .

والذى ينظر إلى الشيوعيين نظرة مجردة من الهوى ، يدرك فى سهولة أنهم جماعة من مرضى التعصب والهوس والجنون بالفكرة الواحدة الثابتة ، والشيء المحزن أن الدعاة الشيوعيين يبذلون جهودهم ، وقد يعرضون حياتهم للخطر ، فى خدمة إمبراطورية تريد أن تفرض على العالم نظاماً أشد قسوة وصرامة من أى نظام آخر عرفته الإنسانية فى تاريخها الطويل !

واسترقاق القرن العشرين الحكومىّ الشيوعىّ يمكّن من استغلال العمال استغلالا أشد نكراً وأمضى حداً من استغلال النظام الرأسمالى لهم فى أوائل القرن التاسع عشر .

وقد أصبح للعمال فى الدول الديمقراطية صوت مسموع فى تقرير حالتهم وتحسين مستواهم وصون حقوقهم وضمان حياتهم ودفع غوائل الفاقة عنهم ، وقد استطاعوا انتقاص ساعات العمل ورفع الأجور والمرتبات بطريق المباحثات والمناقشات التى تتناول أحوالهم وتمس مصالحهم ؛ وليس للاتحادات التجارية فى روسيا السوفيتية أثر يذكر ، لأن النظام الشيوعى لا يسمح بوجود فكرة المعارضة ، والعامل فى نظر سادة الشيوعيين مجرد وظيفة ، ومحض آلة ، وليس من حقه حرية التنقل والاختيار ، وهو تحت رحمة الدولة فى كل شيء طوال حياته ، ولا يستطيع الانتقال من جهة إلى أخرى إلا بجواز ، وهو خاضع للعقوبات القانونية إذا قصر فى المحافظة على المواعيد ، وهو يعمل وقتاً أطول وبأجر أقل مما يتقاضاه العمال فى الأمم الديمقراطية .

وفى الفصل التالى تفصيل لحالة العمال فى روسيا السوفيتية . . .

العمال فى النظام الشيوعى

وليس من شك فى أن قدراً بالغاً من الدعايات المضللة يبذل فى مصر وغيرها لإيهام العمال والصناع بأن الشيوعية نظام بديع ، يجد العامل فيه كل ما تصبو نفسه إليه من حرية وكرامة ورزق موفور ، وأن قوانين العمل فيها كفيلة بخيرهم ، ورفعة مركزهم ، وضمان حقوقهم كمواطنين يحملون فوق كواهلهم بناء الدولة ، وكيان الأمة ، ويجدون إزاء هذه التبعات كل ما تطمئن إليه نفوسهم من توفير الرزق والصحة والعدالة ودقة النظام.

والكلام الجميل سهل ، وتصوير الخيالات شيء يفتن النفوس ، ويضلل الأذهان .ولكن الحقائق إذا عرفت ، وكانت وقائع ثابتة ، لا غلو فيها ، ولا عنصر دعاية ، كفيلة بإزالة الأوهام العالقة بالنفوس . . .

إن العمال فى الدول الديمقراطية يتعاملون مع أصحاب الأعمال على أساس من التعاون والوئام ، ولهم نقابات تحميهم ، وحكومات ترعاهم وتعنى بمصالحهم ، وقضاء ينصفهم إذا تنازعوا إليه فى خلاف بينهم وبين أصحاب الأعمال . . .

إن لهم فى الدول الديمقراطية أجورهم ، ومكافآتهم ، وتعويضاتهم إذا أصيبوا فى أثناء عملهم أو فصلوا فصلا تعسفياً بغير مبرر ؛ ولهم إجازاتهم ونفقات علاجهم إذا مرضوا ، والقانون هو الفيصل بينهم وبين أصحاب الأعمال ، وفيه من الضمانات ما يصون الحقوق والواجبات . . .

أما فى روسيا والدول التى تسير فى فلكها فالأمر مختلف كل الاختلاف...

إن صاحب العمل الأوحد هناك هو الحكومة أو على الأصح الحزب الذى يسيطر عليها وتتغلغل فروعه فى كل مكان فتؤلف قضباناً لقفص ضخم ، أو سجن أحمر ، يعيش العمال فيه مختبئين .

وقد يسأل سائل : ما سر بقاء هذا النظام فى تلك البلاد ؟ والجواب الصريح هو : الرقابة المتعنتة القاسية ، الرقابة الحديدية التى يتعذر الفكاك منها ، الرقابة البوليسية التى يتفانى الموكلون بها فى تنفيذها ، بدعوى حماية الدولة من كل عدوان خارجى ، ووقايتها من كل تمرد داخلى .

إن كل عمل هناك يرأسه مدير معين من الدولة ، وهو مسئول عن كل تقصير أو تراخ أو إبطاء فى الإنتاج ، فإذا لم يبالغ فى إعنات العامل ، وإرهاق الصانع ، عوقب بالفصل من منصبه بل قد يزج به فى السجن فلا عجب إذا هو أرهق العمال وأنهك قواهم ليظفر منهم بأغزر إنتاج ، فى أقصر وقت .

إن روسيا تعتمد فى تكوين أرباح الصناعات ، على المجموعات الكبيرة من العمال ، التى ترغم على العمل بسرعة جنونية ، ولا يهمها كثيراً إجراء تحسينات مستمرة فى الأجهزة والآلات ، أو إدخال أساليب العمل الحديثة التى ترمى إلى تخفيف العبء عن العامل والمحافظة على قواه وصحته ، لأن صحته فى نظرها أمر لا شأن له ولا أهمية ، وليس العامل عندها إلا قطعة من الجهاز الذى يشتغل عليه ، فلا بأس ولا ضرر من استهلاكه ، كما يستهلك المسمار ، أو اللولب ، أو المفتاح ، وكلما أهلك الجهد المضنى عاملا ، حل آخر فى مكانه ، فكان الآخر عندها ليس أكثر من قطعة من قطع الغيار !

. ولسنا نذهب بعيداً ، فهاهى ذى تشريعات العمال عندهم تكفى حقيقتها لإظهار مدى القسوة فى معاملتهم :

فى ١١ أكتوبر سنة ١٩٣٠ صدر مرسوم ينص على أن العامل يجب أن يقبل أى عمل يعهد به إليه ، وفى أى بلد ، وفى أى مكان .

وفى ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٣٠ ، و ٩ أكتوبر سنة ١٩٣٠ و ١٠ أغسطس سنة ١٩٤٠ صدرت مراسيم تحرم على العامل أن يتخلى من تلقاء نفسه عن أى عمل مسند إليه وإلا فإنه يعد هارباً ويحكم عليه بأن يقضى عشرة أعوام فى معسكرات العمل الإجبارى .

وينص مرسوم ١٦ ديسمبر سنة ١٩٣٢ ومرسوم ٢٦ يونيو سنة ١٩٤٠ على أن العامل إذا غاب يوماً واحداً ، أو تكرر تأخره عن مواعيد العمل ثلاث مرات فى شهر واحد ، فإنه يفصل من عمله ويحرم من بطاقة الاتحاد المثبتة لمهنته، والتى تعطيه حق السكنى والغذاء ، ويتعرض للحكم عليه بالسجن مدة تتراوح بين ستة أشهر وسنة .

وينص المرسومان الصادران فى أول يونيو سنة ١٩٣٢ و ٢ يونيو سنة ١٩٤٢ ،على أن العمال مسئولون مالياً عن أى ضرر يحل بالمصنع أو بالأدوات بحسب تقادير مدير العمل فقط ، وقد يصل ما يقتطع من أجر العامل إلى عشرة أمثال ما أتلف أو أضاع .

وينص القانون السوفيتى الأعلى الصادر فى ٢٦ يونيو سنة ١٩٤٠ ،على أن من حق المدير أن يفرض عقوبة السجن على العامل لمدة أربعة أشهر دون تحقيق ولا محاكمة !

أما إذا رأى أن ما أتاه العامل من مخالفة أو خطأ يستحق عقوبة أكبر ، فإنه يقدمه إلى « محكمة الشعب » وهذه تصل أحكامها إلى الإعدام !

وليس المدير هو الرقيب الوحيد على العمال ، بل لكل مصنع أو مؤسسة بوليس خاص يحصى على العمال أنفاسهم كما أن لمندوبى الحزب الشيوعى هذا الحق بالذات .

أىّ إهدار للآدمية وإرخاص لثمن الإنسان ، أبلغ من هذا الهوان ؟

وما الفرق بين هذا الحال ، وبين نظام السخرة الجائر الذى كان سائداً فى العصور المظلمة !

إن ثمن الآدمى فى ظل النظام الشيوعى يقل كثيراً عن ثمن السلعة التى ينتجها أو الآلة التى يعمل عليها .

إن الشيوعيين يصفون نظامهم بأنه « اشتراكى » ، فأى مظهر من مظاهر الاشتراكية وأى معنى من معانيها يبدو فى هذه القوانين العمالية أو فى حياة أولئك العمال .

إنهم يتشدقون بما يسمونه « المنافسة الاشتراكية » فما هى المنافسة الاشتراكية ؟ إنها مباراة جسدية لا أكثر .. ونهايتها على كل حال استهلاك القوى وإفناء الأجسام . . .

إن العامل صاحب القوة البدنية العادية والضعيفة ، يبذل آخر ما عنده لينتج « المقطوعية » المقررة ، أما العامل الذى أوتى صحة خارقة للعادة ، فإنه يستنفدها لينتج أكثر من تلك المقطوعية ، وفى أقصر وقت إن أمكن . . وهذا كل معنى المنافسة الاشتراكية عند الشيوعيين !

إنها ليست تسابقاً إلى الابتكار أو الإتقان ، بل هى تسابق إلى الموت ؛ وبهذه الطريقة يحقق الشيوعيون فكرة « الفرد ملك للدولة » .

ومن التعاليم المقررة فى المصانع أن :

١ — الحصة هى كمية العمل التى يجب على العامل إنتاجها حتى يستطيع أن يتناول أجره العادى .

٢ — الفرقة كلها خاضعة لنضال المنافسة الاشتراكية « فلا يجوز الاقتراب من العامل فى أثناء تأديته عمله أو انتزاع دقيقة واحدة من وقته .

٣ — يستحيل على العامل أن يضيع ثانية واحدة فى كلام أو تدخين أو تفكير غير متصل بما فى يده .

٤ — بل أعجب من ذلك كله وأشنع فى القسوة والعسف — أنه كلما نجح فريق من العمال الذين أوتوا قوة بدنية خارقة فى تجاوز « الطريحة » أو المقطوعية المقررة ، قيل للآخرين إن ما يستطيع البعض عمله يجب أن يعمله الكل » ، فإذا عجز خفضوا أجره !

٥ — وليس للأجور فى المصانع حد أدنى لا تقل عنه ، بل الأجور معرضة دائماً للنقص والتخفيض .

٦ — وكل ما يمكن أن يظفر به العامل الذى يتجاوز « المقطوعية » ، هو زيادة طعامه أو إجازة يقضيها فى أحد المصايف الحكومية .

٧ — ولكن هذه المكافأة الهزيلة لا يمكن أن تستمر ، فقد ثبت أن العمال الممتازين لا يمكن مطلقاً أن يحتفظوا بالحد الذى وصلوا إليه فإذا ما نقص إنتاجهم عنه ، تعرضوا لخفض الأجور وللعقاب ،

وهناك أيضاً – السركى – أو كتاب العمل ، وأحق به أن يسمى « الشبح المخيف » لأنه يطالع العامل أينما يتجه ويخيفه أينما يذهب ، بل هو مجموعة من الأصفاد تكبله، وسلاسل تشد عليه من جميع نواحيه .

ولكل عامل كتاب كهذا يدون فيه اسمه وعمره ودرجة تعليمه ومهنته ، والأعمال التى زاولها وأسباب فصله منها إن كان قد فصل مرة أو أكثر ، وبيانات أخرى عن أجوره ومكافآته .

ولا يقبل العامل لدى أية جهة من جهات العمل إلا بعد أن يقدم هذا الكتاب أو هذا السركى ويظل كتابه محفوظاً فى ملفه ولا يرد إليه إلا إذا خرج من هذا العمل بإذن خاص من المدير ، والمدير لا يمنح هذا الإذن إلا إذا قررت لجنة العمل الطبية أنه عاجز عن تأدية عمله ، ولم يكن لدى الإدارة عمل آخر يتناسب مع حالته الصحية الواهية ، وكذلك يأذن المدير بترك العمل إذا ألحق العامل بمؤسسة للتعلم أو بجهة من جهات التدريب .

أما إذا ترك العامل عمله بلا إذن من المدير فكتابه يظل محبوساً لدى الإدارة، وبهذا لا يستطيع الالتحاق بعمل آخر هذا عدا ما تقضى به القوانين من عقوبة حجزه فى معسكر السخرة عشرة أعوام .

وإذا ألحق مدير بالخدمة عاملا لا يحمل كتابه ، أو أهمل فى تبليغ البوليس عن عامل خرج بلا إذن اعتقل المدير وعوقب بأشد العقوبات .

وقد أخـــذت روسيا نظام كتاب العمل بكامل أجزائه عن ألمانيا النازية، وهكذا نرى أن الأنظمة الظالمة وإن تنافر أصحابها أو اختلفوا

لا تزال متقاربة متشابهة .

وتتبع هذه المظالم كلها ما يسمى « الاتحادات المهنية السوفيتية » وهى هيئات مشكلة من الحزب الحاكم ، وهى التى تدير الحياة كلها وتقيم بناء الإنتاج على أجساد العمال بل على جثثهم .

وموظفو هذه الاتحادات هم الذين ينفذون نظام الإنتاج بالقطع ، وهو يقضى بدفع أجر العامل تبعاً للكمية التى أنجزها وهم الذين يراقبون « المنافسة الاشتراكية » .

وهؤلاء الموظفون يعينهم الحزب وطريقة التعيين أن يعقد اجتماع عام لأعضاء الاتحاد من صغار العمال وتعرض عليهم قائمة مرشحين يعدها الحزب بنفسه ويكون التصويت على أسماء المرشحين برفع الأيدى ، فإذا صوت أحدهم ضد أى اسم ، اعتبر عدواً للشعب !

وهذه الاتحادات ، ذات سلطة فى إدارة برنامج التأمين « الوطنى الاشتراكى » فهى ممثلة فى اللجنة التى توزع المساكن ، وهى المسئولة عن مطابخ المصانع ، وعن توريد الأطعمة للعمال .

فلا عجب إذا لم يجد العمال بداً من الانضمام إلى هذه الاتحادات حتى لا تفوتهم هذه الفوائد أو جزء كبير منها .

ولقد حاول بعض العمال تكوين اتحادات خاصة لهم فكان جزاؤهم أن اعتبروا أعداء للشعب وقد صدر أخيراً قانون بتحريم تكوين اتحادات حرة فلم يبق إلا هذه الاتحادات الحكومية القائمة على العسف والبغى والطغيان .

وهناك شيء آخر يسمونه « الاتفاق الجماعي السوفيتي » وهو عبارة عن عقد إدارة اتحاد تمليه الحكومة وليس للعمال رأى فى إبرامه وإحكام الخطة التى تضعها الدولة لإنتاج مؤسسة معينة ويحتوى هذا الاتفاق على

أولا : أن يتبع العمال بدقة حدود الإنتاج التى تضعها الحكومة .

ثانياً : أن يحافظوا على نظام العمل السوفيتى طول مدة وجودهم فى وظائفهم وإلا تعرضوا لأشد أنواع العقاب .

إن العامل وراء الستار الحديدى ليس له كرامة ، ولا حرية اختيار ، ولا إرادة ، ولا أحد يرعى بشريته ، أو يخشى على صحته ، أو يغتفر له خطأ ، أو يحيطه من العدالة والرفق بسياج .

ومع هذا كله لا تكف أبواق الدعاة فى مختلف ربوع العالم عن المناداة بأن هذا النظام إنما وضع لإسعاد العمال ، وإنصافهم ، والعناية بأمرهم .

وموجز القول أن السادة الحكام المتربعين على كراسى السلطان فى روسيا السوفيتية، والذين يديرون من وراء ستار حركة الدعاية الشيوعية العالمية، والذين جعلوا الغالبية الكبرى من مواطنيهم عبيداً أرقاء، هم الذين أخذوا على عاتقهم فى عالم الدعاية أن يرفعوا النير عن المظلومين ويحرروا البشرية من أسر الفاقة والعبودية ؛ فهم وحدهم السادة وكل من عداهم عبيد ؛

تطور الشيوعية

عرضنا فيما سبق لنشأة الشيوعية وكيف قامت على أساس من فلسفة اليهودى كارل ماركس التى تردّ كل أسباب التطور التاريخى للبشرية إلى العوامل الاقتصادية ، وترى أن المال والعمل والإنتاج والاستهلاك ، هى دون غيرها الدوافع التى تسيّر الحركة التاريخية . . .

كما أشرنا إلى رأى ماركس فى الحكومة البورجوازية — أى حكومة الطبقات الوسطى — وتحيطمها والقضاء عليها ؛ ليقوم المجتمع الجديد على أسس جديدة ، أولها إلغاء الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج والقضاء على المشروعات الفردية؛ لتكون كل موارد الإنتاج ملكاً عامّاً للمجتمع ، ينظمها التنظيم الإجتماعى الذى يكفل المساواة بين الطبقات ...

والسبيل إلى تحقيق هذا النظام — فى رأى ماركس — هو قيام حكومة العمال ، لتنظيم أسباب العمل وتحقيق وجود مجتمع حر خال من الطبقات تتعادل فيه الأقدار وينعم فيه الكافة بالأمن والسلام والطمأنينة . . .

على هذه المبادئ قامت فلسفة ماركس ، مزخرفة بكل ما أمدّه به الخيال من صور الرخاء والمساواة والحرية فى ظل حكومة العمال المأمولة ، فكيف تطورت هذه الحرية والمساواة والرخاء إلى ديكتاتورية طاغية باغية تتسلط على الملايين بالبطش والإرهاب ؟

* * *

كان لينين أول من استجاب لدعوة ماركس واعتنقها وحاول أن

يتطور بها من نظرية فى الفلسفة إلى نظام واقعى للحكم ، فلم يلبث أن تبين فى أول مرحلة من مراحل التطبيق العملى الهوّة الساحقة التى تفصل بين النظرية فى مفهومها الخيالى وبين التطبيق فى عناصره المادية المحسوسة ؛ فحاول أن يتخذ معبراً يجتازه من مرحلة إلى مرحلة ، فكان هذا المعبر هو ما سماه « ديكتاتورية العمال المؤقتة » لتكون هى نظام الحكم فى مرحلة الانتقال من النظام الرأسمالى إلى الشيوعية . . .

وهكذا انتقل لينين بالشيوعية من دعوة إلى الحرية والرخاء والمساواة ، فجعلها ديكتاتورية عمال مؤقتة . . .

على أن هذه الديكتاتورية التى وصفها بأنها مؤقتة ، لم تزل قائمة ، وإن حلقاتها لتضيق على رقاب الناس يوماً بعد يوم ، منذ قامت الثورة الشيوعية فى سنة ١٩١٧ إلى اليوم ، ثمانياً وثلاثين سنة . . .

ولكى يبرر لينين هذا التغيير الأساسى فى الفكرة الأصلية للشيوعية ، يحاول أن يثبت بكل ما يستطيع من أسباب الجدل ، أن مرحلة الانتقال « المؤقتة » هذه تمثل عصراً تاريخياً بين عصرين من عصور التاريخ ، لا بد أن تدور فيه معركة طويلة عنيفة يائسة ، تتطلب الصبر والجلد والنظام والقسوة والإرادة الصارمة ، وهى الصفات التى تتميز بها الديكتاتوريات ؛ وإذن فلا بد من الديكتاتورية ، لتتحقق الشيوعية ؛ وبعبارة أخرى : لا بد من الظلم والقسوة والإرهاب ، لتحقيق العدالة والرحمة والحرية ...

وهكذا تطورت الشيوعية فى رأى لينين ، فصارت هى الديكتاتورية...

ثم تتطور الشيوعية تطوراً آخر فى رأى لينين ؛ ذلك أنه — كما يقول — يرى العمال جهلة وغير مدربين وليس لهم أهلية للقيام بأعباء الحكم أو الاضطلاع بواجبات الديكتاتورية ، وقد أفسدتهم القرون الطويلة التى عاشوها فى ظل الرأسمالية وتركت رواسبها فى نفوسهم وفى أخلاقهم فجردتهم من كل أهلية للسلطة والتنظيم والإدارة الحازمة ؛ وما داموا كذلك فليس من المعقول أن يوكل الحكم إليهم فى هذه الفترة . . . وإنما يجب أن تتولى هذه المهمة عنهم جماعة من الثائرين ذوى الوعى والأهلية ، الذى تعلموا ، وخبروا الحياة ، وصقلتهم التجارب ، وعُرفوا بالإخلاص للفكرة الشيوعيه..

واستجابت « الصفوة الممتازة » لدعوة لينين ، فوثبت إلى الحكم ووثب لينين معها ، فصار هو رأس الدلة وإرادتها ويدها ، ومن عداه أتباع وحاشية وأدوات تنفيذية ، وآلات . . .

* * *

وأين العمال فى جهاز الدولة الشيوعية الجديدة ؟

أين مكانهم فى « ديكتاتورية العمال » ؟ . . .

مكانهم هناك فى المصنع ، كما كانوا فى عهد القيصر ، مع فارق واحد ، هو أنهم فى عهد القيصر كانوا يملكون حرياتهم ، وهم لا يملكون اليوم حرية ؛ وفارق آخر ، هو أنهم كانوا فى عهد القيصر يعملون على قدر طاقتهم ، لأنفسهم ، وهم اليوم يعملون لغيرهم ، وعلى قدر ما تكلفهم الدولة لا على قدر طاقتهم ؛ وفارق ثالث ، هو أنهم كانوا فى عهد القيصر عبيداً يملكون لو شاءوا أن يتحرروا ، وهم اليوم آلات صماء ، خرساء ،



لينين ، أول رؤساء الاتحاد السوفيتي

تتحرك كما تتحرك الآلات بلا إحساس ولا إرادة !

وهكذا تطورت الشيوعية مرة أخرى ، من « ديكتاتورية عمال » إلى « ديكتاتورية الصفوة الممتازة » التى تستذل العمال وتدوس حقوقهم وكراماتهم الإنسانية ، فى سبيل تحقيق عدالة ورخاء وحرية ، فيما تزعم !

كانت الديكتاتورية إذن — فى رأى لينين — ضرورة مؤقتة لتحقيق الشيوعية المثالية ، وقد مضى عليها ثمان وثلاثون سنة ، ولم تزل مؤقتة !

وكانت « ديكتاتورية الصفوة الممتازة » — فى رأيه — ضرورة مؤقتة كذلك ، لتحقيق ديكتاتورية العمال الاشتراكية ، وقد مضى عليها كذلك بضع وثلاثون سنة ولم تزل مؤقتة !

ما آخر التوقيت لهذا النظام الديكتاتورى الصارم ، إن كانت الشيوعية حقاً وصدقاً هى المساواة والرخاء والحرية كما تذيع أبواق الدعاية لها فى كل ركن من أركان الأرض ؟

وما آخر التوقيت لنظام « الصفوة الممتازة » إن كان هدف الشيوعية الحق كما يقال هو « ديكتاتورية العمال الاشتراكية » ؟

ألم تكف ثمان وثلاثون سنة ليتعلم العمال ، ويعوا ، ويكتسبوا الخبرة والتجربة ، فيملكوا رشدهم وينزعوا عن أعناقهم وصاية هؤلاء « الصفوة الممتازين » ، إن كانوا هم حقاً وصدقاً أصحاب الحكم والأولى به فى النظام الشيوعى ؟

أسئلة لا جواب لها ؛ لأن لينين والصفوة الممتازة من بطانته لم يكونوا صادقين ولا جادّين فيما قالوا عن حق العمال ورشد العمال وأهلية العمال

للحكم ، وإنما كانوا يضعون « عناوين » لاجتذاب العمال ، ثم يتطورون بهذه العناوين إلى معان أخرى تنتهى بهم إلى الحكم ، ثم إلى الديكتاتورية فى الحكم ، ثم إلى الدوام فى كراسى الحكم ، باسم العمال والكادحين !

فقد انتهت الشيوعية إذن من نظام اشتراكى يقوم على سواعد العمال ، إلى نظام قيصرى من نوع آخر ، ليس بينه و بين النظام القيصرى فى عهد آل رومانوف إلا فارق واحد ، هو أن ذلك النظام القيصرى كان يتعاقب عليه الحكام بالوراثة ؛ أما القيصرية الشيوعية فيتعاقب « القياصرة » فيها على كراسى الحكم بوسيلة أخرى ، هى إزهاق أرواح المنافسين فى السلطة والطامعين فى الحكم ، فى « حركات التطهير » المتعاقبة ؛ ليخلص الحكم دائماً إلى « قيصر » واحد . . . وقد كان هذا القيصر يوماً ما اسمه لينين ، ثم صار اسمه ستالين ، وما يزال القيصر الثالث يمكّن لنفسه بالمحاكمات والمشانق ليستقر على « عرش » الشيوعية فى موسكو !

على أن هذه التطورات التى انتهت إليها الشيوعية لم تكن هى آخر تطوراتها ؛ إذ كان لستالين ، القيصر الثانى للشيوعية ، دور آخر كبير فى تطويرها . . .

لقد واجه ستالين من ظروف التطبيق العملى للشيوعية ما لم يخطر ببال ماركس ولم يواجه لينين مثله ؛ وكان عليه أن يمضى بالنظام فى وجه جميع القوى العالمية ؛ فوضع فى سنة ١٩٣٦ دستوراً جديداً للسوفيت ، بدلاً من دستور سنة ١٩٢٣ ، يرمى به إلى تركيز السلطات كلها فى يديه كحاكم مطلق يمتد نفوذه على مساحة من أرض أوربا وآسيا لا يمتد نفوذ حاكم فى

الأرض على مساحة مثلها ؛ ويقوم الحكم فى هذا الدستور على نظام هرمى، فى قاعدته الملايين من العمال الذين يزعم ستالين أنهم أصحاب الحكم والأولى به ، وفى رأسه ستالين نفسه ، ستالين وحده ؛ وفيما بين القاعدة والقمة طبقات عدة، تحكم على طبقة منها الطبقة التى تحتها وتسيطر عليها، وتخضع خضوعاً تاماً للطبقة التى فوقها ؛ وهكذا دواليك . . . طبقة تحكم طبقة وتخضع لطبقة ، حتى تنتهى السلطات كلها إلى ستالين فى القمة ، إذ تخضع له جميع الطبقات وتستجيب لرأيه وتنزل على إرادته . . .

ويتدرج هذا الهرم صاعداً من القرية ، إلى المقاطعة ، إلى المدينة ، حتى مجلس السوفيت الأعلى ، أو البرلمان الأهلى كما يسمونه . . .

وينص دستور ستالين هذا على أن الممثلين فى هذه الطبقات الهرمية ينتخبون انتخاباً مباشراً ، وعلى أن الدوائر الانتخابية الممثلة فى المجلس الأعلى وفى مجالس القوميات متساوية ؛ وظاهر هذا النظام يؤكد الصفة الديمقراطية للمجلس ولحكومة السوفيت ، ولكن الواقع العملى ينفى ذلك نفياً قاطعاً ؛ ذلك لأن الناخبين ليس لهم حرية فى اختيار ممثليهم ، إذ يفاجأون فى كل دائرة انتخابية بقائمة من مرشحى الحزب الشيوعى ، يجب أن يكون المنتخب من بينهم لا من غيرهم؛ فهو انتخاب حر مباشر؛ ولكنه مع ذلك نوع من التعيين ليس فيه حرية ولا إرادة . . .

على أن ذلك المجلس الأعلى ، أو البرلمان الأهلى — برغم ذلك — لا ينعقد فى كل سنة إلا أياماً ، للتصديق على بعض القرارات ، والاستماع إلى طائفة من الخطب يلقيها خطباء مأجورون فى المجلس ، لتمجيد الفلسفة

الشيوعية والنظام السوفيتى ، وبيان أنه المجتمع المثالى فى العالم كله . . . فإذا انتهت أيام الانعقاد المحدودة وانتهى خطباؤها ، تولى سلطات المجلس كلها « المكتب الرئيسى » ، وهو هيئة صغيرة منتخبة من بين الأعضاء ، تقوم بكل واجبات المجلس الأعلى فى فترة ما بين الانعقادين التى تستغرق العام كله ؛

ويقوم المجلس الأعلى بانتخاب أعضاء الحكومة ، الذين يطلق عليهم منذ سنة ١٩٤٦ « مجلس الوزراء » ، وكان عددهم فى عهد ستالين يزيد على ٥٠ عضواً ، أما اليوم فإن عددهم لا يزيد على خمسة ، أحدهم الرئيس مالنكوف ، وكل واحد من الأربعة الآخرين « نائب رئيس » ، وكان من بين هؤلاء النواب الأربعة ، النائب بريا ، الذى أعدم فى مثل هذه الأيام من عام مضى . . .

وفى جيش السوفيت ، ثلاثة أنظمة هرمية كذلك ، أولها هرم القيادة ، والثانى هرم الإدارة الرئيسية السياسية ، ومهمة هذه الإدارة هى التربية السياسية وفقاً لفلسفة الشيوعية وما يستتبع ذلك من دعاية ؛ أما الهرم الثالث فيمثل سلطات الأمن فى الاتحاد السوفيتى . . .

ولكل هرم من هذه الأهرام الثلاثة — كذلك — قاعدة وقمة تتخللها طبقات . وتتيح هذه الأنظمة الهرمية كلها للحزب الشيوعى أن يتغلغل فى كل مجال ، وأن تكون له السلطة العليا فى كل ما قلّ وجلّ من شئون البلاد الرسمية وغير الرسمية ، حتى الشئون المدنية والقضائية والإدارية العليا والدنيا على السواء . . .

والحزب الشيوعى للاتحاد السوفيتى ، هو المعين الذى لا ينضب ، لتزويد الدولة بكبار الموظفين ، كما أنه صاحب السيطرة الأولى على الدعاية بأساليبها المختلفة ، بما يصدره من تعليمات للصحافة والإذاعة والكتاب والفنانين ؛ ومنه يصدر الوعد والوعيد لكل بيت ومؤسسة فى الاتحاد السوفيتى ، ولكنه مع كل ذلك يخضع لنفس القيادة التى تحكم الإدارة المدنية والاقتصاد القومى والجيش وقوات الأمن ؛ وبذلك يعتبر الحزب وحدة هرمية أخرى بجانب تلك الوحدات ، يتكوّن منه ومنها هرم آخر ضخم ، فى قمته الرئيس الأعلى للدولة ، وفى يده جميع الخيوط التى تحرّك كل أجهزة العمل والإدارة والدعاية والتنظيم والأمن ؛

بهذا النظام الهرمى الذى أحكم ستالين بناءه ، تطوّر بالشيوعية تطوّراً آخر خطيراً ؛ إذ انتهى بها إلى حكم الفرد المستوى على القمة العليا لهذه الأهرام كلها ؛ ومن تحته كل هذه الأجهزه ذات الرياسات المتتابعة بحيث لا تتهيأ لها ولا لأحد فيها فرصة لعمل أو لاتجاه أو لرأى لا يكون مصدره الأول هو ذلك « الفرد » الحاكم . . .

وقد استتبع ذلك النظام بما فيه من طبقات تابعة متبوعة ، وآمرة مأمورة ، وراعبة مرعوبة ، أن يكون التجسس والإرهاب نظاماً معترفاً به إلى جانب النظام العام فى حكومة السوفيت ، إيماناً من كل فرد فى كل طبقة من أى هرم من الأهرام الصغرى أو الأهرام الكبرى ، بأن انحراف أى فرد عن النظام المفروض معناه انهيار الجهاز كله على رءوس الجميع ؛ فصار كل فرد عيناً على كل فرد ، لا اقتناعاً بفائدة ذلك النظام أو

تقديراً لمزاياه ، بل خوفاً من كارثة الانهيار الذى لا يسلم منه أحد !

* * *

إن الشعب الروسى كله يعيش اليوم فى قلق وضيق وخوف متصل ورعب دائم ، فى ظل ديكتاتورية الصفوة الممتازين الذين فرضوا أنفسهم أوصياء على الشعب حتى ينضج عماله ويعوا ويستنيروا ويكتسبوا خبرة الحكم ليسلموا إليهم المقاليد لإنشاء « ديكتاتورية العمال الاشتراكية » التى تخيلها كارل ماركس . . . وهيهات !

من أين للأغرار المفتونين بدعوى المساواة والرخاء والحرية ، من العمال والطلاب ومن إليهم من السذج وناقصى الثقافة والمرضى بعقد النقص ، أن يعرفوا هذه الحقيقة المروّعة ؟ . . .

من أين لهم أن يعرفوا أن الشيوعية التى فتنتهم فلسفتها المجرّدة كما جاءت على لسان اليهودى الخادع كارل ماركس ، قد تطورت من بعده تحت حكم لينين وستالين ومالينكوف ، فصارت شيئاً آخر غير ما يزعم لهم الدعاة؟

من أين لهم أن يعرفوا أن الشيوعية اليوم هى القيصرية الطاغية فى صورة جديدة ، فلا رخاء ، ولا حرية ، ولا مساواة ؛ ولكن فردية باغية متحكمة تسيطر بالقهر والإرهاب والجاسوسية على النفوس فتسلبها كل شىء حتى كرامة الإنسان ؟

ذلك هو الحق ، وإن برهانه لملموس برغم خداع بعض العناوين !

خداع الشيوعية

فى كل أمة من الأمم المعاصرة فريق من الأفراد يعتقدون أن انتصار الشيوعية ليس شيئاً محتملا فحسب، بل يرونه شيئاً ينفع البشريه ويعود عليها بالخير واليمن ويحررها من أسر الفاقة والحاجة ؛ وناس من هذا الفريق يعملون ويجهدون لتغليب الشيوعية وانتصارها ، وناس آخرون مستعدون أن يرحبوا بالشيوعية حين قدومها ؛ وهم يرونها الحل الوحيد لمشكلات الإنسانية والدواء الناجع لآلام البشرية ؛ فهل فى الشيوعية من الخير ما يجعلها أهلا لأن يرغب فيها وتناط بها هذه الآمال ؟

فإذا كانت مطلوبه ومرغوباً فيها فمن الذى يطلبها ويرغب فيها ؟ وبالقياس إلى ماذا تطلب ويرغب فيه ؟

وانتصار الشيوعية بطبيعة الحال من الأشياء التى يرغب فيها الشيوعيون ويعلقون عليها رجاءهم، ولكننا هنا لانعنى الشيوعيين، وإنما نعنى الغالبية العظمى من الناس ؛ فهل فى الشيوعية من الخير ما يجعلها أهلا لأن يرغب فيها الناس .

ومن الواضح أن أشد الأخطار التى يتوقاها البشر فى الوقت الحاضر، هو وقوع حرب تستعمل فيها القنابل الذرية من أحد الطرفين المتحاربين أو كليهما ؛ لذلك يرى بعض المفكرين أن السبيل الوحيد لإنقاذ الحضارة والإبقاء على البشر هو أن تحتكر القنبلة الذرية دولة عالمية ، ووجود مثل

هذه الدولة العالمية يُجنّب العالم ويلات الدمار والخراب ، وبلايا الحرب وأهوالها ؛ ومعنى ذلك أن مشكلة القنبلة الذرية لا يمكن حلها إلا عن طريق إيجاد دولة عالمية واحدة . . .

وعند الذين يميلون إلى الشيوعية ويتغنون بمبادئها وتستهويهم أحلامها ، أن غلبة النظام الشيوعى على العالم يحل هذه المشكلة ويحقق للإنسانية السلام والرخاء ؛ ومما لا شك فيه أن النظام الشيوعى لا يمكن أن يزيل القسوة من النظام الاجتماعى ؛ ولكن إنهاء عصر الأمم المستقلة كفيل بإنهاء عصر الحروب الدولية ؛ وسيادة الشيوعية — إذا ملكوا العالم ! — سيملكون القنبلة الذرية ويحتكرون حيازتها ، ولن يجدوا داعياً إلى استعمالها للدفاع عن أنفسهم ؛ فيكون معنى غلبة الشيوعية وانتصار مبادئها فى هذه الحالة ، هو بقاء الإنسانية ودفع خطر القنبلة الذرية الذى يهددها بالإبادة والفناء ...

هكذا يقال ؛ ولا نزاع فى أن هذا كسبٌ كبير للبشر وغنم عظيم ، ولكن ما هو الثمن الذى تدفعه البشرية لقاء هذا الكسب الكبير والغنم العظيم ؟

إن هذا الثمن يمكن تقديره بالرجوع إلى تجربة الإنسانية للحركة الشيوعية ، ودراسة هذه التجربة فى الأمم التى ساد فيها النظام الشيوعى ...

ولكننا لا نملك بيانات مقنعة عن الحالة المادية فى الأمم التى أخذت بالنظام الشيوعى ، وكل الذى نعلمه ، هو أن الشيوعية فى روسيا — وقد مضى عليها أكثر من ثلث قرن — لم ترفع مستوى الحياة ، وكل ما فعلته خلال سبع وثلاثين سنة ، أنها استكثرت من الصناعات الضخمة ، وكانت روسيا فى أول العهد الشيوعى متأخرة من الناحية الصناعية ،

فجاهد الشيوعيون لتصنيعها ، ولكن النتائج النهائية لهذا التصنيع الواسع المدى لم تظهر بعد . . .

ولكن هناك ظاهرتين غالبتين على التجربة الاقتصادية الشيوعية التى جعلت موارد الإنتاج ملكاً للدولة ، هاتان الظاهرتان أوجدتهما طبيعة الشيوعية التى تمنع دائماً رفع مستوى المعيشة ؛ وذلك مما يبعث على الاعتقاد بأن جعل النظام الاقتصادى العالمى شيوعياً لا يُحسن أحوال الأكثرية الساحقة من الناحية المادية الخالصة . . .

والغرض الرئيسى للشيوعية هو احتكار النفوذ والسيطرة والمحافظة عليهما ، وهذا يقتضى إخضاع الاقتصاديات للسياسة ؛ فتوزيع العمل ، وتنظيم الإنتاج ، والموازنة بين أنواع الصناعة وأنواع الزراعة المطلوبين ، وما إلى ذلك من المسائل الاقتصادية المحضة ، ينظر إليها من ناحية السياسة ؛ وبناء مصنع ، أو عمل سكة حديدية ، أو العناية بنوع خاص من الإنتاج ، أو عمل تصميم لإنشاء مساكن ، أو القيام بحركة تطهير ، أو وضع مستوى للأجور والمرتبات — كل ذلك يُفصل فيه من ناحية مدى تأثيره على الاحتكار السياسى والرغبة فى الاستئثار بالنفوذ والسلطة . . .

ومن الهدف الأساسى للشيوعية تنشأ الظاهرة الأخرى ، وهى ظاهرة تركيز الاقتصاد تركيزاً تامًّا ؛ والتركيز الاقتصادى الكامل ليس بطبيعته شديد الالتصاق بتملك الدولة لموارد الإنتاج ، فبعض النواحى فى اقتصاديات الولايات المتحدة ملك للدولة ، ولكنها ليست مع ذلك متجمعة فى تركيز

اقتصادى صارم ؛ ولكن التركيز لا بد أن يكون ظاهرة من ظواهر تملك الدولة فى النظام الشيوعى ، لأن طبيعة النظام الشيوعى تستلزم ذلك ؛ منعاً لخلق قوى اقتصادية سياسية يمكن أن تناهض الدولة ، والتركيز الاقتصادى الكامل يمكن السلطة القائمة من التوجيه الاقتصادى التام ، ولكن ليس فى وسع قوة بشرية أن تقوم بذلك على الوجه الأكمل فى نطاق محدود ، فكيف إذاً شمل هذا التركيز العالم جميعه ؟

ويمكن أن نستخلص من ذلك أن تنظيم الاقتصاد العالمى على الأساس الشيوعى لا يحقق الرخاء المنتظر ، ولا يرفع مستوى الحياة بوجه عام ، وقد يهبط بمستويات الحياة المادية فى أمم كثيرة تعيش اليوم فى بحبوحة من العيش ؛ فالشيوعية لا تجىء بالرخاء الموعود ، أو على الأقل : هذا الرخاء الموعود موضع شك شديد فى ظل النظام الشيوعى ؛ ولكن من المؤكد المضمون أنها تجىء بالعبودية السافرة ، والطغيان الذى يمتهن الكرامة الإنسانية ويسلب الأفراد كل لون من ألوان الحرية . . .

وواضح من ذلك أن الشيوعية لا يصح أن يُرغب فيها من ناحية الرخاء المادى ، لأنه فى ظلالها شىء غير مضمون ؛ ومهما يكن الأمر ، فإن القيم المادية ليست أسمى قيم الحياة ، على ما لها من أهمية وتأثير ؛ وأنصار الشيوعية يقولون إنها أمان من الفقر والحرمان ، ولكنها أمان السجين الراسف فى الأغلال ؛ والذين ينتفعون من هذا النظام هم السادة الكبار من قادة الجيش وكبار رجال الشرطة ورؤساء المصانع ، أما باقى أفراد الشعب فنصيبهم الذل والحرمان والعبودية فى ثوبها الجديد ومظهرها العصرى !

وتزعم الدعاية الشيوعية أن العمال الشيوعيين لا يعرفون البطالة ؛ وهذا حق ، ولكنهم يساقون إلى العمل مرغمين مجبورين ؛ فعملهم عمل العبيد الذين يُدفعون إلى العمل بالسياط ويعاملون معاملة السوائم والماشية ، وهم مهددون فى كل لحظة بالفصل من العمل لأن الاستبداد السياسى قد يطيح بحياتهم ، أو يزج بهم فى ظلمات السجون وجحيم المعتقلات ، كما كان يفعل النازيون بالأسرى فى معسكرات الاعتقال ؛ فضمان الأمن الذى تتحدث عنه الدعاية الشيوعية غير موجود فى العالم الشيوعى . . .

وللحريات الاقتصادية فى ظلال النظام الرأسمالى عيوبها من غير شك ، ولكن للعامل حرية الاختيار فيما يريد أن يباشره من الأعمال ، وهو يستطيع أن ينتقل إلى المكان الذى يريده ، ويستطيع أن ينقد ويبدى ملاحظاته ويصرح بشكواه دون أن يستهدف للعقوبة الصارمة ، ودون أن يُتهم بالخيانة الكبرى ؛ وللجمهور كذلك حرية شراء ما يريد وترك ما لا يريد ، دون أن يملى عليه شىء أو يُفرض عليه فرضاً ؛ وفى النظام الشيوعى تهدر كل هذه الحقوق ، وتصادر جميع هذه الحريات ؛ لأن أمثال هذه الحريات والحقوق تعوق التركيز الذى ترمى إليه الدولة وتقيم على أساسه ديكتاتوريتها ؛ وعلاقة العمال بالدولة ورجالاتها كعلاقة المزارعين بالسادة فى عهد الإقطاع القيصرى ، أو علاقة العبيد بالسادة فى عهد العبودية والاسترقاق ؛ ولقد كانت علاقة المزارعين بسادة الإقطاع يسودها شىء من شعور المزارعين بالولاء لأولئك السادة ، وكان السادة يرون أن عليهم واجبات نحو المزارعين التابعين لهم ، وكان هذا الشعور المتبادل بين

الطرفين يُلطف من حدّة تلك العلاقة ؛ وليس فى علاقة سادة الكرملين اليوم بالشعب ما يُلطف من حدّة العلاقة أو يعين على احتمال قسوتها !

والمعايير المادية ليست كل شىء ، والقيم الاقتصادية ليست أسمى القيم كما قدّمنا ، ومعنى انتصار الشيوعية القضاء على كل القيم التى تحترمها الحضارات وتقدسها الديانات ؛ ولسنا نزعم أن الديانات والحضارات قد حققت قيمها جميعها ، ولكن لا نزاع فى أن بعض تلك القيم كان له أثر مذكور هام ، وأنها أثرت فى حياة الأفراد والجماعات وكانت من العوامل الهامة فى تصوّرات الإنسانية والسمو بأهدافها وصقل مشاعرها وتهذيب أفكارها والخروج بها من ظلمة الهمجية والفوضى إلى ضوء المدنية وطريق التقدم ...

ومن أبرز تلك القيم التى أكدتها الديانات قيمة الفرد الإنسانية ، وتقاليد المذهب الديمقراطى ومذهب الأحرار تؤكد لك قيمة الفرد وتحترم شخصيته ؛ فإذا استمسكنا بهذه المثل العليا واتخذنا منها معايير للحياة الصالحة ، وجدنا أن المجتمع الصالح هو المجتمع الذى يكفل للفرد حرياته ويقدر كرامته الشخصية ويصون إنسانيته ويجنبها المهانة والابتذال .

والشيوعية — سواء من الناحية الفكرية أو من الناحية العملية — لا تقر هذه المثل العليا ، لأنها لا تبالى بقيمة الفرد ، ولا مكانة فيها للكرامة الإنسانية ، ولا تقدير للحرية الفردية أو الجماعية ؛ وخضوع الفرد للدولة أو الحزب أو الثورة أو الحركة التاريخية — ليس هو فى تقدير الشيوعية ضرورة لازمة !

والشيوعية لا تكتفى بخضوع الفرد واستسلامه ، وإنما تستذله وتستعبده ولا تقيم له أى وزن ، ولم يكن الإهمال أو الغفلة أو نقص الدراسة هى

التى طاحت بحياة ملايين من المزارعين الروسيين فى سبيل جعل الزراعة ملكاً للدولة ؛ وإنما كانت الخطة الموضوعة بعناية ، والسياسة المدروسة بدقة ، هى التى طاحت بحياتهم ؛ وقد هلك الكثيرون من الروسيين فى سبيل سرعة التصنيع ، وفى حركات التطهير المتوالية . . .

وقد أظهرت محاكمات موسكو قيمة الآداب الشيوعية ، فالدولة لا تكتفى بأن تملك ما فى حيازة الفرد من الأشياء المادية ، بل تملك كذلك ضميره وشرفه وكرامته وسمعته ، فعليه أن يعفّر نفسه فى التراب ، ويكذب ، ويغش ، ويخدع ، ويخون ، ويتجسس ، من أجل الشيوعية ، ويفقد حياته إذا اقتضى الأمر فى سبيلها ؛ وليس هناك حدود ولا حواجز ، وإنما على الفرد الاستسلام المطلق والطاعة العمياء والخضوع الكامل ؛ والعبد يَطيع السيد ، والسيد نفسه يرسف فى أغلاله ولا يبيت ناعماً خلى البال وإنما يبيت على هم وأوجال ، فهو عرضة فى كل لحظة لأن يُقذف به من القمة العالية إلى الحضيض الأوهد ؛ وفى مصير كبار زعماء الشيوعية ، أمثال تروتسكى وكامنف وزينوفيف وبوخارين وبريا أخيراً ، عبرة ودليل !

والثقافة الحقة تقدر الحق المجرد الذى يسمو فوق الأغراض والمطامع والشهوات ، وتعده مطلب العلم وغاية الفلسفة ؛ ولكن الشيوعيين يرون الحق من زاوية أخرى ! فالحق فى عرفهم سلاح فى حرب الطبقات ، وآلة سياسية ، فالحزب الشيوعى ينكر صحة نظرية النسبية ، أو قوانين مندل ، إذ رأى فيهما ما يخالف أهداف الثورة الشيوعية ؛ وهو يصنع الإحصائيات التى تروقه ، ويكتب التاريخ على النمط الذى يرتضيه ،

فيحذف منه ما يشاء ويثبت ما يشاء ويضيف إليه ما يرى فى إضافته مصلحة للحزب ؛ ويطلق الشيوعيون على المنطق العادى الذى يفرق بين الحق والباطل،اسم « المنطق الآلى » ، ويحلون محله ما يسمونه « المنطق الديا لكتيكى »، وهذا المنطق الديا لكتيكى يحل لهم مشكلاتهم ! ويزعم هذا المنطق الفذ أن كل ما يخدم مصلحة الشيوعية فهو« حق » !

وفى الكثير من عصور التاريخ قد فرضت القوة ما عدته القوانين حقاً ، ولكن الضمير الإنسانى لم يستطع أن يقبل فكرة أن الحق دائماً فى جانب القوة ، أو أن القوة هى الحق ؛ وكثيراً ما ثار على هذه الفكرة الأحرار والأبطال وعظماء الرجال ، ورأوا أن الحق يعلو ولا يعلى عليه ؛ والذى يروقنا ويهز مشاعرنا ويجعلنا نفخر بإنسانيتنا هو موقف الكثيرين من نبلاء الإنسانية وخيار البشر الذين بذلوا أرواحهم فى الدفاع عن الحق إزاء القوة العارمة ؛ ولكن الشيوعيين يرون أن قوة الشيوعية هى الحق ، وكل ما يعمل على زيادة تلك القوة فهو حق ؛ والدليل على أن الشيوعية هى الحق ، وأن كل وسيلة لزيادة قوتها هى كذلك حق ، أن انتصار الشيوعية فى زعمهم أمر لا ريب فيه ، وإقبال عهدها حتم لا مردّ له !

وهذا هو ما تدفعه الإنسانية ثمناً لانتصار الشيوعية ، ولسنا نشك فى أن الكثيرين من الأحرار الأباة يؤثرون أن تزول الدنيا ، ويفضلون الموت على الحياة فى ظل نظام يقوم على خنق الحريات وابتذال الكرامات وجعل الإنسان الحى آلة صماء؛ ولعل المخدوعين فى الشيوعية يرون هذا الثمن غالياً.

والشيوعية فى نظر العقلاء الأحرار ليست مما يحرص عليه ويسعى فى طلبه ، وهى ليست بحال ما جديرة بأن يتعلق بها رجاء البشر !

القابلية للشيوعية . . .

تختلف قابلية الأفراد لقبول الشيوعية والتأثر بها تبعاً لاختلاف نشأتهم وأمزجتهم ومشاربهم وأحوالهم النفسية والاجتماعية ، وهناك أسباب عامة تقوى هذه القابلية ، ومن هذه الأسباب العامة ، سوء الأحوال الاقتصادية ؛ فالفقر المدقع ، وفقدان الأمل فى تحسن الأحوال ، واشتداد أزمات البطالة ، وعدم المساواة فى توزيع الثروات ، والتفاوت الكبير فى الأجور والمرتبات والدخل ، وعدم تكافؤ فرص العمل والكسب – كل ذلك يثير بواعث النقمة والتذمر ويمهد السبيل لقبول الدعاية الشيوعية والترحيب بها . . .

ومن الأسباب العامة كذلك فساد الأحوال الاجتماعية ، فكلما ضعفت روابط المجتمع واعتل نظامه وساءت علاقات الناس فيه بعضهم ببعض ، شعر الأفراد بوحشة العزلة والاستهداف للخطر ، وفى مثل هذا الموقف قد يلتمس الفرد الأمن والسلامة فى اللياذ بحمى الشيوعية ، لترد إليه الأمن الضائع والثقة المسلوبة والعدالة المنشودة . . .

ويدخل فى فساد الأحوال الاجتماعية ، ضعف المعتقدات الدينية ، فإنه كلما وهنت عقيدة الفرد وفقد أمله فى العناية الإلهية وعدل السماء ورحمة الله وقدرته على إزالة الكروب وتفريج الأزمات ، وكلما طغى الشك وساد الكفر والإلحاد – وجدت الشيوعية فى نفس الفرد مرتعاً خصيباً وبيئة ملائمة . . .

والشيوعية دين سياسى أرضى ، بديل من الدين السماوى ، لمن عصفت بعقيدته الشكوك ؛ لأن فى ظاهر دعواها ما يرد الأمل واليقين لمن فقد الأمل وعز عليه اليقين ؛ فهى دين من لا دين له !

ومن الأسباب العامة للشيوعية كذلك ، سوء الأحوال السياسية واضطرابها ، فالديمقراطية البرلمانية الفاسدة التى تُستغل فيها سذاجة الشعب وجهله ، وتطغى فيها المصلحة الخاصة على المصلحة العامة ؛ والديكتاتورية الصارمة الطاغية التى تستهين بالمبادئ وتبحث بالقوانين والنظم وتستجيب للأهواء والنزوات ، مثل الحكومات الفاشية أو النازية ؛ والاستعمار الشديد الوطأة الذى يعبث فيه المستعمرون بمصالح الشعب ويستغلونه أسوأ استغلال ، ويستذلونه أشنع المذلة ، ويسومونه الخسف والعذاب ، ويحولون بينه وبين العلم الصحيح والثقافة الحقة — كل ذلك يمهد السبيل للشيوعية ويهيئ الفرصة المواتية . . .

وهناك الأسباب النفسية الخاصة بالأفراد ، وهى تتأثر فى دورها بالأسباب العامة والأحوال الاقتصادية والسياسية السائدة ، على أن هذه الأسباب أو تلك ليست قاطعة فى خلق الاستجابة للشيوعية ، فالفقر المدقع مثلا لا يشترط أن يكون سبب الميل إلى الشيوعية والدخول فى حظيرتها ، فقد دلت البحوث المختلفة على أن الكثيرين من الذين دخلوا فى الشيوعية فى المناطق الصناعية كان أكثرهم من الطبقة المتوسطة ، وكانت نسبة الداخلين من ذوى الدخل القليل منخفضة ؛ كما لوحظ أن الكثيرين من المنتمين إلى الحزب الشيوعى فى فرنسا وإيطاليا وإنجلترا

والولايات المتحدة، قد نشأوا فى أسرات متدينة تقية .

وقد لوحظ فى الولايات المتحدة تفشى القابلية للشيوعية بين المهاجرين وأبنائهم ، وسبب ذلك فيما يبدو أن هؤلاء المهاجرين قد أقبلوا على بيئة جديدة لم يألفوها من قبل ، وكثيراً ما يجعلهم عدم توافر الألفة هدفاً للهموم والوساوس ، ونهباً للقلق المساور ، وينفى عنهم الشعور بالسلامة والطمأنينة ؛ فكأنما يجدون فى الانضمام إلى الحزب الشيوعى ما يفتقدونه من الأنس بعد الوحشة ، والطمأنينة بعد الهم والقلق .

وكذلك يهرع إلى الشيوعية الشبان الناشئون الذين تزعزعت عقائدهم وضعف إيمانهم ، لأنهم يجدون فيها مذهباً فكرياً يدّعى القدرة على تفسير الأشياء جميعها وجلاء الغوامض كلها ، ويحدد لهم هدفاً يضم جهودهم المبعثرة ، ويزود عنهم الحيرة والتردد وضعف العزم .

وبعض الشبان ينضمون إلى الأحزاب الشيوعية ويتعلقون بمبادئها استجابة لروح المغامرة بالخروج على العرف والاستهانة بالتقاليد المرعية، لما فى نفوسهم من تطلع الشباب وحماسته وإيثار البطولة واقتحام الغمرات ؛ إذ تزين لهم أوهامهم أنهم يجاهدون من أجل إعلاء مبادئ إنسانية ونصرة مثل عليا جديدة وتحقيق حضارة منظورة وبناء عالم مستحدث أتم وأحسن من العالم الراهن ، فهم فى نظر أنفسهم رُوّاد فكرة ودعاة إصلاح ورسل حضارة...

وفريق من الشبان المعنيين بالبحث عن معنى الحياة وغاية الوجود قد لا يجدون فى أوامر الدين ونواهيه وتصويره لحياة الإنسان ومصيره ما يشفى غليلهم أو يرضى عقليتهم ؛ وقد تميل بهم إلى الشيوعية الرغبة فى تحدّى

رجال الدين ، والنفور من العقائد الدينية جميعها ، والتعويل على التفسير المادى للحياة والتاريخ .

ولدعاة الشيوعية عناية خاصة باجتذاب الشبان إلى صفوفهم ، لما يعهدونه فيهم من حماسة وجرأة وإخلاص وتفان فى تأييد ما يرونه حقاً .

وقد يكون للموقف السياسى أو الضغط الاجتماعى أثر قوى فى حمل بعض الناس على الانضمام إلى الحزب الشيوعى ؛ وأوضح ما يكون ذلك فى البلاد التى بسط الشيوعيون عليها سلطانهم ؛ فإن مستقبل الأفراد فى أمثال هذه البلاد مرتهن بدخولهم فى حظيرة الحزب واتباع أوامره ونواهيه بغير معارضة ولا مناقشة ؛ وقد لوحظ أن الانضمام إلى الأحزاب الشيوعية يعم ويكثر فى إبان الأزمات وترادف النكبات التى تهز كيان الأمم وتبعثها على الشك فى تقاليدها ونظمها وعقائدها وأفكارها . . .

كما لوحظ فى حالات كثيرة أن المستجيبين للشيوعية يجدون فيها حلاً مناسباً لمشكلاتهم النفسية ، بغض النظر عن المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فبعضهم يرى فى الشيوعية نبذاً لقوالب الحياة الاجتماعية التى ضاق بها ، وبعضهم يرى فيها شيئاً رومانتيكياً يثير الخيال ويشعل الحماسة ويستميل الأهواء .

وقد لوحظ فى الذين ينضمون إلى الحزب الشيوعى فى خارج نطاق الدول الشيوعية أن للشعور بالنقمة والكراهية أثراً كبيراً فى ذلك ، وكذلك شعور الإنسان أنه منبوذ من المجتمع ، أو ميله إلى الانسحاب والاعتزال ؛ فإن كل هذه المشاعر ، مشاعر النقمة والتحدى ، أو مشاعر الانتباذ ،

أو مشاعر الرغبة فى الانسحاب — تعين على خلق القابلية للتأثر بالدعاية الشيوعية ؛ وقد يكون سبب هذه المشاعر عجز الفرد عن أن يُحكم صلاته بالغير ، وقد ينشأ هذا الشعور فى آثار أحد المواقف التى يصاب فيها بالأضرار ؛ والعداء الباطنى قد يؤثر فى الرجل المعتل الأعصاب ويحمله على الانضمام إلى الحزب الشيوعى .

والشخص العادى قد يميل إلى الدخول فى الحزب الشيوعى لضيقه بأزمات البطالة التى يستهدف لها ، ولكن الشخص المعتل الأعصاب يؤثر فى نفسه الشعور بالعزلة والوحدة ، وبأنه تافه لا قيمة له ، وعاجز لا يستطيع شيئاً، فتميل به هذه المشاعر المؤلمة إلى الدخول فى الحزب الشيوعى .

والشخص العادى إذا نبذه المجتمع قد يوجد ذلك فى نفسه بجرثومة الاستعداد لقبول الشيوعية . ولكن الشخص المعتل الأعصاب يغريه بالانضمام إلى الحزب شعوره بالفوضى الداخلية والصراع النفسى ؛ فالشخص العادى قد ينضم إلى الحزب بباعث من الضغط الداخلى . . .

قال أحد المتأدبين المنضمين إلى الحزب الشيوعى : « قرأت بيان كارل ماركس وأعجبت به ورأيته مدهشاً ، ولكنى لم أصنع شيئاً ؛ ولكن لما جاء فلان وبدأ ينشر شعرى ويقول لى إن لك موهبة عظيمة ؛ انضممت إلى الحزب ! » .

وكثير ممن انضموا إلى الحزب وجدوا فرصة للعمل ؛ قال أحدهم : « حينما انضممت إلى الحزب أصغى إلىّ الرفقاء وأحسنوا معاملتى ، وبخاصة

رؤسائى ، وقالوا إن لى مقدرة تؤهلنى لأن أصبح رجلا عظيم الأهمية فى الحزب ؛ » .

وبعض الفنانين والمفكرين والكتاب قد انضموا إلى الحزب الشيوعى لكى يصبحوا فى طليعة الكتاب والفنانين ؛ قال أحد هؤلاء المنضمين إلى الحزب : « لم أكن مهتماً اهتماماً خاصاً بالسياسة ، ولكنى خالطتهم وسايرتهم لأنهم قوم ظرفاء ، وحرصت على الاحتفاظ بصداقتهم ! »

وبعض المستجيبين للدعوة الشيوعية كان يستميلهم إليها تظاهرها بتأييد المساواة العنصرية ، والمساواة الاقتصادية والسياسية ، وتأييدها للسلام والدولية والحرية ، وكثير من هؤلاء كانوا مخلصين فى اعتقادهم أن الشيوعية تحقق كل هذه الغايات . . .

وكثيرون ممن انضموا إلى الحزب فى أوائل سنة ١٩٢٠ كانوا من الذين فقدوا أقاربهم فى الحرب العالمية الأولى ، وقد قال أحد هؤلاء : « من ذكرياتى الباكرة عودة والدى من المستشفى فى سنة ١٩١٩ ، وكان والدى رجلا طوالاً ، وقد عاد إلينا على عكازين وقد تدلت إحدى ساقيه ، وقد أشعل ذلك صورة فى عقلى لم أنسها ؛ ومنذ تلك اللحظة وأنا أكره الحرب كراهة عميقة على الرغم من أنى لست من طلاب السلام ! »

وبطبيعة الحال لا ينضم إلى الحزب كل من اعتلت أعصابه ، وإنما ينضم إليه من هؤلاء الذين يحاولون تسويغ غضبهم على المجتمع وإفراغ هذا الغضب فى قالب أخلاقى ؛ وأما الذين يعالجون مشكلاتهم النفسية بالإقبال على الشراب أو الفجور فهؤلاء لا يجدون ضرورة للانضمام إلى الحزب .

ومن الأمثلة التي توضح ما تقدم ، حالة الإنجليزي المدعو « توماس » فقد نشأ هذا الرجل في أحد الثغور البريطانية ، وكان ابناً لأحد عمال الموانى ، وكان أبوه يتقاضى أجراً عالياً ، ولكنه كان مسرفاً في الشراب ؛ ولذلك كانت الأسرة تعانى ضيقاً وشدة ، وكان والداه دائمى الخلاف والنزاع من جراء إسراف الوالد في الشراب ، حتى أدى الأمر إلى انفصالهما وهو في السابعة عشرة من عمره ، وقد ترك المدرسة في الرابعة عشرة ، وعمل في البحر وهو في السادسة عشرة ، وكان ناقماً على المجتمع ، وكان يشعر بأن الناس تعرف من أسلوبه في الحديث أنه لم يكمل تعليمه ؛ وبعد أن عمل في البحر أربع سنوات ، تقدم لمدرسة البحرية وأدى امتحانها بنجاح ، وأخذ يقرأ ويطلع ، وقرأ فيما قرأه كتب كارل ماركس وإنجلز ، وكان ميالا إلى العزلة والانفراد ؛ وقد أعجبه من الشيوعية مظهرها الفكرى ، ونزعتها المكافحة ؛ ولقى بعد ذلك اثنين من البحارة الشيوعيين في سفينة كانت مجاورة للسفينة التي يعمل بها في أحد الموانى ، وقد أعجبه سلوكهما وتوفرهما على العمل ؛ فانتهز الفرصة وانضم للحزب الشيوعى .

وواضح من حالة توماس هذا أن الاهتمام الفكرى قد لقى تأييداً من الشعور بالنقص والعزلة ، ودفعه هذان العاملان إلى الانضمام للحزب الشيوعى . .

وربما كان دافع الشعور بالعزلة أوضح في حالة المدعو « جيروم » وهو نجل أحد الموسيقيين الأمريكيين ، فقد كان والده شديداً صارماً ، يمنعه من اللعب مع أترابه الصغار ، ويحمله على دراسة الموسيقى ؛ وماتت

والدته وهو صغير قال عن نفسه : « لقد عرضت لى مشكلة عاطفية وأنا طفل ؛ فقد كان أكثر الأطفال من أبناء جيراننا ينبذوننى ، ووالدى لا يسمح لى باللعب ، وكان يعدّ رجلا عجيب الأطوار فى هذه الناحية ؛ فكنت أعزف على البيان ولا أستطيع أن أحسن لعبة من الألعاب ؛ ولذلك كنت شيئاً شاذاً غير مألوف بين الأطفال ، وكنت بائساً حزيناً ، ورغم ذلك كنت أشعر بالتفوق ، لأننى أستطيع أن أعزف ألحان موزار ، وأقرأ الأشعار ؛ ولما كبرت وبلغت مبلغ الرجال ، لم أكن أدعى للاشتراك فى أى اجتماع أو أى حفل . . . »

ولقى جيروم وهو يعانى هذه الحالة النفسية ، أحد الشيوعيين ، وتوثقت بينهما العلاقات ، فانضم إلى الحزب ولم يرق ذلك أباه ، فنهره وعنّفه ورفض أن يعوله ، وطرده من منزله ، فبسط الحزب عليه حمايته وأظله برعايته ، وأصبح جيروم حريصاً على أن يضحى بكل شىء من أجل انتصار مبادئ الحزب الشيوعى !

وقد لحظ بعض المفكرين النفسيين أن فى طليعة العوامل التى تدفع بعض الشبان إلى الانضمام إلى الحزب الشيوعى ، الشعور بالعداء والخصومة والنقمة والتذمر ؛ وأمثال هؤلاء الشبان يرغبون فى الانضمام إلى الحزب الشيوعى لإعجابهم بنزعته إلى المحاربة والمقاومة والهدم ، ورغبته فى قلب النظام وتغيير الأحوال ؛ والحزب فى دوره ينمى فيهم روح العداء والخصومة بعد انضمامهم إليه ، ويجتهد فى خلق جو الخصومة وتهيئة أسبابها إذا لم تكن موجودة ، ويعمل على حصر العداوة فى شىء واحد معين لتزداد شدتها . . .

ومن الحالات التى توضح تأثير الشعور بالنقمة والعداء والكراهة والتمرد فى القابلية للانضمام للحزب الشيوعى ، وبخاصة تلك الخصومة الكامنة فى العقل الباطن التى كوّنتها عهود الطفولة وبواكير النشأة ، حالة الإيطالى المدعو « لويجى » ؛ فقد ولد فى نابولى فى أسرة من أرقى أسرات الطبقة المتوسطة ؛ وكان والده من أصحاب المهن ، وكانت والدته من النساء البارزات فى حياة نابولى الاجتماعية ، وقد أهمله والداه ، لأنهما قصرا اهتمامهما على حياتهما الاجتماعية ، فنشأ يمقت أسلوبهما فى الحياة منذ الصغر ، وكان أبوه من غُلاة الفاشيين ، فلما وقعت حرب الحبشة لم ينضم والده للقوات المحاربة ، ولم يذهب كذلك إلى إسبانيا ؛ فأيقن لويجى أن أباه ليس رجلا بغيضاً فحسب ، وإنما هو كذلك رجل جبان رعديد ، فلما نشبت الحرب الكبرى الثانية ، حرضه والده على التطوع فى الفرقة العاشرة ، وهى صفوة الفاشيين ، فرفض لويجى ، واتسعت شقة الخلاف بينه وبين والده ؛ ولقى أحد الشيوعيين من العمال ، ودعاه هذا العامل إلى الاشتراك فى الحركة السرية لمقاومة الفاشية ، فراقته فكرة الانتقام من الفاشية ومن والده ومن كل آثار نشأته البورجوازية ، وأقبل على دراسة الشيوعية بحماسة ، وعمل بعد ذلك جاسوساً لجيوش الحلفاء ؛ كل ذلك نكاية فى أسرته وكراهة لماضيه ونشأته !

والانضمام إلى الحزب يوجد للفرد المعتل الأعصاب متنفَّساً يريحه من الشعور المحدود بالعداء والتمرد والثورة ، ويجعل عداوة الفرد قائمة على المعرفة والدراية ؛ والأفراد المصابون بالميل إلى الخصومة والعداء

يؤلمهم هذا الشعور ؛ والانتساب إلى الحزب الشيوعى انتساب إلى هيئة قوامها العداوة والخصومة والخروج على النظام القائم والأحوال الراهنة ، وهو يتيح للفرد فرصة لإظهار مشاعر العداء والخصومة ، سواء فى المناقشات الحادة ؛ أو المظاهرات الصاخبة ، أو المنشورات الثورية ، أو الخطب العدائية ؛ وفى كل هذه المظاهر يبدو الشعور بالخصومة والعداء والنقمة فى حلل الحماسة للحق والدفاع عن مصالح الإنسانية وتهيئة المستقبل السعيد لأبناء المستقبل . وأمثال تلك الدعاوى العريضة . . .

ومن ضروب العداء ، العداء المكظوم ؛ وهو العداء الذى لا يجد له مخرجاً وتُرغم ملابسات الأحوال صاحبه على كتمانه ومداراة الناس ومسالمتهم ؛ والمصابون بهذا الضرب من العداء لا يثورون على آبائهم أو الذين أساءوا معاملتهم ، ولا يتحدونهم ، وإنما يكظمون غيظهم ويضمرون عداوتهم ويقفون من الناس موقف المسالمة والملاينة والملق والمداهنة ؛ ولكن العداء المكظوم يظل مع ذلك يؤثر فى سلوكهم بطرائق مختلفة ، فيضطرهم إلى الكذب والمخادعة والمراوغة ، بدلا من الثورة والاستطالة والتهجم ؛ وهؤلاء يميلون إلى الانضمام للحزب الشيوعى ، لأنهم يرون فى الخضوع لسلطان الحزب والاستسلام لأوامره ونواهيه ما يشفى نفوسهم المعتلة السقيمة ، ويُشعرهم بشىء من الرفعة بعد الضعة ، والانتصار بعد الهزيمة !

والمثل الأعلى الشائع للشيوعى ، أنه رجل له مكان فى الحركة التقدمية العالمية ، وأن حوله مجموعة كبيرة من الرفاق يتفانون فى تأييد الدعوة الشيوعية ، والرجل الذى يشعر أنه منبوذ من المجتمع ، وأنه يعانى آلام

الوحدة ووحشة العزلة ، يستمد من هذا المثل الأعلى للشيوعية قوة تغريه بالانضمام إلى الحزب الذى يؤنس وحشته وينفى ضعفه ويمنحه الثقة بالنفس.

وقد لوحظ فى بعض الجامعات البريطانية والأمريكية أن الطلبة الذين ابتعدوا عن قومهم ولم تنشأ علاقات بينهم وبين سائر الطلبة الذين يشاركونهم فى الدراسة وغلب عليهم الشعور بالعزلة ، انصرف جماعة منهم إلى الانغماس فى العلم أو الفلسفة أو الفن ، ومال بعضهم إلى الشيوعية واستهدف لها ، فراراً من العزلة الموحشة !

ويستفاد من دراسة العلماء النفسيين الذين تصدوا لبحث هذا الموضوع ودراسة حالات كثيرة لأفراد انضموا إلى الأحزاب الشيوعية ، أن فى طليعة الأمراض النفسية والعلل الداخلية التى تميل بالناس إلى الانضمام للشيوعية ، الشعور بالعداء ، والشعور بالعزلة والوحشة ، والشعور بالانتباذ وتفاهة القيمة وقلة الشأن . والاستعانة بالباحثين النفسيين لعلاج هذه الأمراض العصبية النفسية من وسائل كفاح الشيوعية بالطرائق العلمية . . .

* * *

ويستخلص من كل ما سبق ، أن أكثر أسباب الاستجابة للدعوة الشيوعية ، هو الشعور بالنقص فى أى صورة من الصور ؛ فكلما ازداد شعور الناقص بنقصه ، والتافه بتفاهته ، زاد استعداده لتقبل الشيوعية والاستجابة لدواعيها ؛ فهى فى أكثر أحوالها مظهر من مظاهر اعتراف المرء على نفسه — من حيث لا يريد — بضعته وهوانه وقلة شأنه !

الشيوعية بين الحقيقة والادعاء

أهم مصدر للأخطاء الشائعة عن طبيعة الحركات السياسية والاجتماعية ، هو الأخذ بظاهر الكلمات التى يرددها أتباع تلك الحركات ودعاتها ، وتصديقهم والتعويل عليهم فى تفسير أهدافهم ووصف جهودهم ، وللكلمات أهميتها ، وهى فى بعض الأحيان تقرر الحق وتصف الواقع ، ولكنها فى الأعم الأغلب لا علاقة بينها وبين الحق والواقع ، وإنما هى كالشعر تعبر عن عواطف خفية وآمال غامضة وخواطر مضطربة مهوشة ؛ والألفاظ التى يتشدق بها الشيوعيون ويجهرون بها فى الحديث عن أنفسهم وما يعملونه ، مضللة زائفة ، لأنهم يتعمدون الكذب والتهويش وخداع الغير ، كما يخدعون أنفسهم خداعاً لا يشعرون به ، وهذا كله جزء من الدعاية الشيوعية .

ومعظم الكتب التى يقدمها الشيوعيون عن الشيوعية أو عن الاتحاد السوفيتى ليثبتوا نظرياتهم ويؤكدوا نتائجهم ويناضلوا عن صحة اتجاهاتهم ، مقتبسة من خطبهم وأحاديثهم ومنشوراتهم ، ومن الفصول التى كتبها كتاب يدينون بالشيوعية ؛ ولما كانت نظمهم أو مجموعة قوانينهم تزعم أن فى داخل الاتحاد السوفيتى مساواة تامة لا تفريق فيها بين الأجناس والقوميات ؛ لذلك يؤخذ هذا الزعم قضية يسلم بصحتها بلا أدنى مناقشة ولا مراجعة . . .

والشيوعيون فى خارج الاتحاد السوفيتى يعلنون أنهم يؤمنون بالديمقراطية ، أو الاتحادات التجارية الحرة ، أو الرخاء القومى وتوسيع فرص التعليم والتربية ؛ ويسمع البسطاء ذلك فيفترضون أنهم لا يعملون ذلك فحسب ، بل إنهم كذلك يجاهدون لتحقيق هذه الأغراض ، ومن أجل أن تقريراً وُضع عن مشروع السنوات الخمس يزعم إنشاء مساكن للعمال وإعطاءهم الغذاء والكساء ، يصدّق هذا الكلام ، وتبنى عليه القضايا والأحكام ، وتشاد الأمانى العراض والآمال الضخام ، وحينما يتكلم أحد ساسة الجمهورية السوفيتية عن نزع السلاح أو طلب إلغاء استعمال القنبلة الذرية ، يفرض أنه يرى حقا نزع السلاح ، ويؤمن بضرورة تحريم استعمال الأسلحة الذرية ، وحتى هؤلاء الذين يساورهم الشك فى حقائق الأحوال فى الاتحاد السوفيتى ، يميلون إلى القول بأن هدف الشيوعيين الذى يرمى إلى خلق مجتمع خال من الطبقات ، هدف عظيم ومثل أعلى نبيل ، وهم بذلك يفرضون أن الهدف الذى يعلنه الشيوعيون فى كلماتهم وبألسنتهم هو الهدف الحقيقى ، وأنهم يعملون بحق وإخلاص من أجل تحقيقه .

ولكى نفهم الحركات السياسية والاجتماعية يلزم أن نقترب منها من طريق يختلف كل الاختلاف عن طريق الألفاظ الخادعة والصيغ المرددة المحفوظة ، وهذا الطريق هو مراقبة سلوكها الاجتماعى وتصرفاتها العملية ، وعلينا أن نختبر أعمال هذه الحركة ونُلمّ بتاريخها وسجلاتها واتجاهاتها وسير تطورها ، وأن نوازن بين ادعاءاتها ومزاعمها وبين أعمالها وسلوكها ، ولا نأخذ الألفاظ التى يرددها دعاتها مأخذ الصدق ،

إلا إذا كانت المراجعة تؤيدها ولا تنقض شيئاً منها ، وسنجد فى حالة الشيوعية أن بعض كلماتها — وبوجه خاص تلك الكلمات التى يكتبها الشيوعيون للشيوعيين لا لعامة الجمهور — تكشف عن معناها الخفى وتنم على حقيقتها ، ولكن يلزم أن يكون موقفنا إزاء تلك الألفاظ أن نرجح أنها باطلة ما لم يكن هناك ما يؤيدها .

فى بعض الأحيان يقولون لنا إن الشيوعية لا تزال غضة السن صغيرته ، وإنها لم تجرَّب بعد وليس عندنا حتى الآن ما يكفى للحكم عليها ؛ ولكن هذه الحجة وسيلة لتعطيل أحكامنا على ما تؤيده الحقائق ، وقد ظهرت الحركة الشيوعية — أو الحركة البلشفية — فى سنة ١٩٠٣ وقد تفرعت عن الماركسية التى تحددت معالمها سنة ١٨٤٨ ، أى منذ قرن وبضع سنوات ، وأضيفت إليها عناصر مستمدة من مذهب الفوضوية ...

ومنذ سنة ١٩٠٣ تقدمت الشيوعية بخطوات حثيثة ، وقد غلبت على أمة عظيمة ضخمة أكثر من ثلث قرن . وبسطت نفوذها الكامل أخيراً على رقاع جديدة وأمم شتى . ونظمت فى أنحاء العالم أحزابها واتحاداتها وحكوماتها وصناعاتها ومطبوعاتها ، وأوجدت عدداً كبيراً من المنظمات واللجان ، ويمكن دراستها ومراقبة سلوكها فى بيئتها الاجتماعية والسياسية والثقافية والأخلاقية ، وفى علاقتها بكل لون من ألوان المشكلات التى تحدث فى المجتمع ، وفى السلم والحرب ، وفى القوة والضعف ، وفى الصغائر والكبائر ؛ والبينات ليست كثيرة وموفورة فحسب ، بل ساحقة ، والعذر الوحيد فى إرجاء الحكم على الشيوعية هو الجهل أو الإعراض عن مواجهة الحقيقة .

والذين ألفوا نظام الأحزاب فى الأمم الديمقراطية يجلون شيئاً من الصعوبة فى فهم الشيوعية ، فهم ينظرون إليها باعتبار الشيوعيين حزباً سياسياً مثل سائر الأحزاب فى البلاد الديمقراطية ، ويحسبون أن العضو فى الحزب الشيوعي نظير العضو فى أحد الأحزاب الديمقراطية ، وغاية ما فى الأمر اختلاف فى البرامج . . .

والتفكير فى الشيوعية بهذا الأسلوب يجعلهم ينظرون إلى الشيوعيين نظرهم إلى أعضاء الأحزاب الأخرى المنافسة لهم ، وهم يتفاوضون مع الشيوعيين ، كما يتفاوضون مع غيرهم من الأمم ، ويسمحون للأحزاب الشيوعية أن تعمل فى حدود القانون مثل سائر الأحزاب السياسية ، ويوافقون على انضمامهم إلى الحكومات الائتلافية ، والاشتراك فى الانتخابات ، ولا يتردد المواطنون الصالحون عن الانضمام إلى الأحزاب الشيوعية فى مختلف اللجان لتحقيق الأغراض النبيلة التى يزعمون أو يزعم لهم بعض الدعاة أنها من أهداف الشيوعية ، وقد يشتركون معهم فى تحرير الجرائد والمجلات ، ويشتد غضب الأحرار حينما يشكو الشيوعيون من أن حرياتهم منقوصة !

وهذا التصوير للشيوعية مسرف فى الخطأ ، فالحزب الشيوعى لا علاقة له ألبتة بالأحزاب الديمقراطية والبرلمانية ، وهو يقوم على أسس مختلفة كل الاختلاف ، والأحزاب البرلمانية المعروفة لم تخرج عن كونها مجموعة من الأشخاص المختلفين فى الأغراض المحدودة ، وتربط بعضهم ببعض رابطة ليست على جانب كبير من القوة والمتانة ، وليس لهم برنامج

مفصل محدود وإنما هى ، بضعة أفكار تقليدية تنظم شتاتهم ، والسياسة إحدى مشاغلهم ، فهى لا تستغرق كل جهودهم ؛ وانتساب أحد الناس إلى الحزب الجمهورى فى الولايات المتحدة مثلا ، لا تعنى فى كثير من الأوقات أكثر من دفع القليل من الدولارات من الحين إلى الحين ، والتصويت للحزب فى يوم الانتخاب .

ولكن الشيوعى القح يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، فهو إنسان قد وهب نفسه للشيوعية وحبس عليها كلّ جهوده وآماله ، ولا حياة له فى خارج منظمته أو بعيداً عن نطاق الأفكار الشيوعية التى يدين بها ؛ وكل ما يعمله ، وكل ما يملك من مال وأسرة ومواهب وأصدقاء وحياة ، تابع للشيوعية وخاضع لها ؛ فهو ليس شيوعياً يوم الانتخاب وحده ، أو فى مقر الحزب فحسب ، أوحين دفع الاشتراك ، وإنما هو شيوعى فى كل لحظة من لحظات حياته ، وفى كل موقف من مواقفها وحالة من حالاتها ؛ فهو يفكر ،ويأكل ويشرب ، ويحب ويكره ، ويضحك ويسخر ، ويسب ويلعن ، أو يمدح ويشكر ، باعتباره شيوعياً قبل كل شىء ؛ وفى رأيه أن العالم قسمان ، فى ناحية الشيوعيون ، وفى الناحية الأخرى سائر البشر ؛ والأحزاب غير الشيوعية جميعها فى رأيه صنائع أعداء الشيوعية وخصوم للتقدم وأعوان للرجعية !

ومحاولة فهم حقيقة الشيوعية تقتضى أن نبعد من أذهاننا كل الأفكار والتصورات المستمدة من معرفتنا للأحزاب البرلمانية التقليدية ، وإذا لم نفعل ذلك فسنكون مثل الذى يستنبط طبيعة لعبة الشطرنج من معرفته

الخاصة بلعبة الداما، لمجرد مشابهة رقعة الداما لرقعة الشطرنج . . .

والمعلومات الأكيدة عن الشيوعية يمكن إيجازها فى تعريف الشيوعية بأنها حركة تآمر للاستيلاء على السلطة فى عهد اضمحلال النظام الرأسمالى، وهى من الناحية السياسية ترتكز على الإرهاب وخداع الجماهير ، ومن الناحية الاقتصادية ترمى إلى تمليك الدولة كل شىء ؛ ومن الناحية الاجتماعية هى نظام كلى . . .

وكل كلمة فى هذا التعريف مقصود بها معناها الدقيق ، ولذلك سنحاول أن نبين مغزاها ونكشف عن مضمونها .

لقد كانت الشيوعية منذ عهد ماركس — وما تزال — حركة عالمية واسعة شاملة ، لا تعترف بالحدود الجغرافية ولا بالحواجز السياسية أو الثقافية ؛ ومنذ إيجاد نظام « الدولى الثالث » تمثلت هذه الحركة فى صورة نظام صارم ، وأصبحت سياسات الشيوعيين الرسمية يسيطر عليها مركز عام ، وتبذل الدعاية الشيوعية جهداً كبيراً لتحملنا على الاعتقاد بأن الشيوعيين الروسيين يختلفون عن الشيوعيين الأمريكيين ، وأن الشيوعيين الصينيين يختلفون عن الشيوعيين اليوجوسلافيين ؛ وهذا الاعتقاد وهم من الأوهام . . .

وبرامج الأحزاب الشيوعية المختلفة فى شتى الأمم يقررها المركز العام فى موسكو وهذا الاختلاف ليس أكثر من تنويع فى وضع حركات الهجوم الملائمة لكل أمة من الأمم على حسب أحوالها القومية . ولكن الاستراتيجية المركزية واحدة . . .

والحل الشكلي للدولي الثالث في مايو سنة ١٩٤٣ — وقد أثار ضجة في الصحف العالمية — لم يكن له أدنى أهمية ، وكان الشيوعيون يعلمون أنه ليس هناك أي تغيير ، وأن « الدولي الثالث » فقد أهميته قبل حله بزمن طويل ، وأنه كان حجر عثرة في سبيل المفاوضات الدبلوماسية السوفيتية ؛ ففي سنة ١٩٣٧ انسحبت الصين الشيوعية من الدولي لكي تمعن في سياستها المحلية ، وفي سنة ١٩٤٠ انسحب الحزب الشيوعي في الولايات المتحدة من الدولي بباعث من الظروف المحلية ، ولم يتغير شيء في الاستراتيجية الشيوعية العالمية بعد مايو سنة ١٩٤٣ أو في تبعية الحركة العالمية للتوجيه المركزي ، واستمر عملاء الشيوعية ، مثل توريز وتولياتي وماوتسي وغيرهم ، يتنقلون بين بلادهم وبين موسكو لتلقي التعليمات والأوامر والتوجيهات والأرصدة اللازمة .

وربما يجد بعض الناس غرابة في وصف الحركة الشيوعية بأنها مؤامرة ، على أننا نعلم أن المنظمات والأحزاب الشيوعية تعمل علناً في كثير من الدول ، ولكن التناقض هنا يظهر في العالم اللاشيوعي لا في عالم الشيوعية ، فالمؤامرة معناها خطة مرسومة مدبرة ، وهذه الخطة قد يكون لها أوجه مشروعة ، ولكن أغراضها الأساسية وأساليبها خارجتان عن نطاق القانون ، والعمل القانوني من وجهة النظر الشيوعية عمل ثانوي ، وهو مجرد غطاء لستر العمل غير المشروع ، ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ، وقد قال ماركس وإنجلز في بيانهما المشهور « لا يمكن تحقيق أهداف الشيوعية إلا بقلب الأحوال الاجتماعية جميعها بالقوة » .

وأعلن لينين في هجومه على ماكدونالد في سنة ١٩١٩ « أن العمل

المشروع يلزم أن يقترن بالعمل غير المشروع ، ولقد علّم الشيوعيون أتباعهم ذلك على الدوام ، والحزب الذى لا يمضى فى العمل المنظم الشامل غير القانونى ، برغم قوانين البورجوازية وبرلماناتها ، إنما هو حزب من الخونة والأوغاد » .

وهذا هو الاتجاه الذى يملى على الشيوعيين تصورهم للإصلاحات ، فالرغبة فى الإصلاح والعمل له بطبيعة الحال عمل مشروع .

ويقول ستالين فى كتابه عن أسس اللينينية « إن الثورى يقبل الإصلاح ليستعمله وسيلة لربط العمل المشروع بالعمل غير المشروع ، وليتخذه ستاراً تقوى وراءه جهوده لإعداد الجماهير إعداداً ثورياً » .

والتآمر جزء من جوهر الشيوعية ، ولذلك يظل ملازماً للشيوعية حتى فى البلاد التى أصبح فيها زمام الأمور بيد الشيوعيين ، بل هو فى تلك الحالة يقوى ويشتد ، وقد وصف ذلك كرافشنكو فى كتابه « آثرت الحرية » فقال : « للأوجبى — الشرطة السرية — عيون راصدة وآذان مرهفة ، فهم يرون كل شىء ويسمعون كل شىء ، وقد تأكدت من وجود شبكة من الجواسيس لا يعرف بعضهم البعض خلف السلطات الشكلية والمديرين الاقتصاديين ، ووراء الحكومة الظاهرة حكومة أخرى حقيقية » !

ويقول فى موضع آخر من كتابه المذكور : « واشتد شعورنا عندئذ بأننا محاطون من كل جانب بالعيون الرواصد والآذان المنصتة ، تلك العيون والآذان التى تخفى عن النظر ، ولكنك تحس وجودها فى كل مكان ؛ وكذلك اشتد شعورنا بالأضابير الضخمة التى سجلت فى أوراقها دخائل



ستالين : الرئيس السابق للاتحاد السوفيتى

حياتنا الخاصة ومكنون أفكارنا ، وبأعدائنا الذين قد ينتهزون مثل هذه الفرصة فيبرزون ما لنا من سقطات ، ما هو حقيقى منها وما هو من نسج الخيال » .

والسياسة الشيوعية جميعها قائمة على الاعتقاد بأن المجتمع الرأسمالى الفردى التقليدى فى انحطاط لا محيص عنه ، وقد يكون ذلك حقاً ، وقد يكون باطلاً ؛ ولكن الشيوعيين يرون أنه إن لم يكن هذا حقاً فإنهم يفقدون الأمل فى تحقيق هدفهم النهائى ، وعندهم أن اضمحلال الرأسمالية يتيح الفرصة للجيش المنظم من الثائرين ويمكنهم من الوثوب إلى الحكم والاستئثار بالسلطة ، وهذا الاعتقاد علاوة على ذلك أحد مصدرى سياسةالشيوعية الاقتصادية فى جعل موارد الإنتاج جميعها تحت سيطرة الدولة .

ويرى الشيوعيون أن الملكية الخاصة المتنافسة ، تعجز عن تناول مشكلات الإنتاج الصناعى الضخم ، وأنها لا بد لها من الاستهداف للأزمات الاقتصادية المزمنة وعدم وجود عمل لعدد كبير من العمال .

ويعتقد الشيوعيون أن استيلاء الدولة على موارد الإنتاج يزيل أسوأ المتاعب الاقتصادية ويكون الأساس القوى المتين لنظامهم الشيوعى .

وهناك باعث شيوعى آخر مختلف وأقوى تأثيراً ، يدعو الشيوعيين إلى إيثار استيلاء الدولة على موارد الإنتاج والثروات ، وهذا الباعث هو أن حقوق الامتلاك فى أدوات الإنتاج ضرب من ضروب القوة الاجتماعية ، وممارسة الأفراد لهذه الحقوق فى حكمة وحسن تدبير معناه عدم التركيز وتعدد القوى .

والهدف الأساسى للشيوعيين هو احتكار النفوذ ، ولذلك يرى الشيوعيون بحق أن الملكية الخاصة تهدد نفوذهم ، ولذلك ينزعون إلى تقليل حقوق الملكية أو محوها حينما يتيسر لهم ذلك من الناحية العملية ، على أن المرونة ممكنة فى هذه الناحية ؛ فإن الشيوعية — تبعاً لطبيعتها وجرياً على سياستها — قد تسمح مؤقتاً على الأقل بالاحتفاظ بحقوق الملكية ، وقد تسمح بإحيائها وبعثها مع شىء من التساهل والاعتدال ، إذ وجدت مغنماً سياسياً فى اتباع هذه الخطة — كما حدث فى السياسة السوفيتية الاقتصادية الجديدة من سنة ١٩٢١ إلى سنة ١٩٢٨ ، أو فى بعض الحكومات التى تسيطر عليها الجمهورية السوفيتية فى شرق أوربا — ولكنهم يتحرون ألا يهدد هذا الإجراء نفوذ الشيوعيه تهديداً خطيراً .

وهكذا يضبح استيلاء الدولة على موارد الإنتاج — الذى كان فى الأصل خير ضامن وكفيل لتحرير الإنسانية الاقتصادى من الوجهة العملية — أقوى الوسائل لتركيز النفوذ والسلطان واستغلال الجماعات استغلالاً لم يسبق له نظير ، وباباً للطغيان الشامل الذى لا عاصم منه ولا مجير .

والحكومة الشيوعية حكومة كلية من الناحية الاجتماعية ، ومعنى ذلك أن قوة احتكارها تمتد وتنبسط حتى تشمل كل وجه من أوجه الحياة الإنسانية ، وهى لا تشمل النواحى السياسية التقليدية وحدها ، وإنما تشمل كذلك نواحى الحياة الفنية والصناعية ، والزراعية ، والعلمية ، والأدبية ، والأخلاقية ، وأوقات الفراغ والمتعة ، والحياة العائلية ؛ وهم يعدون القصة

من القصص ، أو الأنشودة ، والأغنية ، أو الصورة الفنية ، أو شريط السينما ، أو النظرية من نظريات علم الحياة أو الدين — كل ذلك من الأسلحة التي تستعمل في حرب الطبقات وإحداث الاعتصابات وإشعال نيران الثورة !

وكل نظام سياسى يقوم على القوة والأسطورة ، وعلى الشرطة والجيوش والسجون ؛ ويعتمد كذلك على مجموعة من الأفكار والآراء لا تتفق كل الاتفاق مع الواقع ، والشيء الذى تمتاز به الشيوعية عن غيرها ، هو أن الإرهاب أساس قوتها ، وأن الخداع المتعمد باطن أسطورتها ، والقانون — مثل أى شيء آخر فى نظر الشيوعيين — وسيلة من وسائل النفوذ والسلطان ، وسلاح يستعملونه إذا استلزم الأمر أو يتركونه فى جرابه ، والقوة القانونية المكشوفة خاضعة فى النظام الشيوعى للإرهاب الخفى والتآمر المستور وتابعة لهما ، والعامل الرئيسى فى هذا الإرهاب المستحكم هو الشرطة السرية ، ويبلغ عدد أعضائها العاملين فى كل ناحية من نواحى الأرض مليونين ، وهؤلاء يضاف إليهم عملاء آخرون يتجسسون عليهم ويراقبونهم ويراجعون أعمالهم وتقاريرهم السرية ، وهناك كذلك الذين يتطوعون بنقل الأخبار وإعطاء المعلومات ، والذين يتولون القيام بعملية إثارة الخواطر وبث روح النقمة والسخط والتذمر والتحريض على الإضراب والعصيان والتخريب والإفساد وإيقاع النفور وتفريق الصفوف وإحداث الاضطراب فى الخواطر والبلبلة فى الأفكار !

والخوف شائع فى كل مكان تسيطر فيه الشيوعية ، الخوف الذى

يلازم الناس فى ظلام الليل ووضح النهار ويأخذهم من جميع أقطارهم ؛ وكل عمل من أعمال الحياة اليومية العادية ، وكل حادثة دقّت أو جلت ، وكل صغيرة أو كبيرة — تجد طريقها إلى سجلات الشرطة السرية ، فتحصى وتسجل ويحاسب عليها الإنسان حساباً عسيراً إذا علقت به أدنى شبهة أو حام حوله شيء من سوء الظن أو وشى به واش من خصومه أو من الذين يميلون بطبيعتهم إلى الدس والوقيعة والشر والإيذاء ؛ وفى مثل هذا الجو الخانق لا يستطيع الإنسان أن يثق بأفراد أسرته وأقرب الناس إليه ، ولا بأصدقائه وزملائه ، والكلمة العابرة تُبحث وتُفتّش ، والملاحظة البريئة يساء تأويلها ؛ وقد تكفى للقضاء على إنسان كلمة فى رسالة تحتمل تفسيرات مختلفة ، أو ضحكة أو ابتسامة تحمل معنى خاصاً متوهماً يُعتمد عليه فى إلصاق الاتهام وإصدار الأحكام الصارمة والعقوبة التى لا تعرف الرحمة !

وللارهاب صور متعددة وأصناف شتى ، منها الضغط الاقتصادى ، والوعيد ، والإغراء ، وتهديد الزوجات والأطفال ، والنفى ، والأشغال الشاقة ، والعقوبات البدنية ، والتعذيب والقسوة ، والقتل فى ردهات المنازل أو فى الطرقات أو فى قطارات السكك الحديدية !

وليس للإرهاب الشيوعى مدى ينتهى عنده ، وضحاياه لا تعد بالعشرات والمئات ، وإنما تعد بالآلاف والملايين .

وقد استلزم تملك الدولة الموارد الزراعية فى أوكرانيا إجاعة ثلاثة ملايين من الأوكرانيين ، وإطلاق الرصاص على عشرات الآلاف فى

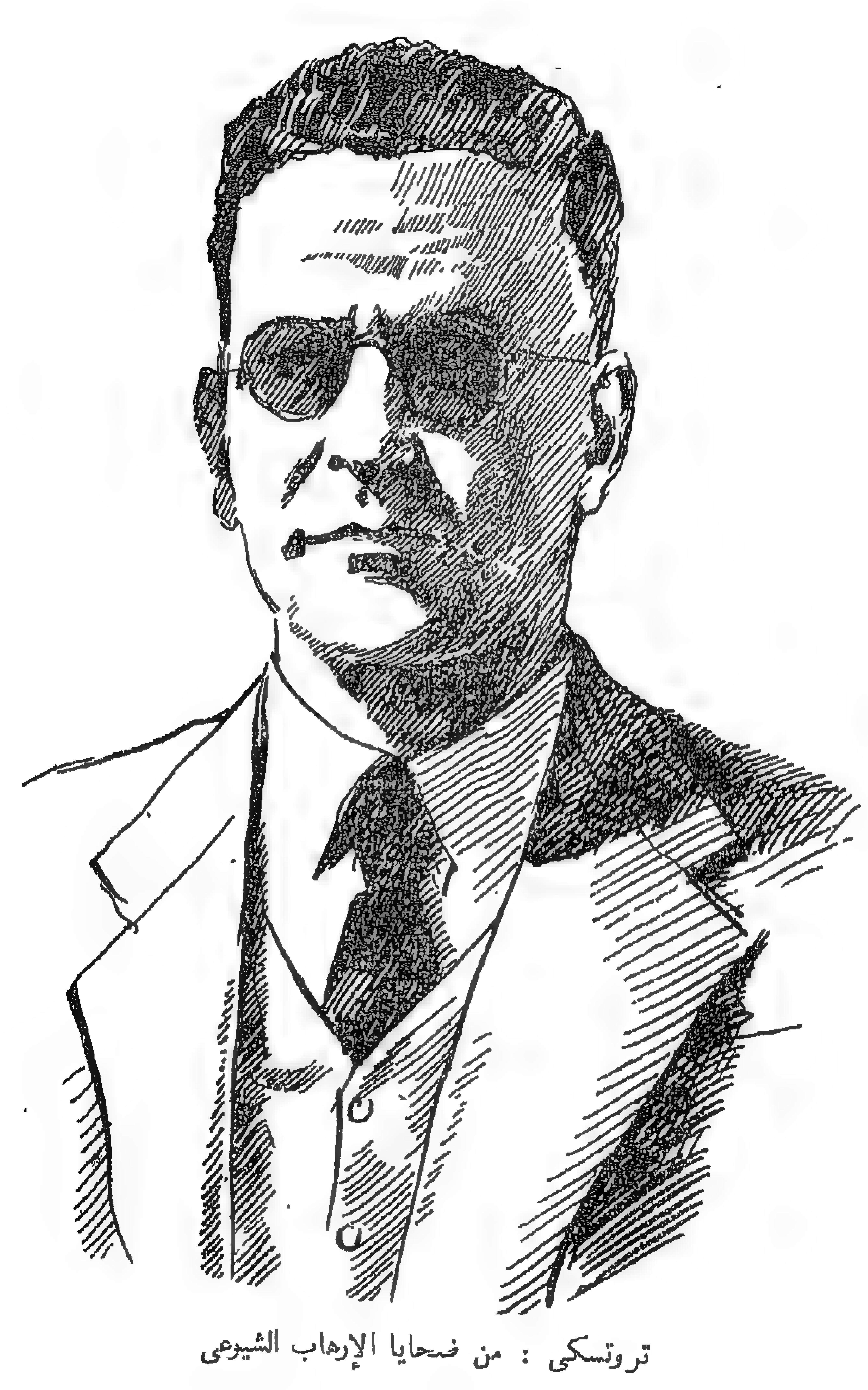
حركات التطهير ، وسجن عشرات الآلاف وإرسال ملايين من الناس إلى معسكرات الاعتقال !

ويأخذ الإرهاب أقصى مداه فى البلاد التى يسيطر عليها الشيوعيون سيطرة كاملة ، ولكنه ليس محصوراً فى حدود هذه البلاد ؛ فإن الشرطة السرية الشيوعية تعمل فى جميع أنحاء العالم ، وهى تتقدم مع الجيش الأحمر فى شرق أوربا ، وتشرف هناك على المعارضة .

وفى أثناء الحرب الداخلية فى إسبانيا كان للجاسوسية السوفيتية سجونها وحجرات التعذيب ومعسكرات الاعتقال ، وكان الكثيرون من المقاومين للنظام الشيوعى يُسْرَقون ويقتلون .

وفى فرنسا قُتل سكرتير الدولى الرابع المعارض لستالين ؛ وقد خُطف الكثيرون من الروسيين الذى انشقوا على ستالين ؛ وقتل فى سويسرة « أجناس رايس » أحد رجال الشرطة السرية الشيوعية ، لأنه حسب أن باستطاعته التخلى عن عمله والاستقالة من منصبه ؛ وفى كوبا قتل بول ماسلو ؛ وفى المكسيك قتل تروتسكى ؛ وحدثت جرائم من هذا النوع فى الصين ونيويورك وواشنطن وغيرها من البلاد والأقطار !

ولا يظن أحد أن الإرهاب الذى تعتمد عليه الشيوعية من الأحوال الطارئة والمظاهر الزائلة ، أو أنه مجرد وسيلة مؤقتة لوقاية الثورة وتدعيم النظام الشيوعى ، أو أنه شىء قد اقتضته ضرورات الموقف وفرضته على الشيوعيين فرضاً ودفعتهم إليه دفعاً ، كلا ، وإنما الإرهاب جزء لا يتجزأ من الشيوعية ، وعنصر من عناصر تكوينها ، وصفة من صفاتها الجوهرية



تروتسكى : من ضحايا الإرهاب الشيوعى

الثابتة ؛ وقد لازم الثورة الشيوعية منذ نشأتها ونما بنموها ، وقد كان لينين يقر عيناً ويطيب نفساً بتعذيب المخالفين لسياسته وأخذهم بوسائل القسوة المتناهية ، وقد صحب الإرهابُ الشيوعية فى مختلف مراحلها وتطوراتها ، والشيوعيون يعدون الإرهاب السلاح الماضى الذى يزيدهم قوة واستعلاء وغلبة؛ وكل اتجاه سياسى للشيوعية أو تحوّل اقتصادى كان الإرهاب فى طليعة وسائله ، وقد تم بوسائل الإرهاب حل الأحزاب المعارضة ، وضم ولاية جورجيا المستقلة ، وفرض مشروع السنوات الخمس ، وجعل موارد الإنتاج الزراعي ملكاً للدولة ، والاتجاه إلى سياسة الجبهة المتحدة بعد انتصار هتلر فى ألمانيا ، وإلغاء المعارضة فى داخل الحزب الشيوعى نفسه ، والقضاء على استقلال الاتحادات التجارية ، والتحول إلى عقد ميثاق الاتفاق مع هتلر ، والعودة إلى إحياء النزعة القومية ، ثم الرجوع عن ذلك والتعبئة للحرب ، ومحاولة البناء والإصلاح بعد وقوع الحرب ؛ فى ذلك كله لم يكن معوّل الشيوعيين لا على القانون، ولا على ولاء الشعب أو تهذيبه وتربيته أو تبصيره بمصلحته ، وإنما كان على الإرهاب والترويع ؛ وفى كل خطوة من هذه الخطوات وكل حركة من هذه الحركات، كان الحادي هو الإرهاب وما يجىء فى آثاره من التطهير والاعتقال والنفى والتعذيب والتنكيل والقتل ؛ والكتاب الشيوعيون لا ينكرون ذلك ولا يمارون فيه، وإنما يسلمون به ويدافعون عنه ويسوّغونه ويلتمسون الأعذار والمبررات ؛ والشيوعيون الرسميون يقولون إن هذا الإرهاب دفاع مشروع تحمى به الثورة نفسها وتدفع شر دسائس الرجعيين ؛ والشيوعيون المعارضون

يوافقون على مبدإ الإرهاب ، ولكنهم يزعمون أن ستالين قد بالغ فيه وتجاوز المدى . . .

ومئات الألوف من الذين يخدمون الشيوعية ويدعون لها ويناصرونها ، وألوف من الأبرياء الذين يعاونون الشيوعيين فى تحرير صحفهم ومجلاتهم ويسندونهم فى الجبهات القومية ، والعمال الذين يتخذون منهم قادة فى الاتحادات العمالية ، والشيوعيون الذين ليسوا أعضاء فى الحزب الشيوعى — كل هؤلاء لا يفقهون معنى هذا الإرهاب الفظيع ، وإن كانوا بتأييدهم للشيوعية يستديمونه ويزيدونه هولاً ونكراً .

وكل الذين يعارضون ، أو الذين عارضوا مرة واحدة ، أو الذين يمكن أن يعارضوا يوماً ما — كل هؤلاء يطلق عليهم اسم أعداء الشعب ، والنفاية ، والحثالة ، والكلاب المسعورة ، والجيف ، وما إلى ذلك من النعوت البذيئة والصفات المذمومة !

ويساعد الإرهاب ويكمله عامل آخر ، وهو العمود الثانى الذى تقوم عليه الشيوعية ، هذا العامل هو خداع الجماعات خداعاً متعمداً منظماً ، وهذا الخداع يتخذ مظهرين ، أحدهما الكذب المقصود ، فهم ينكرون أن الملايين يموتون جوعاً ، فى الوقت الذى يقضى فيه الملايين نحبهم جوعاً ؛ ويؤكدون أن فلاناً من خصومهم السياسيين لقى هتلر ، أو قابل تروتسكى ، أو اجتمع بتشرشل ، فى حين أن هذا المفترى عليه كان فى أمكنة بعيدة كل البعد عن أمكنة الزعماء المذكورين ، وهم يبيدون الإحصائيات الخاصة بعدد السكان — كما حدث لإحصائيات سنة ١٩٣٧ — ويقتلون الذين

قاموا بعمل هذه الإحصائيات ، حينما تكون نتيجة الإحصاء مخالفة للخطة المرسومة! وهم يرغمون ضحاياهم على الاعتراف بجرائم هم منها أبرياء ، ويزيفون شهراً بعد شهر سجلات الصناعة والزراعة والأجور والمالية ، ويكتبون كل ثلاث سنوات تاريخ روسيا والعالم ، ليكون التاريخ ملائماً للاتجاه الجديد الذى يرى الحزب السير فى سبيله. وكتاب جرائدهم ، وزعماؤهم ، وساستهم ، لا يتورعون عن الكذب ، فجريدة « برافدا » تنكر تدخل السوفييت فى إيران ، وستالين فى مؤتمر يالتا يعد بمنح الحرية لرومانيا وبولندة ، ومولوتوف يوقع على ميثاق عدم اعتداء على فنلندة وإستونيا . . .

والمظهر الثانى لكذبهم ، اصطناع صيغ مجردة تشوه الواقع وتموه الحقائق ، وجرياً على هذه الطريقة يسمون ديكتاتورية الحزب الشيوعى الإرهابية « ديكتاتورية العمال الديمقراطية » ومصادرة أملاك المزارعين واستصفاء أموالهم بالإرهاب والإجاعة « التنازل الاختيارى عن الممتلكات للدولة » ، ويطلقون على التفاوت الصارخ لمستوى الحياة وأحوال المعيشة فى داخل الجمهورية السوفيتية « انتصار الواقعية الاشتراكية » ، ويسمون قتل من يشتبهون فى ولائهم ويشكون فى إخلاصهم « القضاء على أنصار الاستعمار الفاشى » ، ويسمون الأكاذيب التى يخترعونها ويذيعونها ، وحضهم العمال فى البلاد الديمقراطية على إفساد الآلات والتخريب والهدم وبث الرعب فى كل مكان « دفاع البرولتياريا عن أنفسهم ضد أعدائهم » ويسمون البؤس والشقاء والحرمان الذى يقاسيه الشعب الروسى « الجنة التى ينعم فيها الشعب فى أرض الاشتراكية » !

ولا خلاف فى أن الأحزاب السياسية تسعى للسيطرة وتطلب القوة والسلطان ، وهذا هو الهدف الذى تتألف من أجله الأحزاب ، ولكن الخاصية التى تمتاز بها الشيوعية من بين سائر الأحزاب ، هى أنها تسعى إلى الاستئثار بكل أنواع السلطان وضروب القوة المطلقة ؛ وانتصار حزب المحافظين فى إنجلترا مثلاً ، أو انتصار الحزب الجمهورى فى الولايات المتحدة ، معناه أن هذا الحزب قد ازداد نفوذه وقويت شوكته فى ميدان محدود من ميادين الحياة القومية ، وأنه يستطيع فى خلال فترة من الزمان أن يختص أنصاره ومؤيديه ببعض الوظائف الحكومية الهامة والمراكز الإدارية الممتازة ، وقد يقر بعض القوانين الخاصة ،ويفرض ضرائب معينة أو يخفضها بما يلائم مصلحته ، وقد يحاول أن يستغل فرصة استيلائه على أزمة الأمور وجهاز الدولة فى أن يسترضى الجمهور ويعمل على كسب ثقته ؛ ولكنه لا يحاول أن يهدم الأحزاب والمنظمات المناوئة له ، ولا نزاع فى أنه يسعى فى إضعافها ويعمل جهده لإطالة بقائه فى الحكم ، ولكنه يعترف بحق الأحزاب الأخرى فى البقاء ، ويسلم بأن أحد هذه الأحزاب سيخلفه يوماً ما فى الحكم ويقف هو فى صف المعارضة ، وفضلاً عن ذلك فإن أى حزب فى البلاد الديمقراطية وفى ظلال النظم الدستورية يستولى على الحكم يعرف أن لسلطانه حدوداً يقف عندها ولا يتجاوزها ، والأحزاب السياسية فى البلاد الديمقراطية تعلم العلم كله أنها ليست وحدها صاحبة النفوذ والسيطرة ، فهناك إلى جانبها سلطان رجال الدين ، ونفوذ الاتحادات التجارية ، والجيش ، والصناعات ، والمصارف ، والجمعيات المختلفة ،

والهيئات المتنوعة ، والنقابات ، وكل منها مركز من مراكز القوى الاجتماعية ؛ والحزب الذى يلى الحكم يعتبر وجودها فى حدود القانون ، ويرى أن من حقها الاحتفاظ باستقلالها ، وهكذا طبيعة النظم الديمقراطية ؛ وكل حزب أو هيئة فى الأمم الديمقراطية تحاول الاستزادة من النفوذ والسلطان ، ولكنها فى الوقت نفسه لا تمنع غيرها حق البقاء ؛ وكل مجتمع حر يؤثر تعدد المصالح وتوزيع النفوذ والسلطة بين الهيئات والأحزاب. . .

وقد أظهرت التجارب أن الشيوعية ليست كذلك ، وأنها تقف من الأحزاب المنافسة لها موقفاً يختلف كل الاختلاف عن موقف الأحزاب فى البلاد الديمقراطية بعضها من البعض الآخر ، فالحزب الشيوعى لا يكتفى بالاستزادة من السلطان ، وإنما هدفه الاستئثار بالسلطان ؛ وليست غايته الظفر بالنفوذ السياسى وحده ، وإنما غرضه الظفر بجميع القوى الاجتماعية ، ولذلك يحاول أن يهدم كل حزب ، ويعفى على آثار كل هيئة ، حتى يخلو له الميدان ليجول ويصول منفرداً طاغياً غلاّباً .

والدليل على أن هذا هو هدف الشيوعية ، الخطة التى يجرى عليها الشيوعيون فى أى مكان يجدون فيه الأحوال مواتية لهم والسبيل ممهداً ، سواء حين يشاركون فى تحرير جريدة أو إصدار مجلة أو إدارة أحد الاتحادات التجارية ، أو حينما يسيطرون على أمة من الأمم . . .

وكعاداتهم فى ابتكار صيغ تخفى الغرض المقصود ، يسمون حرص الشيوعية على الانفراد بالسلطان واحتكار النفوذ : « الرغبة فى إيجاد مجتمع حر خال من الطبقات » ، ويزعمون أن هذا المجتمع الحر الخالى من الطبقات

لا يمكن الوصول إليه إلا بعد فترة ديكتاتورية العمال ، ويُعْنَى لينين بأن يذكّرنا أن الانتقال من النظام الرأسمالى للشيوعية يمثل عصراً تاريخياً تدور فيه معركة طويلة عنيفة يائسة ، معركة حياة أو موت ، ، وهى معركة تتطلب الصبر والجلد والنظام والإرادة القوية ، ولكن العامل جاهل وغير مجرّب ، وقد أفسدته قرون حكم الرأسمالية المتوالية ؛ ولذا لا يستطيع أن ينهض بأعباء ديكتاتوريته ، ولا يمكن أن يتولى هذه المهمة سوي جماعة من الثائرين الذين خبروا الأمور وصقلتهم التجارب وعرفوا بالإخلاص للمبادئ القويمة والنظريات الصحيحة ، وهؤلاء هم أفراد الحزب الشيوعى ، وهم وحدهم الذين يعرفون الأفكار الشيوعية ويفقهونها ؛ ولذلك هم وحدهم الذين يصلحون للزعامة والقيادة واحتمال أعباء الديكتاتورية وتبعاتها ، وكل حركة تناهضهم ، أو كل حزب يخالفهم ، وكل فرد يقف فى طريقهم ، لا بد أن تكون حركة رجعية ، أو أن يكون حزباً مأجوراً من الرأسمالية ، أو أن يكون جاسوساً لدولة أجنبية ! فكل حزب يجب أن يجرد من القوة ، وكل حركة يلزم أن تخمد ، وكل فرد يتهم فى إخلاصه تجب إزالته من الطريق ولا مفر من الاختيار بين البورجوازية والشيوعية ، وليس هناك وسط ولا مذهب ثالث ، وأقل انحراف عن المبادئ الشيوعية يعد اتجاهاً نحو البورجوازية الرأسمالية !

وحينما يكون الشيوعيون قلة وحزباً ضعيفاً إلى جانب الأحزاب الأخرى القوية الكثيرة العدد ، يخفون هذه المبادئ ؛ ولكن حينما يتوطد مركزهم ويستعلى نفوذهم ، يشرعون فى تنفيذ خططهم وتحقيق أطماعهم ؛ ولذلك

نلاحظ بعد قيام الثورة الروسية تحطيم القيصرية والأحزاب الحرة وإبادة المزارعين والعمال الذين لم يدخلوا فى الشيوعية ، والقضاء على استقلال الكنيسة الأرثوذكسية ، وإضعاف الاتحادات التجارية ، وإخماد المعارضة فى داخل الحزب الشيوعى نفسه ، والقيام بتطهير الحزب من المخالفين ، وإخضاع كل الهيئات الاجتماعية الأخرى لنفوذ الحزب . . .

وليس من الضرورى أن ننظر فى داخل حدود روسيا السوفيتية لنرى صحة الأخذ بهذا المبدأ ، فإنه يتبع أينما يجد الشيوعيين أن فى وسعهم اتباعه وكلما سمحت لهم الظروف المادية بذلك ؛ وقد نهجوا هذا المنهج فى بولندة ، وبلغاريا ، ورومانيا ، والمجر ، وتشيكوسلوفاكيا ، ويوجوسلافيا ، وألبانيا ، والجزء الشرقى من ألمانيا ، وفى شمال كوريا ، وإيران ؛ فالاستئثار بالسلطة هو هدف الشيوعيين ، واحتكار النفوذ هو معقد آمالهم . . .

وهذا المبدأ هو حقيقة الشيوعية الجوهرية ومفتاح فهم عقليتها ودراسة طبيعتها ؛ فالشيوعية متى نمت وترعرعت لا تسمح لأية قوة أخرى أن تعيش إلى جانبها ، وهى إما أن تنتصر وتسود ، أو تهلك وتُقبر . . .

وهناك حيلة يلجأ إليها الشيوعيون كثيراً ويستعينون بها فى كل حركة من حركاتهم وفى كل اتجاه من اتجاهاتهم ، وهذه الحيلة كثيراً ما يسىء غير الشيوعيين فهمها ولا يدركون مغزاها ، ولذلك تستحق الإشارة إليها بوجه خاص ! هذه الحيلة هى ما يسميه الشيوعيون « الجبهة المتحدة » .

فعند ما يؤيد الشيوعيون أية حركة أو يشتركون فى أى منظمة مع غير الشيوعيين ، يسمون هذا التأييد أو هذه المشاركة « الجبهة المتحدة » ، فجماعة

المدافعين عن الحريات النيابية . ولجنة الصداقة الأمريكية السوفيتية ، وعصبة أفريقيا الحرة ، واتحاد علماء القنبلة الذرية ، والجبهة الشعبية التى تكونت فى فرنسا قبل نشوب الحرب العالمية الثانية . والحكومات الائتلافية التى يشترك فيها الشيوعيون ، كل هذا يكوّن مايسمى «الجبهة المتحدة» . . .

وإذا نظرنا إلى الأفراد والمنظمات التى تنتسب إلى هذه الجبهات المختلفة – وقد ظهر منها عشرات الآلاف – وجدنا أن بعض تلك الجبهات زائفة . فهى مقصورة على الشيوعيين والذين يعطفون على الشيوعية ، وقد وُجدت لتكون ستاراً يستتر الشيوعيون وراءه ويتّقون به صولة القانون ويكسبون حمايته ، ومن أمثلة ذلك « الدفاع الدولى عن العمال » ، ومجلة « الجماعات الجديدة » ، وبعض الجبهات المتحدة الأخرى مثل « لجنة العمل السياسى » ، أو « لجنة المواطن المستقل للفنون والعلوم والحرف » . . .

والشيوعى يلتحق بهذه الجبهات بدافع مختلف عن الدافع الذى يحرك سائر الأعضاء الذين لا يدينون بالمذهب الشيوعى ؛ فغير الشيوعيين يرون فى هذه الجبهات عملاً عليهم أن يقوموا به ، وغاية علمية أو أدبية أو إنشائية يتحرونها ، مثل إطعام الأطفال الصينيين ، أو الدفاع عن الزنوج ، أو تنظيم الاتحادات التجارية ، أو الدفاع عن حرية الفكر ؛ ويقبلون عن طيب خاطر التعاون مع غيرهم ولو كان شيوعياً ، ما دام يعد بالمعاونة لتحقيق الغاية المبتغاة ؛ وكل ذلك يبدو أمراً طبيعياً مألوفاً . . .

ولكن الشيوعى لا يفكر على هذا النمط ولا يهدف فى سريرته إلى الغرض الظاهر الذى تألفت من أجله الجبهة . بل هو لا يبالى به ولا يأبه له ،

وكل هدفه هو اغتنام الفرصة لإضعاف الأفراد والمنظمات التى تنتسب إلى الجبهة ولبثِّ مبادئه الشيوعية ، وغرض الجبهة البرىء الواضح إنما هو طُعم المصيدة ؛ والشيوعى الذى يعمل من داخل الجبهات المتحدة يستطيع أن يفسد الأمر على المنظمات غير الشيوعية ، ويؤثر فى أعضائها ويجتذبهم إلى ناحيته ، ويتعرف حقيقة الأشخاص غير الشيوعيين ، ويتبين نواحى ضعفهم التى يستطيع أن يتغلب عليهم منها ؛ ولذلك أصبح من المعروف فى السياسة الحديثة أن الغنم فى الجبهات المتحدة دائماً للشيوعيين ، والخسارة لغيرهم ! وللشيوعيين براعة وقدرة على تحويل هذه الجبهات عن غرضها الأصيل واستخدامها لمصلحتهم والترويج لمذهبهم وضم الأنصار لهم . . .

والشيوعيون حينما ينضمون إلى الوزارات الائتلافية فى فرنسا مثلاً ، لا يكون هدفهم أن يخلقوا من فرنسا أمة قوية ثرية مرهوبة الجانب باذخة المجد ، وإنما يقصدون نقيض ذلك ، ويعملون على أن تصبح فرنسا خاضعة لتوجيه سادة الكرملين ! والنوع الوحيد من الوحدة والائتلاف الذى يسعى إليه الشيوعيون ، هو استيلاء الشيوعية التام على أزمَّة الأمور ، وليست لهم مصلحة فى تيسير حل المشكلات ومعالجة الأزمات وتفريجها أو المساعدة على توفير أسباب السلام والرخاء ، فهم يريدون أن تتعقد الأمور وتزداد المشكلات خطورة واستعصاء على العلاج ؛ وهدفهم بث الألغام ، ونفث السموم ، وتعكير صفاء الجو ، وخلق الأزمات المحرجة والمواقف الضنكة ، حتى تتاح لهم فرصة العمل والتغلب وانتهاب السلطة والنفوذ ، واستلاب المغانم فى جنح الظلام وإثارات الفتن والاضطرابات . . .

الشيوعية عنف وإكراه !

الاعتماد على القوة ، واستخدام العنف والقهر ، من الأسس التي يقوم عليها المذهب الشيوعي ؛ ولذلك لا يتعفف الشيوعيون عن الهدم والتدمير وإزهاق الأرواح وإراقة الدماء ، إذا وجدوا في ذلك مصلحة لهم ؛ وكل وسيلة تتكفل بتحقيق أهدافهم فهي عندهم وسيلة جائزة ومشروعة ؛ ولينين نفسه ، يعرّف ديكتاتورية العمال الشيوعية كما يأتي : « التصور العلمي للديكتاتورية لا يعني شيئاً أكثر من القوة غير المحدودة ، القوة التي لا يصدّها أي نوع من أنواع القوانين أو الإجراءات ، وإنما تعتمد مباشرة على العنف وحده ! » .

وقد تناول ستالين فكرة لينين في شيء من التبسط والتفصيل ، فقال : « إن ديكتاتورية العمال هي سلاح الثورة العمالية وعدّتها وأهم قواعدها ، وهي تدعى إلى الحياة ، أولاً لسحق مقاومة المستغلين الذين أزيلوا عن أمكنتهم ، وتدعيم أركان الثورة ؛ وثانياً للسير بالثورة العمالية إلى نهايتها ، وهي الانتصار التام للشيوعية ! » .

ويستخلص ستالين من ذلك « أن دكتاتورية العمال لا يمكن أن تنشأ نتيجة لتقدم المجتمع البورجوازي الهادئ المسالم ، والديمقراطية البورجوازية ؛ وإنما تنشأ نتيجة لتحطيم جهاز الحكومة البورجوازية ،

وبعبارة أخرى نقول : إن تحطيم آلة الحكومة البورجوازية هو الشرط الأول لمثل هذه الثورة ، وهو المبدأ الذى لا تحيد عنه الحركة الثورية فى بلاد العالم ! » .

وهذه العبارات وأمثالها يعرفها معرفة جيدة كل من قرأ آثار كارل ماركس . وفى « جمهورية » أفلاطون يدافع تراشيماخس عن استعمال العنف سياسياً واجتماعياً ، ولكن أفلاطون لم يسمح لتراشيماخس بالدفاع عن استعمال العنف إلا ليتيح لسقراط من بعد تفنيد النظرية وتحطيمها ؛ والشأن غير ذلك فى أقوال كارل ماركس ولينين ، وإنما هى كما يقول ستالين : « ليست مجرد عقيدة ، وإنما هى مرشد فى العمل ! » .

وتطبيق أفكار لينين وستالين فى المجتمع السوفيتى ، وما استلزمه من عنف وقهر — من المسائل المعروفة ؛ ولم يجترئ حاكم من حكام العهد الحديث على أن يرتكب ضروباً من القسوة كالتى ارتكبها حكام روسيا المحدثون .

ولقد كان الشعب الروسى أول ضحايا عنف السياسة السوفيتية ، فجعل الزراعة ملكاً للدولة ؛ وحركة التطهير الكبرى من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٣٩ ، والإكراه على العمل ، وما إلى ذلك من الإجراءات الشديدة — قد اقتضت هلاك الملايين من السكان ؛ ومن الأمثلة الصغيرة لتلك القسوة ، إخماد ثورة التركمان — التى أخفى أمرها فى أول الأمر ، والتى ظلت آثار الخرائب والدمار فيها سنوات طويلة — تصف مدى العنف الذى أخذ به القوم ...

وكما أن سادة الكرملين لا يعصمهم زاجر أدبى أو كابح إنسانى عن استعمال العنف والقسوة فى الأمور الداخلية للمحافظة على سلطتهم ، فهم كذلك لا يتأثمون من إثارة الحرب وإيقاظ الفتنة لنجاح سياستهم فى

الخارج ؛ وقد اتفقت فى ذلك آراء لينين وستالين وماوتسى تنج ؛ فلينين يقول : « كل إنسان يوافق على أن الجيش الذى لا يتدرب على استعمال الأسلحة جميعها ، وكل وسائل الحرب وأساليبها التى يعرفها العدو أو يمكن أن يمارسها ، يتصرف تصرفاً غير حكيم ، بل يسلك سلوكاً إجرامياً ؛ وهذا يصدق فى السياسة أكثر مما يصدق فى الحرب ، بل إنه من الصعوبة بمكان فى السياسة أن يتكهن الإنسان ليعرف أى أساليب الحرب ستكون قابلة للأخذ بها فى ظروف خاصة مستقبلة ؛ فإذا لم نتقن كل وسائل الحرب فسنصاب بهزائم خطيرة ، بل قد تكون هزائم فاصلة قاضية ؛ وإذا أجدنا استعمال كل وسائل الحرب فلا بد من أن يعقد لنا لواء النصر ! »

وفى مكان آخر يقول لينين : « نحن لا نعيش فى حكومة واحدة ، وإنما نعيش وإلى جانبنا حكومات عدة ، ووجود الجمهورية السوفيتية جنباً إلى جنب مع الحكومات الاستعمارية زمناً طويلاً ، أمر غير معقول ؛ ولا بد من أن تتغلب إحدى القوتين على الأخرى ، وإلى أن تحين هذه النهاية ستقع سلسلة من المصادمات العنيفة البالغة النُّكر والفظاعة بين الجمهورية السوفيتية والحكومات البورجوازية ، ولا سبيل لتجنب ذلك ! »

وقد استشهد ستالين بهذه النصوص ، وبعد أن ذكرها علق عليها بقوله : « لا بد أن يري الإنسان أن هذا من الوضوح بمكان ! »

وقد عبر ستالين عن آرائه فى هذا الموضوع ضمن رسالة بعث بها إلى الكاتب الروسى مكسيم جوركى فى ١٧ يناير سنة ١٩٣٠ قال فيها : « الواقع إننا لسنا من المعارضين للحرب فى جميع صورها ، وإنما نحن

نعادى الحرب الاستعمارية ؛ لأنها حرب ضد الثورة ؛ ونحن نؤيد الحرب الثورية المعارضة للاستعمار المدافعة عن الحرية ، مع صرف النظر عن حقيقة أن هذه الحرب ليست بريئة من الدماء، بل هى غارقة فى الدماء ! »

أى أن ستالين كان يعارض فى الحرب التى تنطوى على تهديد للاتحاد السوفيتى ، ويرحب بالحرب التى تنشب لتمد نفوذ الاتحاد السوفيتى وتزيده قوة !

وماوتسى تنج يقول فى محاضراته الهامة عن مشكلات الاستراتيجية فى حرب الصين الثورية : « الصورة الرئيسية للصراع فى الصين ، هى الحرب ؛ والشكل الرئيسى للنظام ، هو الجيش ؛ وبدون معركة مسلحة لن يكون نصر ! » .

ويقول فى موضع آخر : « الثورة ، أو الحرب الثورية ، دائماً تتخذ خطة الهجوم ؛ وحرب شيوعية تستمر عشر سنوات ، قد تثير دهشة بلاد أخرى ، ولكنها عندنا هى المقدمة ! » .

ولكن أين تكون الضربة الرئيسية فى المرحلة الحاضرة من وجهة نظر موسكو وبيكنج ؟

الجواب عن ذلك يتوقف على الجواب عن سؤال آخر ، هو : ما الغرض الرئيسى للشيوعية ؟

والجواب عن هذا السؤال واضح ، وهو أن هدف الشيوعية المنشود هو الثورة الشيوعية العالمية ، أو جعل الشيوعية تسيطر على الدنيا بحذافيرها ؛ ولكن ليس هذا كل ما فى الموضوع ؛ فإنه لا يرضى موسكو ، ولا يرضى بيكنج ، أن تقوم فى الولايات المتحدة أو فى إنجلترا ، أو فى ألمانيا ، أو .

فى اليابان — وهى المراكز الصناعية الخارجة عن نطاق الشيوعية — أى ثورة شيوعية غير خاضعة لحكومة السوفيت ؛ لأن معنى هذا أن الشيوعية فى تلك البلاد ستسير على نهج مستقل عن شيوعية موسكو فلا تأتمر بأمرها ولا تخضع لتوجيهاتها ؛ وسادة موسكو وبيكنج يبحثون عن السيطرة الشاملة ولا يكفيهم الخيال دون الحقيقة ، والشيوعيون الروسيون يريدون عالماً شيوعياً يدور حول موسكو ويخضع لحكومة الاتحاد السوفيتى ؛ وربما كان الصينيون الشيوعيون ينظرون إلى الأمر من زاوية أخرى ؛ ولكن الصين متأخرة من الناحية الصناعية والفنية ، فليس فى استطاعتها التطلع إلى قيادة الحركة الشيوعية ، أى السيطرة بنظامها على العالم . . .

وما دمنا قد عرفنا هدف الشيوعية الأصيل وغايتها القصوى ، وهى السيادة العالمية ، فمن السهل أن نعرف أين تحاول حكومة السوفيت أن توجه ضربتها القاصمة وطعنتها القاضية ؛ فتحقيق هدف الشيوعية يستلزم قبل كل شىء القضاء على قوة الولايات المتحدة ، لأنها أكبر عقبة فى طريق الشيوعية ، ولأنها الحصن المنيع الذى يعترض تقدمها ؛ ووجود هذا الحصن القوى يشد من عزائم أعداء الشيوعية ويشجعهم على المقاومة والثبات ، فإذا تم انهيار هذا الحصن واندكت دعائمه ، انفتح الطريق أمام الشيوعية ؛ ووجود الولايات المتحدة قوية منيعة يقض مضاجع قادة الشيوعية ويهدد سلامة بناء الاتحاد السوفيتى ؛ لأنه يبعث الأمل فى نفوس الواقعين تحت نير الشيوعية ؛ فلكى يرتاح بال سادة موسكو ويناموا ملء جفونهم ، لا مفر من العمـــل على تحطيم قوة الولايات المتحدة والقضاء عليها !

ولكن كيف يتيسر القضاء على هذا الخصم العنيد والعدو اللدود ؟

إن هذه المشكلة لا تُحل بالهجوم الخاطف المباشر ؛ والحزم والسياسة والتدبر جميعاً تُلزم دهاقنة الكرملين أن يحاولوا أضعاف الولايات المتحدة والفت فى ساعدها بمختلف الوسائل والحيل قبل الإقدام على الهجوم الحربى الذى لا تؤمن عقباه . . .

والموقف العالمى السياسى الاستراتيجى يشمل الآن مساحتين كبيرتين لهما قوة كبيرة ؛ فى ناحية ، الكتلة الأرضية الشيوعية ، وهى تتاخم قرابة اثنتى عشرة دولة ؛ تتفاوت قوتها السياسية والصناعية والحربية ، ولكنها لا تستطيع مقاومة الهجوم الشيوعى منفردة ؛ وفى ناحية أخرى ، الولايات المتحدة ، التى يفصلها محيط شاسع الأرجاء عن القارة التى تقع الشيوعية فى شرقها ، ويفصلها عن شاطئ ذلك المحيط دول غير شيوعية يهم الولايات المتحدة أن تظل محتفظة باستقلالها وغير خاضعة للعالم الشيوعى ...

ووجود هذه الدول فى مصلحة الشيوعية ؛ فالاتحاد السوفيتى وهو كتلة واحدة قوية ، يرى إلى جانبه مجموعة من الدول المستقلة ، لها من مطامعها وآمالها ومنافساتها ومخاوفها ما يحول بينها وبين توحيد سياستها وجمع كلمتها ؛ فتستغل الدعاية الشيوعية هذه الفرصة لتشيع الكثير من الأوهام التى ما تزال حتى اليوم تخدع بعض الناس وتميل بهم إلى الشيوعية . . .

وفى مثل هذا الموقف تتضح الأغراض المباشرة التى ترمى إليها السياسة الشيوعية ؛ فهى تبذل جهدها فى محاولة تفكيك رابطة اتحاد شمال الأطلانطيق ، وإبعاد فرنسا وإنجلترا عن الولايات المتحدة ، ثم السعى

بالوقيعة بين فرنسا وإنجلترا ؛ وتحاول موسكو إلى ذلك أن تضم إلى مناطق نفوذها ، ألمانيا والشرق الأوسط وجنوب آسيا واليابان ، وأن تستولى على ما فى هذه البلاد من مواد خام وقدرة صناعية وأيد عاملة ؛ وقد رسم زعماء الكرملين خطوط هذه السياسة منذ زمن ، وهم يسيرون عليها فى دقة وعناية...

ولكن موسكو إذا استطاعت أن تحقق هذه الأهداف الاستراتيجية فى آسيا وأوروبا ، فإن الهدف الرئيسى سيظل غير محقق ؛ لأن الولايات المتحدة لا تزال قائمة ولم تتحطم قوتها بعد ، ولكن فقدها لحلفائها وأصدقائها سيصيبها بخسارة جسيمة ولاشك ، وسيكون ضربة شديدة ذات أثر بليغ فى كيانها ؛ وسيكون فى استيلاء الشيوعيين على موارد المواد الخام فى آسيا وأوروبا ما يضعف قدرة الولايات المتحدة على الدفاع والثبات ، ولا يمكن أن يتكهن إنسان بنجاح هذا الدفاع ؛ ولكن الشىء المؤكد أن الشيوعية برغم ذلك لن تجد الطريق إلى الولايات المتحدة ممهداً أو تجدها لقمة سائغة ، بل لعلها أن تكون فى هذه الحالة أشد خطراً على المعتدى ، لأن أهلها لن يجدوا لهم مخرجاً من الموقف العصيب الذى انتهوا إليه ، إلا بضم صفوفهم وتقوية وحدتهم واستثارة حماسة الشعب واستنهاض عزيمته ؛ ولا بد أن يدفعهم خطر معركة البقاء أو الموت إلى بذل أقصى ما فى وسعهم ؛ وإذا استعملت الأسلحة المألوفة فى مثل هذه المعركة فقد ترجح كفة الولايات المتحدة ، لأنه ليس من الهين فى هذه الحالة أن يشتبك سكان الاتحاد السوفيتى الناقمين الساخطين فى حرب شعواء وراء البحار تعرضهم لتقلبات الحظ غير المأمونة .

ولكننا حينما ننظر إلى الموقف فى حالة استخدام الأسلحة الذرية ، نرى الصورة قد تغيرت تغيراً جوهرياً . . .

لقد عاشت أوروبا الغربية خلال السنوات الأخيرة فى ظل حماية القنبلة الذرية الأمريكية ، ولا يزال الرد باستعمال القنبلة الذرية هو الذى يمنع الشيوعيين من المضى فى خطتهم وتحقيق أهدافهم فى ألمانيا واليابان ! ولكن هذا الموقف لن يطول أمده ، لأنه قائم على امتلاك عدد من القنابل الذرية من ناحية واحدة ، هى ناحية الولايات المتحدة ؛ ولكن حكومة السوفيت قد عرفت سر القنبلة الذرية ، وهى تقوم الآن بصنع القنابل الذرية وتجرى تجاربها ؛ ومتى قوى سلاح الطيران السوفيتى وتكاثر عدد القنابل الذرية عنده فقد أصبح فى حوزة حكومة موسكو الوسائل الفنية التى تمنع تدخل الولايات المتحدة لإيقاف التقدم الشيوعى فى أى مكان فى الكرة الأرضية ، بل أصبح فى استطاعة حكومة موسكو أن تهاجم الولايات المتحدة وتحطم قواها فى عقر دارها . . .

وهذا الاحتمال يحتاج إلى البحث والتفكير ، فكثيراً ما يقال إن خوف موسكو من رد الولايات المتحدة بهجوم ذرى لا بد أن يمنع حكومة موسكو من القيام بالضربة الأولى ؛ ولكن هذا الجواب على ما يبدو فيه نظر ، والذى سيحاوله سلاح الطيران الأمريكى هو أن يمنع الهجوم الذرى على الولايات المتحدة ، بأن يغامر هو بالقيام به فى أول المعركة ؛ ولكن الجاسوسية السوفيتية بارعة كما هو معروف ، والراجح أن الكرملين على علم بمواقع محطات الرادار وقواعد القنبلة الذرية ومراكز الصناعة الأمريكية ؛

ومعظمها فى مدن يتراوح عدد سكانها بين مليون ونصف مليون نسمة ؛ والقنابل الذرية الحديثة تبلغ قوة انفجارها نحو عشرة أضعاف القنبلة الذرية التى ألقيت على ناجازاكى وهيروشيما فى سنة ١٩٤٥ ، أو على الأقل ثلاثة أضعافها إذا حسبنا حساب الطوارئ الجوية ؛ وستوجه الضربة الأولى إلى محطات الرادار التى يراد أن تكشف تسرب الغزاة إلى سماء الولايات المتحدة ؛ ويتلو ذلك هجمات جوية واسعة النطاق لتحطيم المطارات ، ويأتى بعد ذلك دور الهجوم على المراكز الصناعية . . .

واحتمال ابتداء موسكو بالحرب الثالثة من الموضوعات الغامضة الشائكة التى تختلف فيها الآراء وتتعارض وجهات النظر ؛ والكثيرون من ذوى الرأى فى الغرب يرون أن خطر الحرب الرئيسى مصدره تخوف السوفيت من الولايات المتحدة ، وأن هذا الخوف هو السبب الرئيسى لتسلح السوفيت ، وحكومة موسكو تدخل فى روع أهالى الاتحاد السوفيتى أن الولايات المتحدة تنطوى لهم على الكراهة وتضمر الغدر والعدوان ؛ والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى كلاهما يتنصل من تهمة محاولة البدء بالاعتداء وإثارة الحرب ؛ ومن المسائل الملحوظة أن الشيوعيين يكثرون من الكلام عن السلام ويمضون مع ذلك فى التسليح والاستعداد للحرب ، ويحاولون إثارة الخواطر وإحداث الاضطرابات البارعة وإثارة كوامن الإحقاد والخلافات ، والتحايل بالتفسيرات التاريخية والنزعات العملية ؛ وهذا التكثر من السلاح والاستعداد ليس دليل النيات الحسنة وإيثار السلام ؛ وبخاصة إذا أضيفت إلى ذلك الدعاية الواسعة والاستمالة بالترغيب والإرهاب . . .

وعلى الذين يحرصون على خلاص بلادهم من الشيوعيين أن يتبينوا الحقائق الكامنة وراء الدعاية الشيوعية ؛ والدوافع التى تحرك السياسة السوفيتية ليست هى الخوف وحده كما يحاول أن يزعم الذين يصورون الشيوعية فى صور لامعة براقة ؛ والاستعدادات الهائلة التى تقوم بها الحكومة السوفيتية ، ومواردها الواسعة الغزيرة ، وبرنامجها الضخم ، وما تبذله من جهد عظيم فى التسلح وإجراء التجارب الذرية — كل ذلك يدل على أن الشيوعية تستعد للحرب وتتأهب لتضرب ضربتها حينما تحين لها الفرصة المناسبة !

ويرى بعض المفكرين السياسيين أن التذمر المكظوم فى الدول التى تدور فى فلك الشيوعية ، والكبت الشديد الذى يعانيه الشعب تحت ضغط الحكومة السوفيتية ، والحنين إلى الحرية المسلوبة — قد يحدث ذلك كله شيئاً من التوتر فى العالم الشيوعى ، يجعل الشيوعيين يحجمون عن الإقدام على خوض حرب عالمية جديدة ؛ يضاف إلى ذلك الصراع الداخلى بين زعماء الشيوعية على النفوذ والسيطرة . . .

ويرد على ذلك بأن الدول الدائرة فى فلك الشيوعية قد تكره روسيا وتضيق بها ، ولكنها محوطة بحلقة من الجواسيس المهرة المدربين لا تمكنها من عمل شىء ؛ والشيوعيون من أعرف الناس بأساليب التآمر والتنظيم السرى ، وتجاربهم المتوالية الكثيرة فى هذا الصدد تمنع نجاح مثل هذه الحركات ولا تمكن أحداً من أن يفاجئهم على غرة ؛ على أن موقف الدول التابعة للاتحاد السوفيتى قد يبعث على الريبة ويكون مصدر خطر إذا طال أمد

الحرب ، ولكن سادة الكرملين يفكرون على الأغلب فى حرب سريعة خاطفة . . .

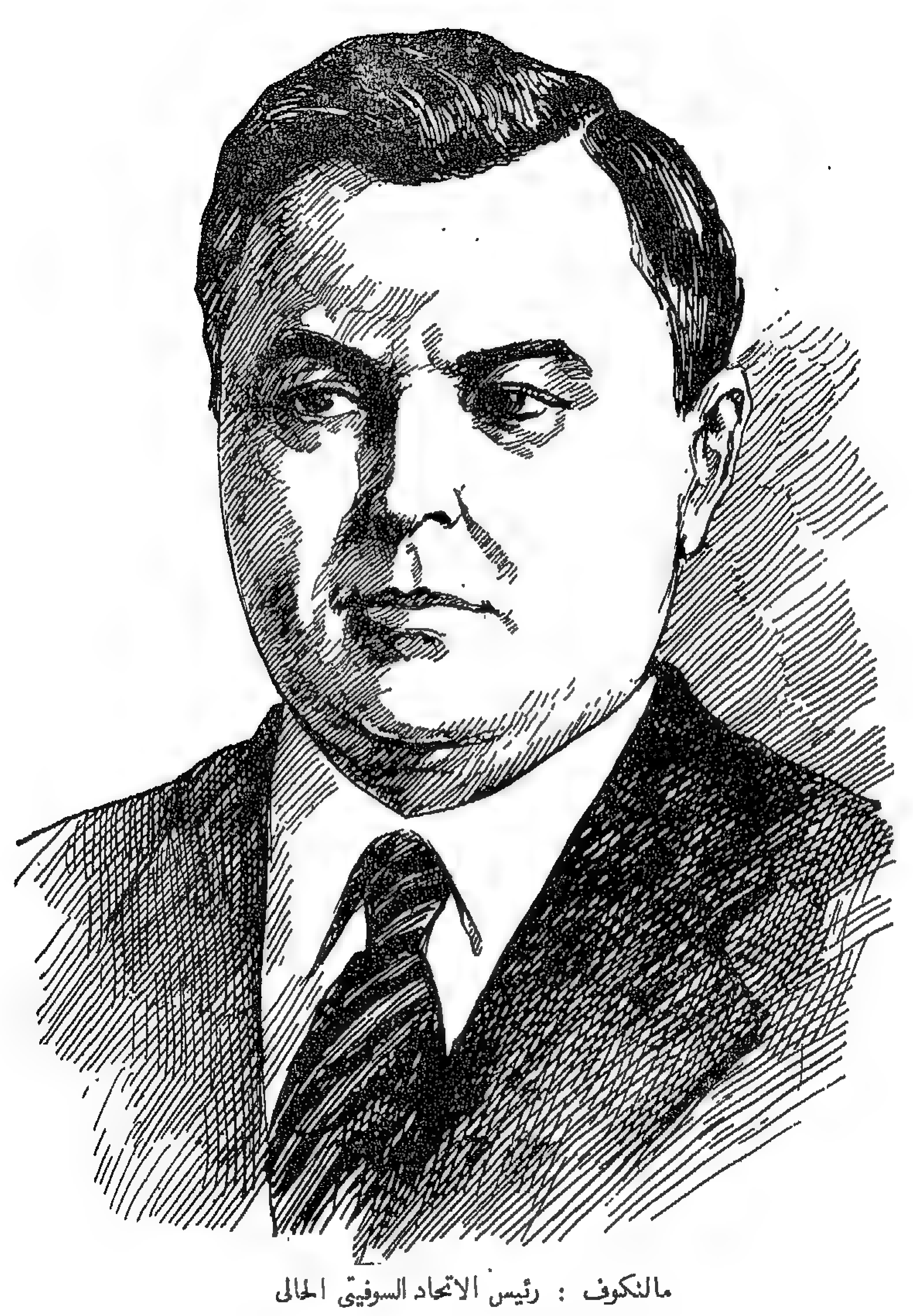
والنزاع على السيطرة فى داخل الحزب الشيوعى بين سادة الكرملين ليس فيه ضمان لمنع الحرب ، فإن الديكتاتورية هى الحكم السائد فى روسيا ، وسيتوقف مصير الأمر على السيد الجديد فى الكرملين ، وعلى أهدافه وأهداف شيعته أتباع سياسة لينين وستالين ؛ وهذا الرئيس بطبيعة الحال لا بد أن يكون من الدارسين لنظريات كارل ماركس ولينين وستالين والمتشبعين بها ؛ فمن المرجح أن تكون أهدافه هى أهدافهم نفسها ، أى الثورة العالمية الشيوعية ، وإدخال العالم جميعه فى دائرة الشيوعية .

والشيوعية تعد الناس بالرخاء المادى وخلق عالم خير من العالم الراهن ؛ وهو وعد كاذب ؛ ولكنه مغر وخلاب وخادع ؛ ولهذا الوعد الكاذب تأثير ساحر فى نفوس المحرومين والناقمين ، وقد يكون له سحره كذلك فى الأمم التى ذاقت مرارة الاستعمار الأوروبى ؛ وبعض الدول فى الشرق والغرب بينها من الإحن والخلافات ما يعوق دون تحالفها لدفع غارة الشيوعية ، وإذا لم تنس هذه الدول منافساتها الضئيلة وخلافاتها اليسيرة فسيكون موقفها إزاء الهجوم الشيوعى مثل موقف الدول الإسلامية حين بدأ جنكيز خان هجماته الصاعقة على العالم الإسلامى ؛ فلو تحالفت الدول الإسلامية يومذاك على دفع خطره ورد غارته لاستطاعت صد التيار الجارف ودفع البلاء ، ولكنها كانت دولاً متنابذة متنافرة ، ولذلك تمكن جنكيز خان من أن يلتهمها واحدة بعد واحدة ، ويذيقها الذل والهون ؛ ولعل سادة

الكرملين يأملون أن يحرزوا انتصارات باهرة مثل انتصارات جنكيز خان، يعتمدون فيها أكثر ما يعتمدون على اختلاف أعدائهم !

وقد طرأ على الكرملين تغير خفى دقيق منذ وفاة ستالين، فقد كان ستالين الشخصية المنتصرة الغلابة البارزة فى عالم الفكر الشيوعى قرابة ثلاثين سنة؛ ومن سجايا ستالين صفتان بارزتان، هما الصبر الذى كاد يفوق طاقة البشر، والذى مكنه من أن ينتظر حتى تسنح الظروف التى كان يترقبها؛ وذاكرته القوية الواعية، وخلفاؤه وعلى رأسهم مالنكوف، تختلف ظروفهم عن ظروف ستالين، فهم لم يخلقو مثله ثورة من لا شىء، ولم يعانوا النفى، وهم ينتظرون الفرصة الملائمة لانتزاع السلطة؛ وكان جو نشأتهم الباكرة يختلف كل الاختلاف، وربما يكونون قد اشتركوا فى الحرب الروسية الداخلية؛ ولكنهم حاربوا من الداخل فى صف حزب قد قوى ركنه واستحصد عزمه، وحاربوا لينتصر الحزب وتعلو كلمته ويرتفع نفوذهم بارتفاعه فيملكوا زمام الأمور ؛ فأخلاقهم وأمزجتهم وطباعهم تختلف عن أخلاق ستالين ومزاجه وطبائعه وحيله؛ فهم أقل صبراً، وأعظم ثقة بنفوسهم، وأكثر توثباً وأظهر ميلاً إلى المخاطرات والمغامرات؛ وهم لا يريدون أن يروا انتصار الشيوعية واستقرارها فحسب، بل يودون أن يتم هذا الانتصار الشامل فى حياتهم !

ويضاف إلى هذا العامل الشخصى عامل آخر أدبى أخلاقى، وقد كتب ستالين مرة يقول: «المشكلة الجوهرية فى مذهب لينين، هى مشكلة القوة» ومن أعمق مظاهر القوة فى الشخصية الإنسانية الرغبة



مالنكوف : رئيس الاتحاد السوفيتى الحالى

فى أن يؤكد الإنسان وجود نفسه ويفرض سلطانه ويعتز بقدرته ؛ وفى مختلف العصور كان هدف الأخلاق والآداب الأكبر ، الحد من طغيان هذه النزعة بخلق الزواجر الأدبية والكوابح الأخلاقية والموانع والنواهى المعروفة فى الأديان ومذاهب الأخلاق ؛ وقد كانت جميعها تعمل لتقليم أظفار هذه النزعات الطاغية الغلابة فى تأكيد النفس والمغالاة بها ؛ ولكن الشيوعية المركسية تعصف بكل الموازين الأخلاقية ولا تعترف بمعيار أدبى سوى معيار النجاح ؛ والسادة الكبار من رجالات الحزب الشيوعى الذين يتولون تفسير غوامض الماركسية وشرح مراميها ، لا يعترفون بوجود كوابح تحد من الرغبة فى تأكيد الذات ، غير كابح القوة !

ومن أصعب مشكلات السياسة ، أن دارسى السياسة فى العادة رجال عقل وفكر ، فى حين أن الساسة الناجحين وأعيان الدولة رجال عمل وإرادة ؛ وكلا هذين الطرازين من الناس يدخل عالم الطراز الآخر بصعوبة ، ويبذل جهداً كبيراً من قوه التخيل . وحساسية رجال الفكر والعقل العادية ، ومراعاتهم لمشاعر الغير ، ومواهبهم الأخلاقية العالية ، تجعل من الصعب عليهم أن يفهموا طرازاً آخر من الرجال أسمى ما فيهم من الخير والنبل هو الحرص الشديد على فرض شخصيتهم وإملاء إرادتهم ؛ وحينما يرى رجال الفكر والعقل مشكلات ليس لها حلول بغير استعمال القوة والعنف ، يحجمون ويترددون ويقفون حائرين ؛ ولكن رجال العمل والإرادة لا ينكصون ولا يتراجعون ، وإذا لم يستطيعوا اللف والدوران شقوا الطريق واقتحموا العقبات ؛ ورجال الإرادة والعمل فى أكثر الأحيان

ليسوا على أتم استعداد لحل « عقدة جورجياس » بحد السيف كما فعل الإسكندر المقدونى فى الأسطورة المعروفة ، بل هم مستعدون أن يصنعوا صنيع شمشون الجبار ، فيهدّوا المعبد الذى يلوذون به بدلاً من احتمال ذلة الخضوع وألم التراجع وانثناء العزم فى عالم لا يستطيعون صوغه على النمط الذى يريدونه !

وهذه الأسباب مجتمعة تبين لنا غلبة الميل إلى القوة ونزعة حب السيطرة فى التفكير الشيوعى ؛ وإذا كان هذا التفكير صحيحاً فإن معنى ذلك أن الشيوعية متجهة إلى الحرب ؛ ولكن ليس معنى هذا أن الحرب الكبرى لا يمكن تجنبها ، ومهما يبلغ التحليل الوافى لأمثال هذا الموقف من الدقة والتحرى ، فإنه لن يستطيع أن يلم بكل محتملات الحوادث وخفايا الطوارئ ، والمنطق البشرى أعجز من أن يستطيع الحسم فى أمثال هذه الأمور ، وحوادث الحياة وتصاريف القدر ليست كالفروض الهندسية والمعاولات الرياضية ، وغاية ما يمكن أن يقال فى هذا الصدد إن السياسة التى تسير عليها الشيوعية تجعل الحرب محتملة الوقوع ، والشيوعيون لا يتجنبونها إلا إذا خافوا عواقب الهزيمة والخذلان .

وتلقاء هذه الاعتبارات لا مناص للعالم الذى لا يريد أن يقع فريسة للشيوعية من أن يستعين بالقوة المسلحة ، والاستعداد الكامل ، وتوحيد الرأى والجهود للوقوف فى وجه الشيوعية ؛ وهذا الموقف على الأرجح يكف عادية الشيوعية وينذرها بالأخطار التى تهددها إذا حاولت استعباد العالم وإرغامه على قبول مبادئها بالقوة والعنف . . .

هدف السياسة السوفيتية

هدف الشيوعية النهائى الأكبر هو غزو العالم ، وقد أشرنا إلى بعض ذلك فيما تقدم ، والسياسة السوفيتية تعمل على تحقيق ذلك ، وما نذكره ليس شيئاً جديداً ، ولا شيئاً عجيباً ، ولسنا نكشف عن سر خفى أو نستبق الحوادث ؛ ولا يجهل هذا السر المكشوف سوى المفتونين بالشيوعية الذين أضلتهم الأهواء وغطت على بصائرهم الدعايات .

وغرض الشيوعية واضح لا خفاء به ولا غموض حوله ، ولم يكشف الشيوعيون عن هذا الغرض عند تأليف الحزب البلشفى فى سنة ١٩٠٣ فحسب ، بل تحدثوا عنه قبل ذلك ، منذ ظهور بيان ماركس وإنجلز المشهور فى تاريخ الشيوعية ، وقد قال ماركس لأتباعه « أمامكم العالم وعليكم أن تكسبوه » !

وستالين يقول فى كتاب له : « هنا أصعب مشكل تواجهه الثورة الشيوعية ، وهو مشكلها التاريخى العالمى ، وهذا المشكل هو الحاجة إلى حل المشكلات الدولية والحاجة إلى إثارة الثورة العالمية » .

ويفخر برنامج « الدولى » فى مقدمته بأنه القوة الوحيدة الدولية التى جعلت فى برنامجها ديكتاتورية العمال والشيوعية ، وأنه الوحيد الذى يظهر علناً بوصفه منظم ثورة العمال الدولية » ويعلن فى ثقة واقتناع « أن الرأسمالية لا تستطيع دفع الهلاك المحتوم » .

والجزء الثالث من برنامج الدولى عنوان « الغرض النهائى للدولى الشيوعى هو الشيوعية العالمية » .

والتاريخ الرسمى للحزب الشيوعى الذى يفرض على الشيوعيين فى كل مكان قراءته ، يعلن « أن دراسة تاريخ الحزب الشيوعى يقوّى اليقين من الانتصار النهائى للعمل العظيم الذى يقوم به حزب لينين وستالين ، وهو انتصار الشيوعية فى العالم بأسره » .

وفى كل البيئات من كل العصور ، قد يوجد أفراد يؤمنون بأن فى استطاعتهم أن يغزوا العالم ويمدوا فوقه رواق سلطانهم ويخضعون لمشيئتهم ، ومكان مثل هؤلاء الأفراد فى مستشفيات المجاذيب . . .

وبعض الجماعات يتملكها مثل هذا التهوس فتغالط نفسها فى الحقائق وتحسب أن امتلاك العالم شىء ميسور متى سلمت العقيدة وصحت العزيمة وصدقت النية ؛ ولكن مثل هؤلاء الأفراد أو تلك الجماعات لا تؤخذ مأخذ الجد ، ويعلل العلماء النفسيون أمثال هذه الحالات بأنها نوع من أنواع الوهم الذى يستولى على النفوس ، وأنها علامة من علامات انقطاع الصلة بين العقل السقيم وبيئته الاجتماعية ؛ وفى أغلب الأحيان يكون هذا الغرض الضخم انعكاساً لحاجة نفسية خفية تعتمل فى نفوس أفراد الجماعة ، والعالم يهمل أمثال هذه الخزعبلات ولا يفكر فى أهداف أمثال هؤلاء الأفراد أو الجماعات . . .

ولكن حينما نجد أن هدف غزو العالم قد اقترن بالوسائل التى قد تمكن من تحقيقه ، وصحبته أعمال وخطط وتدبيرات ، فما لا شك فيه أن

الأمر حينئذ يكون جديراً بالتروى وإجالة الفكر ، وقد كان هذا حال النازية والفاشية ؛ ومما لا شك فيه أن النظرية الشيوعية ترمى إلى غزو العالم ، والشيوعيون فى كل مكان يعملون على تحقيق هذا الهدف ، والوسائل التى يملكونها فى العصر الحاضر تجعل تحقيق ذلك من المحتملات ، فعندهم العدد والعسكر والموارد المادية الضخمة والعتاد الحربى الهائل ، ولهم وسائل الدعاية المنظمة وأقلام المخابرات وجيش عرمرم من الشرطة السرية يوافيهم بخفى الأسرار ويجمع لهم الأخبار من كل فج .

ومع وضوح هذه الحقيقة السافرة فإن أكثر المواطنين والقادة والزعماء فى الأمم الديمقراطية لا يصدقون ذلك ، لأنهم لا يريدون أن يصدقوه ؛ والظاهر أن تصديقه يسبب لهم أحلاماً مزعجة ويثير فى نفوسهم خواطر سوداء ، وهم يودون الراحة والسلام ويضيقون بالأحلام المزعجة وينفرون من الخواطر السود !

والملحوظ فى الوقت الحاضر من بعض الوجوه أن المجتمع الحديث قد أصبح ناضجاً لظهور إمبراطورية عالمية ، والماركسيون يفسرون الأحوال العالمية الجديدة فى ضوء فلسفتهم وفهمهم للدنيا ، فتقدم المواصلات ووسائل النقل السريع وتزايد العلاقات التجارية والثقافية والاجتماعية بين الأمم المختلفة وتأثيرها بعضها على بعض ، وترابط الصناعات العالمية وعدم ملاءمة الحواجز الحكومية والحدود السياسية بين الأمم لهذه الأحوال الجديدة ، وظهور عيوب التطرف فى القومية وعدم إمكان الاكتفاء الذاتى والإعراض عن الأحوال العالمية ، سواء من ناحية الأفراد

أو الجماعات أو الأمم ، كل هذه الأسباب مجتمعة جعلت الشيوعيون يذهبون إلى أن الظروف قد أصبحت مواتية لتكوين إمبراطورية عالمية ؛ ولما كانت الأحوال المادية هي التي تحدد نهاية النظم السياسية ، فإن الشيوعيين يرون أن مجيء الإمبراطورية أو الحكومة العالمية أمر لا شك فيه ، فإذا لم يستغلوا هم هذه الأحوال الملائمة لظهور الدولة العالمية فإن غيرهم سيسعى لها ويظفر بها . . .

وهناك باعث آخر يحدو الشيوعيين على التمدد العالمي وبسط السلطان العام ، وهذا السبب من طراز مألوف في التاريخ ، وهو إخفاق نظام الشيوعية الاقتصادي والاجتماعي في داخل حدود روسيا السوفييتية ، وسنعرض لمظاهر هذا الإخفاق في فصل آخر . . .

فالقصص التي تروى عن نجاح الصناعة في البلاد الشيوعية وعن حل الشيوعيين للمشكلة الاقتصادية ، هي أساطير لا حقيقة لها ؛ والواقع أن الكثرة من سكان روسيا يعيشون تحت نير الحكم السوفييتي في مستوى أقل من المستوى الذي كانوا يعيشون فيه أيام القياصرة ، وأن هذا المستوى قد انحط أثناء مشروع السنوات الخمس ، فالجوع والبرد والفقر والخوف والعبودية هي نتاج ربع قرن من انتصارات الشيوعية المزعومة ، والصناعة الشيوعية تتسم بالعجز وعدم الكفاية ، وليست من النوع الجيد ؛ وجمهرة الشعب الخائف المرعوب تمقت السادة زعماء الشيوعية ، وتكرههم كراهة خرساء ، وتخشى بأسهم وسطوتهم ، وفي مثل هذه الأحوال يكون تحويل الأنظار والأفكار إلى ما وراء الحدود شيئاً ذا قيمة ؛ لأنه يدفع

غضب الناس على قادة الشيوعية ويصرفه إلى اتجاه آخر ؛ والانتصارات فى الخارج تنسى الهزائم فى الداخل !

وانتهاب الأسلاب من الدول التى يتغلب عليها الشيوعيون ويتملكونها معناه زيادة بضائع وسلع مؤقتة للاستهلاك ، وحينما تقدم الشيوعيون فى أمم البلطيق نهبوا بطريقة منظمة المخازن والأهراء والمستودعات والمنازل .

والبلاد التى تضم إليهم تمدهم كذلك بعدد وافر من الأيدي العاملة التى يحتاجون إليها فى روسيا بسبب انحطاط الصناعة ، ويكسب الشيوعيون كذلك مصانع ومناجم وآلات وسككاً حديدية .

وحتى لو لم يكن غرضهم الأصلى السيادة العالمية والاستيلاء على الدنيا ، لكان هذا الهدف من وجهة النظر السوفيتية لازماً باعتباره من الإجراءات الدفاعية ؛ لأن الشيوعيين يعتقدون أنه لا يوجد فى المجتمع الحاضر سوى سبيلين ، هما الشيوعية والرأسمالية ، ومنذ أصبح الشيوعيون قوة عالمية خطيرة بعد أن انضم إليهم جزء كبير من الأرض وعدد ضخم من السكان ، واجهتهم مشكلة محيرة ، هى أن الرأسمالية إما أن تحطم العالم الشيوعى الجديد ، وإما أن تحطمها الشيوعية لتسيطر على ما بقى من بلاد العالم !

والعالم الرأسمالى فى نظر الشيوعيين — وهم يدخلون فيه كل ما ليس شيوعياً — يعانى فى العصر الحاضر سكرات الموت وآلام الاحتضار ، وهو بما فيه من متناقضات داخلية مسوق إلى سياسة استغلال العالم والإمعان فيها ، وهو فوق كل شيء يريد أن يجدد قواه باستغلال مساحات الاتحاد السوفيتى وسكانه الذين تحميهم دكتاتورية العمال ؛ ويعتقد

الشيوعيون أن لا علاقة لهذا الهدف بالآراء الشخصية ورغبات الرأسماليين أنفسهم أو زعمائهم السياسيين ، فهو يصدر بضرورة الحال من طبيعة الرأسمالية فى دورها النهائى وإبان انهيارها ، فهو شيء لا مفر منه ، كما أن الحرب شيء لابد منه فى ظلال النظام الرأسمالى ، والمعنى الحقيقى لكل حرب فى هذا العصر فى رأي الشيوعيين هو الهجوم على معقل الاتحاد السوفيتى فى روسيا ، وهو ملاذ الشيوعية ومستقرها . . .

وقد لخص ذلك ستالين فى كتاب مشكلات اللينينية فقال « الحقيقة الأساسية هى أنه لا يوجد نظام رأسمالى شامل ، والآن وقد ظهرت فى الوجود دولة شيوعية ، فإن الرأسمالية العالمية الواسعة قد امتنع وجودها ، وقد انقسم العالم إلى معسكرين معسكر أنصار الاستعمار ، والمعسكر المقاوم للاستعمار ؛ ونحن لا نعيش فى حكومة واحدة ، بل فى نظام حكومات ؛ ومن غير المعقول أن تستمر جمهورية الاتحاد السوفيتى فى الوجود إلى جانب الحكومات الاستعمارية ، ولابد أن تتغلب فى النهاية إحدى هذه الحكومات ؛ وخلال هذا التطور لابد من وقوع مصادمات فظيعة بين جمهورية السوفييت والدول البورجوازية ! »

وقد عاد ستالين إلى تأكيد ذلك فى حديث انتخابه فى ١٠ فبراير سنة ١٩٤٦ ، فقال : « ليس صحيحاً أن الحرب نشأت مصادفة أو نتيجة لخطأ بعض الساسة ، وبالرغم من أن هذه الأخطاء موجودة ، فقد نشأت الحرب فى الواقع لأنها نتيجة محتومة لتقدم العالم الاقتصادى وقواه السياسية على أساس الرأسمالية المحتكرة » .

فغزو العالم فى رأى الشيوعيين وسيلة من وسائل الدفاع قبل كل شيء، وكل حرب يخوض الشيوعيون غمارها أيا كان الذى بدأ إطلاق الرصاصة الأولى ، فهى حرب دفاعية ، مثل حرب فنلندة سنة ١٩٣٩ .

والبسطاء الحسنو النية فى طلب مسالمة الشيوعيين يتخيلون أنه من الممكن تغيير هذه المعتقدات إذا أظهر العالم الرأسمالى الصداقة للشيوعية وترفق فى الحديث معها ومنحها ما تريد ، ولكن يغيب عن هؤلاء وأمثالهم أن الذى يطلبه الشيوعيون هو امتلاك العالم ، فما يقدم لهم من قبيل الصداقة والمجاملة هو فى نظر الشيوعيين علامة من علامات البلاهة والغباء ، أو من علامات النفاق ؛ ولا شيء يغير هذا المعتقد ولا حجة تستطيع إزالته ، والاعتقاد المتمكن من الشيوعيين هو إما أن تغزو الاشتراكية العالم وإما أن تندثر وتزول !

وفى داخل حدود هذا الغرض النهائى للسيطرة على العالم يعمل الشيوعيون على الاستعداد والتأهب لمواجهة الحرب العالمية الثالثة ، ومقتضى هذا أن يستغرق هذا الاستعداد كل جهود الشيوعيين ، بما فى ذلك الحركات الشيوعية فى الصين وأمريكا اللاتينية ، وإعادة تنظيم الجيش الأحمر والأسطول ؛ ويمكن تقسيم هذا الاستعداد للحرب العالمية الثالثة إلى قسمين : القسم الأول يشمل محاولة تثبيت أقدام الشيوعيين فى قارة أوراسيا ، والقسم الثانى محاولة إضعاف الأمم والحكومات التى لم تخضع لسلطان الشيوعية .

ولنبدأ بالحديث عن القسم الأول من هذا الاستعداد . . .

ففى أغسطس سنة ١٩٣٩ كان الشيوعيون – وهم ورثة الإمبراطورية الروسية – مستقرين فيما يسمى فى عرف الجغرافيا السياسية « قلب جزيرة العالم » ولأول مرة فى التاريخ كان هذا القلب هو وسط أوراسيا – غاصاً بالسكان ويسوده نظام سياسى محكم وقد نشطت فيه الصناعات وتقدمت إلى حد ما . . .

وفى أغسطس سنة ١٩٤٥ امتد نفوذ الشيوعيين فى الغرب ، من جنوب مدينة ستتن فى شرق ألمانيا ، إلى شواطئ دلماشيا ، وشمل شرقاً شبه جزيرة البلقان ، ما عدا مقدونيا وتراقيا وشبه جزيرة اليونان .

وفى الشرق امتد نفوذ الشيوعيين حتى وصل عن طريق جزائر كيريل إلى الالتفاف حول جناح أمريكا الشمالى ، وتحرك إلى شمال كوريا ومنشوريا والصين الشمالية .

وفى الغرب أخذ الضغط الشيوعى يمتد إلى الجناح الشمالى – وهو إسكنديناوه – وقد ركز معظم قوته فى ألمانيا ، وهى مفتاح سائر أوربا ، واقترن ذلك بمحاولات لتوطيد مكانة الشيوعيين فى فرنسا والدول الأوربية الصغيرة . . .

وفى الشرق الأوسط اشتد ضغط الشيوعيين على بلاد الأفغان والعراق وتركيا ، وامتد حتى فلسطين ، وحاول التغلغل فى مصر وشمال إفريقيا .

ومعظم ضغط الشيوعيين فى الشرق الأقصى موجه إلى الصين ، وقد اتجه جزء من هذا الضغط إلى الهند .

ويقوم الشيوعيون بهذه الحركات جميعها تمهيداً للحرب العالمية

الثالثة وهم يبذلون الجهد فى استكمال التأهب للحرب وتنمية الصناعات الحربية ، ويعملون على إحراز قصب السبق فى ميدان إنتاج القنابل الذرية والقنابل الهيدروجينية ، ولا يألون جهداً فى تقوية الجيش والأسطول وسلاح الطيران ، ويراجعون نظم التعليم والتربية للاستكثار من عدد الجنود المدربين والضباط الأكفاء ؛ واستيلاء الشيوعيين على شرق ألمانيا يضمن لهم سهولة الاستيلاء على القارة الأوربية جميعها ، وأهمية ألمانيا ترجع إلى أيام لينين ، وإلى أيام نابليون من قبله ، حينما ساعد الضباط البروسيون والفرق البروسية على هزيمة نابليون ، وقد أعلن لينين مراراً أن الاستعداد الفنى الألمانى إذا أضيف إلى الكثرة العددية الموفورة عند الشيوعيين وما عندهم من الموارد الطبيعية ، يمكن أن يضمن النصر للثورة الشيوعية العالمية ؛ ولذلك اجتهد الشيوعيون فيما بين سنة ١٩١٨ وسنة ١٩٢٤ فى العمل على إحداث ثورة شيوعية فى ألمانيا ، وظلت علاقتهم بألمانيا حسنة ، وكانوا يستعينون بالفنيين الألمان ، ويستوردون الآلات الألمانية ، ويستعملون الضباط الألمان فى تدريب الجيش الشيوعى ؛ والاتفاق الذى عقد بين هتلر وستالين لم يكن أمراً مستغرباً كما رأى أكثر الناس ، وبرغم هجوم هتلر على روسيا فإن أمل الاستعانة بالألمان لم ينقطع ، وقد شرع الشيوعيون منذ هاجمتهم ألمانيا يبشرون بالمبادئ الشيوعية بين أسرى الحرب من الجنود الألمانية ، وفى خطبة ستالين التى ألقاها يوم ٦ نوفمبر سنة ١٩٤٢ فى موسكو أكد للألمان قائلا « ليس غرضنا تحطيم ألمانيا ، لأن تحطيم ألمانيا غير ممكن ؛ وليس غرضنا القضاء على كل القوة

الحربية فى ألمانيا ، لأن كل من له دراية يعرف أن ذلك غير ممكن ، لا بالقياس إلى ألمانيا ، ولا من حيث ملاءمته لوجهة نظر المستقبل ! » .

وقد بذلت روسيا جهدها فى تحويل أسرى الحرب الروسية الألمان إلى شيوعيين ، استعداداً للمستقبل ، وعلى رأس هؤلاء الأسرى القائد الألمانى فردريك فون باولوس ، وكوّنت لذلك فى يوليو سنة ١٩٤٣ بموسكو « لجنة ألمانيا الحرة القومية » وأسندت رياستها الاسمية إلى القائد الألمانى ولتر فون سدلتز الذى أسر فى ستالينجيراد ، وكان الرئيس الحقيقى لها هو وليام بيك الشيوعى الألمانى والسكرتير السابق للدولى الشيوعى ؛ وقد انضم إلى هذه اللجنة أكثر اللاجئين الألمان والاشتراكيين والأحرار ، وأخذت اللجنة فى تلقين الأسرى الألمان مبادئ الشيوعية .

وفزع الإنجليز والأمريكان من أمر لجنة ألمانيا الحرة ، حتى اضطروا ستالين فى يالتا إلى أن يوقع فقرة تنص على نبذه كل خطة ترمى إلى جعل هذه اللجنة بمثابة حكومة ألمانية جديدة ؛ وقد كان هذا التنازل تنازلا فى المظهر لا فى الحقيقة ، كعادة الشيوعيين . . .

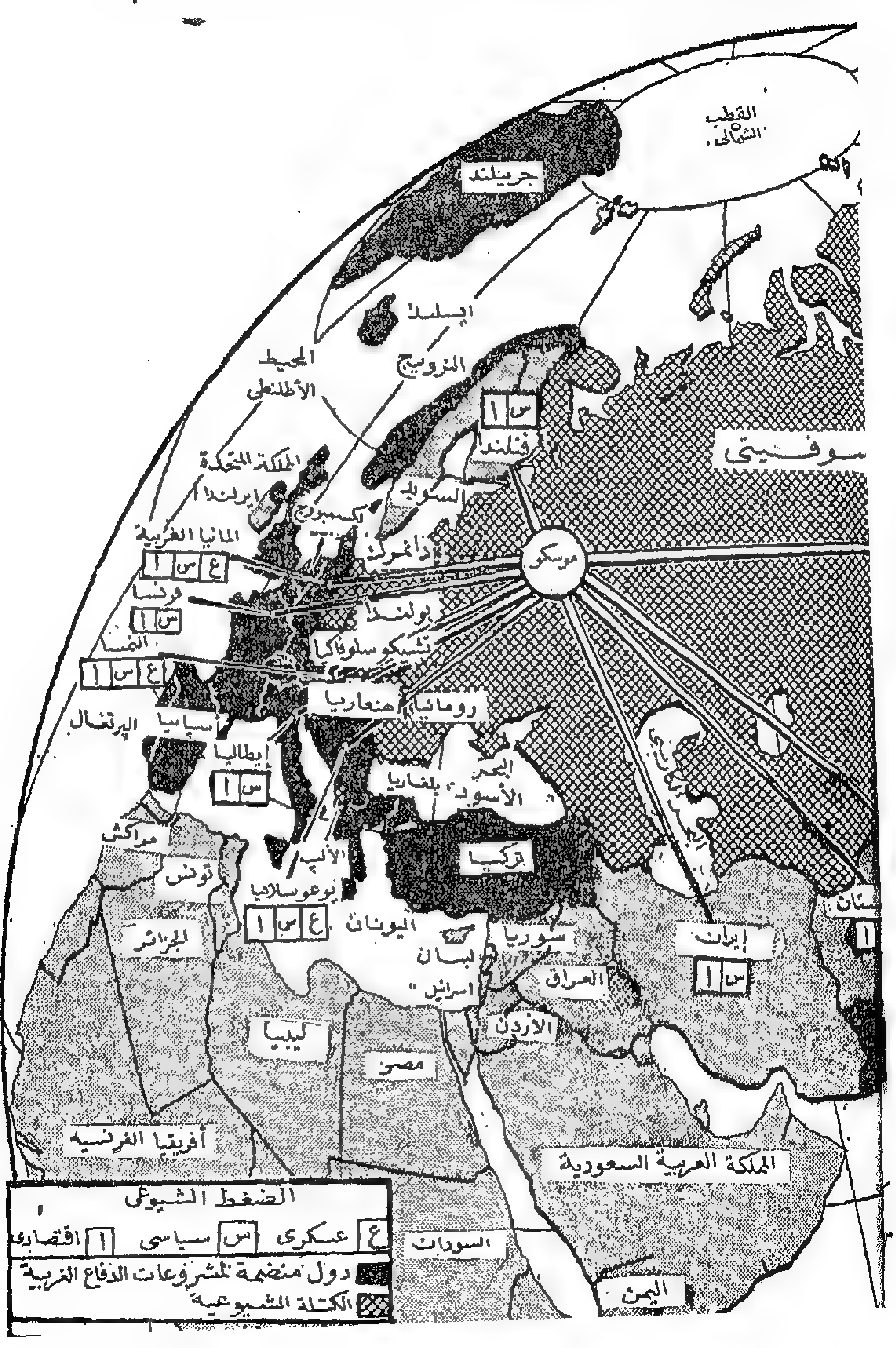
ولجنة ألمانيا الحرة تعبر عن الخطة التى أعدها الشيوعيون لضم ألمانيا إليهم ، والبرنامج الذى وضع لها كان طعماً للألمان ، فقد وعد الألمان فيه بمشاركة السوفيت فى أوراسيا والإمبراطورية العالمية المستقبلة ؛ والواقع أنه كان يرمى إلى إدماج ألمانيا فى جمهورية السوفيت وإخضاعها للشيوعية .

وكان من شروط تسليم الألمان استيلاء الشيوعيين على ألمانيا الشرقية ، والشيوعيون يوجهون أنظارهم من ألمانيا الشرقية إلى ألمانيا الغربية ، وهم

مناطق الضغط الشيوعي

اليابان
شمال كوريا
الاتحـ
منغوليا
بيبنج
جنوب كوريا
أوكيناوا
المحيط
فرموزا
الهادى
الصين
الفلبين
هواى
التبت
كشمير
بوتان
نيبال
بورما
الهند الصينية
تيلاند
بورنيو البريطانية
الهند
شرق باكستان
سرواك
خليج البنغال
الملايو
بورنيو
أندونيسيا
سومطرة
البحر ال
سيلان
JAVA

لسوفيتي والصيني في العالم



يدعون الآن إلى توحيد ألمانيا لاعتقادهم أن ألمانيا الموحدة ستصبح شيوعية . . .

وقد جرى الشيوعيون فى تنظم ألمانيا الشرقية على سياستهم المتبعة فى مناطق نفوذهم ، فحطموا كل قوة إلا قوة الشيوعية ، واستعملوا الإرهاب والتهديد والتعذيب والقتل والنفى والأعمال الشاقة ، كل ذلك بنسب مختلفة ، للقضاء على المعارضة فى الحاضر والمستقبل .

والشيوعيون يحرصون على تأكيد علاقاتهم بفرنسا وإيطاليا والأرجنتين ، وفى فرنسا وإيطاليا ومعظم أمريكا اللاتينية استطاع الشيوعيون السيطرة على أكثر النقابات العمالية ، وهم فى هذه الدول — كما فى الصين — يشتركون فى الحكومات الائتلافية ليستطيعوا الضغط والتأثير فى مجالس الوزراء .

ويعتقد الشيوعيون أن الولايات المتحدة هى المنافس الوحيد الذى يحسبون له حساباً ويخشون خطره وبأسه ، وأنها هى التى ستتصدى لهم فى الحرب العالمية القادمة ! وهم يرجحون أن إنجلترا وباقى حكومات الكومنولث ستقف فى تلك المعركة المنتظرة إلى جانب الولايات المتحدة ، ولذلك يشبه موقفهم من إنجلترا موقفهم من الولايات المتحدة . .

وسياسة الشيوعيين نحو الولايات المتحدة تهدف قبل كل شىء إلى تنحيتها عن التدخل فى خطط الشيوعيين التى يرمون بها إلى تقوية حصن أوراسيا ، بل تهدف إلى جعل الولايات المتحدة تعينهم على تنفيذ هذه الخطط .

ومما تهدف إليه السياسة الشيوعية نحو الولايات المتحدة كذلك ،

إضعاف الروح المعنوية بها ، توطئة للحرب القادمة ، وهم يبثون فيها العيون والأرصاد ، ويحرضون على الثورة والانقلاب ، ويحركون الفتنة والسخط والتذمر والاعتصاب والعصيان ، ويذيعون الأكاذيب والأراجيف والإشاعات الباطلة .

والشيوعيون فى الولايات المتحدة قوة منظمة متماسكة ، وبينهم عدد كبير من الشرطة السريين الشيوعيين ، ولهم فيها منظمات ولجان وهيئات ، وكلها تخدم الأهداف الشيوعية ! وفيها كذلك كثيرون من المخدوعين المفتونين بالمبادئ الشيوعية ، والذين يعطفون على الشيوعيين ويحسنون بهم الظن ويعارضون فى الضغط على حريتهم ، وهم يتبعون فيها نصيحة لينين التى يقول فيها : « خالطوا جميع الطبقات باعتباركم دعاة ، وباعتباركم مثيرى خواطر ، وباعتباركم منظمين ! »

وهم لا يتركون ناحية من نواحى الحياة الاجتماعية دون أن يدسوا فيها أنوفهم ، ويفرضوا عليها أنفسهم ، فينضموا إلى الاتحادات التجارية ويلتحقوا بالنوادى المتباينة والجمعيات المختلفة الألوان وإدارات الصحف والمجلات والشركات ، وهكذا لا يقف نشاطهم عند حد فى التدخل فى كل منحى من مناحى الحياة الأمريكية ، وهم يحاولون إيقاف بيع الكتب التى تقاوم الشيوعية ، أو الأفلام التى تنتقصها وتهاجمها ، ويروجون الكتب والنشرات والمكتبات التى توضح نظرياتها وتشرح تعاليمها وتشيد بمناقبها ! وكل شيوعى يعد بوجه عام عيناً وجاسوساً للحكومة الشيوعية ، يوافيها بالأخبار والأسرار أينما حل وفى أى عمل يباشره ، وقد استطاعوا أن يصلوا

إلى سر القنبلة الذرية عن طريق تدخلهم فى البيئات العلمية ، وهم يملكون أقوى أجهزة للدعاية المنظمة ، وقد تفوقوا فى أساليب الدعاية على سائر الأمم الحديثة والقديمة ، وهم ينفقون مبالغ ضخمة من المال لكسب الكتاب والناشرين والصحفيين إلى صفوفهم ، ويحاولون استمالة الممثلين والمدرسين والوزراء وكبار الموظفين ، وهم يبتغون من وراء ذلك كله التأثير فى الرأى العام الأمريكى وإظهار الشيوعية فى ثوب براق ومظهر أخاذ ، وإبداء محاسنها الباهرة إلى جانب عيوب الديمقراطية الأمريكية ومثالبها ، ليحملوا الحكومة الأمريكية على الكف عن معارضة السياسة الشيوعية ، ويحاولون لذلك أن يدخلوا فى روع الشعب الأمريكى أن حكومته تناصر الحكومات الرجعية فى بلاد اليونان وتركيا وإيران ، لأنها تشجع حكومات هذه البلاد على مقاومة الشيوعية وصد تيارها ! وفى الوقت الذى تبذل فيه الدعاية الشيوعية كل هذه المحاولات ، تتغنى بجنة الاشتراكية الشيوعية التى ينعم فيها الشيوعيون فى روسيا السوفيتية حيث يتقدم الناس — فيما يزعمون — موحدى الأفكار والغايات إلى اقتحام عوالم جديدة وبناء مجتمع تتعادل فيه الأقدار وتتساوى الطبقات أو تزول

وهم يحاولون فى الولايات المتحدة إغراء كل طبقة بالطبقة الأخرى ، فيثيرون العمال على أصحاب رءوس الأموال ، ويوقعون بين أصحاب الأعمال الكبيرة وأصحاب الشركات الصغيرة ، ويحرضون المزارعين على رجال الأعمال ، ويثيرون السود على البيض ، ويغرون المستأجرين بالملاك ، والعمال المتعطلين بالعمال الذين يعملون ؛ وكل صدع فى أركان الحياة

الاجتماعية الأمريكية يمكن أن يرد إلى أعمال الدعاية الشيوعية الهدامة ، ولا نزاع فى أن بعض هذه الصدوع موجودة من قبل فى بناء المجتمع الأمريكى ، فهناك مشكلة السود ، ومشكلة العلاقة بين العمل ورأس المال ، ومشكلة اختلاف العقائد الدينية ؛ وهى مشكلات تشغل بال المصلحين الأمريكيين وتهمهم ، وهم يبذلون الجهد فى علاجها وتسويتها ، ولكن الشيوعيين يشغلون أنفسهم بها ، لا ليلتمسوا لها حلا ، بل ليزيدوها تعقيداً ، وليجعلوها عسيرة الحل ، لكى تتسع شقة الخلاف وتتوزع القوى وتتصدع الوحدة .

وهم لا يهتمون بأحوال الزنوج أو العمال أو الفقراء من أجل سواد عيونهم ، بل ليفرقوا الصفوف ويوقعوا النفور ويشعلوا نيران الخلاف . وهم يحرضون على الاعتصابات والإضراب وإفساد آلات المصانع ، لا لأنهم يحرصون على مصلحة العمال وصون حقوقهم ، بل لأنهم يودون أن تسود الفوضى ويختل النظام ويضطرب الأمن وتزول الطمأنينة ، وهم لا يبغون من وراء ذلك كله مصلحة الإنسانية وانتصار الحق على الباطل ، بل يريدون توطيد مكانة سادة الكرملين الطغاة ، الذين يدينون بمذهب مكيافلى القائل إن الغاية تبرر الوسيلة ، وليس عندهم من النزعات الأخلاقية والكوابح الأدبية ما يصدهم عن السير فى هذه السياسة إلى أقصى مداها .

وما يصنعونه فى الولايات المتحدة يقومون بمثله فى كل مكان إذا وجدوا السبيل ممهداً ، ولكنهم يعنون الولايات المتحدة بصفة خاصة ،

لاعتقادهم أنها الحصن المنيع القائم فى طريقهم ، فإذا استطاعوا تدمير هذا الحصن فإن الاستيلاء على العالم جميعه وفرض سلطانهم عليه يغدو أمراً ميسوراً !

ومهما قيل فى مبلغ صدق الأخبار التى تذاع عن الأحوال الداخلية فى الاتحاد السوفيتى ، فإن هناك ثلاث مسائل ثابتة يمكن أن نستخلص منها أشياء كثيرة ، وأول مسألة هى كثرة الشرطة السرية بصورة واضحة تلفت النظر ؛ والمسألة الثانية حركات التطهير المتوالية التى تطيح بحياة الألوف من الناس ؛ والمسألة الثالثة الحجر على حرية التنقل ومنع الأفراد من السفر إلى الخارج إلا فى مهمات حكومية رسمية . . .

والتفسير الممكن لذلك كله ، هو أن النظام الشيوعى يسلم ويعترف بوجود استياء عام وتذمر شامل وسخط مكبوت ، فلو كان النظام مرضياً ومرغوباً فيه لما كان هناك سبب للاستكثار من الشرطة السرية فى كل ناحية من نواحى الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية ، ولا كان هناك سبب لحركات التطهير المتوالية التى تهلك فيها هيئات برمتها ، ولا كان هناك سبب يمنع الناس من حرية التنقل ، لو كانوا مغتبطين ناعمين مخلصين للنظام السائد . . .

أليس ذلك كله دليلا واضحاً على سوء العلاقة بين النظام القائم والشعب اليائس المعذب المسلوب الحرية ؟

الحركة الشيوعية العالمية

من أجل تحقيق هدف الشيوعية فى الاستيلاء على العالم ، نشأ ما نسميه « الحركة الشيوعية العالمية » . . .

والحركة الشيوعية العالمية حركة واسعة النطاق ، يحتاج تتبع خطواتها واقتفاء آثارها إلى مؤلفات ضخمة ، وسنحاول أن نلم بها إلماماً سريعاً فى هذا الفصل ؛ ويتخذ الاستعمار السوفييتى من الحركة الشيوعية وسيلة لتحقيق مطامعه فى امتلاك العالم ، وتستعين روسيا بالأحزاب الشيوعية فى الخارج على تأييد سياستها الخارجية ، وكل عضو من أعضاء الأحزاب الشيوعية يعرف أنه مدين بالولاء للاتحاد السوفييتى . . .

ويزعم الروسيون أن لنظامهم الشيوعى قيمة عالمية ، وأنه أنموذج يجمل بكل الأمم أن تحتذيه ، قبل أن ترغم على احتذائه ؛ ولما كانت الحكومة السوفيتية هى واضعة هذا النظام ، فهى ترى نفسها المسؤولة عن تفسيره وشرح غوامضه ، وأنها أقدر على تلقين مبادئه ونظرياته للغير ، وأن لها الحق فى أن تتولى تعيين الخطط وتدبير الحركات التى تتخذها الأحزاب الشيوعية فتكون هذه المبادئ مؤثرة فعالة ؛ وتسلم جميع الأحزاب الشيوعية فى كل بلد من البلاد لحكومة السوفيت بهذا الحق . وكل حديث عن الشيوعية يحسن أن يبدأ عن الشيوعية فى قاعدتها ومستقرها بروسيا ؛ فما هى الشيوعية الروسية ؟ ولماذا أخذت هذه الصورة الماثلة ؟

لا نزاع فى أن الإجابة عن هذين السؤالين تختلف باختلاف نظرات

الباحثين ، ولعل خلاصة ما يمكن أن نخرج به من البحوث المختلفة ؛ هو أن الشيوعية الروسية محاولة متصلة عنيفة لوضع تعاليم ماركس موضع التنفيذ ، وتطبيق نظرياته فى غير تردد ؛ وانتهاء تلك النظريات إلى إنشاء حكومة ديكتاتورية هو ما كان منتظراً ، فإن لباب تعاليم كارل ماركس هو « أن الحكومة البورجوازية هى الجهاز الاقتصادى الاجتماعى للمجتمع البورجوازى » ،وأن هذا الجهاز يجب تحطيمه وعدم الإبقاء على شىء منه ، ولا بد من بناء المجتمع الجديد على أسس جديدة ؛ ونظراً لأهمية العامل الاقتصادى فإن أول ما يجب هدمه فى المجتمع البورجوازى هو الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج ، لأنها سبب حرب الطبقات ، فكل موارد الإنتاج يجب أن يملكها المجتمع ؛ ولا يمكن إنهاء عهد فوضى المشروعات الفردية إلا بهذه الطريقة ،ويمكن بعد ذلك أن ينظم الإنتاج تنظيما اجتماعياً حسناً .

وامتلاك المجتمع لموارد الإنتاج معناه فى النهاية أن الدولة هى التى تتولى الإشراف على موارد الإنتاج وتنظيمها ، وقد رأى زعماء الشيوعية — وعلى رأسهم لينين — أن الاقتصاد القومى المنظم لا يتفق مع وجود الديمقراطية البرلمانية ، لأنه إذا كان لا بد من تنظيم الإنتاج فإن الذى يجب أن يقوم بذلك هو جماعة من الناس ،وهذه الجماعة فى النظام البرلمانى عرضة لأن تخذلها أصوات الناخبين وتنزلها من مرتبة الإشراف على تنظيم الإنتاج ، فتنظيم الإنتاج إذاً يستلزم نبذ الديمقراطية البرلمانية ، والطريقة العملية هى أن تقوم الحكومة بذلك كما أعلن كارل ماركس وانجلز فى بيانهما الشيوعى

المشهور ، وفى هذه الحالة تتخذ الحكومة إجراءات كثيرة ، منها توجيه العمل ، وتحديد الأسعار ، ومنع الإضرابات ؛ ولا تستطيع حكومة ديمقراطية أن تقوم بذلك إلا في حالة قيام الحرب . . .

وقد وجه الكثير من النقد القاسي لاستبداد لينين برأيه ، ولكننا إذا أغضينا عن الأحوال السيئة المضطربة فى إبان الثورة التى لم تكن ملائمة بحال ما للنظم الديمقراطية ، فإننا نجد أن لينين كان يسير مسترشداً بتعاليم أستاذه ماركس ، فديكتاتورية العمال ، أو ديكتاتورية البروليتاريا ، ليست من الديمقراطية فى شىء ، فإن العمال ليسوا هم العدد الأكبر من الأمة ؛ وحتى إذا سلمنا جدلا بأنهم كذلك فليس من حقهم إهمال طوائف المجتمع الأخرى والاستئثار بالنفوذ ، ولم يكن « الدولى الأول » ديمقراطياً ، ولم يكن ماركس يتورع عن الالتجاء إلى أية حيلة لإبعاد خصومه ومنافسيه عن حضور « الدولى » أو إخراجهم منه .

لم يكن يُنتظر من لينين تلميذ ماركس الذى قضى الشطر الأكبر من حياته تأثراً محرضاً والذى قام بالثورة بالرغم من معارضة كثيرين من زملائه وأشياعه أن يقيم وزناً للأحزاب التى يعرف علمواتها لسياسته ، فى أمة ليس لها عهد بالنظم الديمقراطية ؛ ولذا شدد النكير على المنشفيك والاشتراكيين ، وحول التفاته إلى حزبه ، فمنع تكوين الشعب فيه خشية أن تصبح إحدى الشعب نواة للمعارضة ، ووضع أساس حكومة الحزب الواحد ، إذ لم يجد مسوغاً لوجود حزب آخر ، لأن هذا الحزب فى رأيه إما أن يكون مؤيداً لسياسته ، فلا داعى لوجوده ، وأما أن يكون معارضاً لها ، فهو خارج على الثورة ولا يُسمح بوجوده .

واعتزم لينين إيجاد منظمة تحل محل « الدولى الثانى » وتوجه الحركة العمالية فى أنحاء العالم ، ومثل هذه المنظمة تكون أداة مناسبة لقيام الثورات فى البلاد الأخرى ، بخاصة فى أوربا الغربية ؛ وكان يظن أن بقاء الجمهورية الروسية متوقف على ذلك ، وقد تحقق هذا الهدف فى مارس سنة ١٩١٩ بتكوين « الدولى الثالث » أو « الكومنترن » ، وكانت روسيا حين تكوينه ضعيفة مستكينة فى عزلة وانفراد ، ولذلك لم يظهر زعماء البلشفية فى مظهر المشرفين على التوجيه ؛ والظاهر أنهم كانوا يفكرون فى أن يكون مقره فى بعض العواصم الغربية .

وقد وُضعت أسس السياسة التى سار عليها فى المؤتمر الثانى الذى عقد فى يوليو سنة ١٩٢٠ ، وفى ذلك الوقت كانت الجيوش الروسية تزحف على بولندة ، وطاف بفكر زعماء البلشفيه أن هذه الحرب الثورية ستشعل نيران الثورة فى الغرب ، تلك الثورة التى أبطأ قدومها بزعمهم ، رغم تحليلهم الديالكتيكى للموقف ، وبدا لزعماء البلشفية أن المبادىء الشيوعية فى طريقها إلى النصر ، وأن من واجبهم أن يؤكدوا قيمة هذه النظريات ، ولكن لم يكد ينتثر عقد المؤتمر حتى تواترت أخبار هزيمة الجيش الروسى فى ضواحى وارسو واضطراره إلى التقهقر والارتداد بالسرعة نفسها التى كان يتقدم بها . . .

وكانت الشروط البالغ عددها واحداً وعشرين شرطاً لدخول الكومنترن قد وُضعت ولم يدخل عليها تعديل ولا تبديل ، وقد أدى تشدد لينين إلى خروج الحزب الاشتراكى الإيطالى من الكومنترن ، وكذلك معظم

العمال الألمان ، وقد كانت سياسة لينين هى السياسة الصحيحة ، لأنها أقامت الكومنترن على أساس متين ؛ فقد جعلته يبدأ بجماعة قليلة ، ولكنها متماسكة ، تعرف المطلوب منها وتتفق فى الرأى والمذهب .

وثبت المؤتمر الثانى للكومنترن زعامة السوفييت وأقامها على أساس متين ، وكانت الظروف الجديدة تقضى بأن يكون مقر الكومنترن فى موسكو ، وهذا جعل للروسيين مركزاً سامياً ، وكان قانونه الأساسى ينص على أن البلاد التى يكون بها مقر لجنة الكومنترن التنفيذية من حقها أن يمثلها به خمسة من أعضائه الذين يتراوح عددهم بين خمسة عشر عضواً وثمانية عشر عضواً وأن يكون لكل دولة كبيرة عضو واحد ، وبالرغم من حرية المناقشات فى الكومنترن كانت آراء الأعضاء الروسيين هى الفاصلة . . .

وأقنعت الحوادث لينين بأن الغرب غير ناضج للثورة ، على خلاف ما كان يؤمل ، وبأنه لابد من فترة طويلة للإعداد والتمهيد ؛ ولذا بدأت فى المؤتمر الثالث طريقة الاتجاه إلى الجماعات ، بطريق ما يسمى « الجبهات المتحدة » ، وكان على الشيوعيين أن يعملوا مع سائر الجماعات والأحزاب لتحقيق أغراض ليست ثورية ، مثل تقليل ساعات العمل ، ورفع الأجور ؛ وكان الشيوعيون يرمون من وراء ذلك إلى الظهور بمظهر المطالبين بحقوق العمال والمؤيدين لقضيتهم ، لكى يأخذوا الطريق على زعماء الأحزاب الاشتراكية ، وأصبحت سياسة الجبهات المتحدة عاملا هاماً من عوامل السياسة السوفيتية ، وكان على الأعضاء الشيوعيين فى الجبهات المتحدة أن يستغلوا تعاونهم مع الأحزاب الأخرى فى العمل على

إشعال الثورة ، وكان موقف زعماء الشيوعيين فى تلك الجبهات لا يخلو من صعوبة واستهداف للنقد الصارم من قبل الحكومة السوفيتية ، فإذا قصّر أحدهم فى إحداث ثورة نعتوه بالوصولية والانتهازية ، وإذا قام بثورة وأخفقت ألقوا عليه اللوم ورموه بقصر النظر والرعونة وقلة التجربة ، والشيء الوحيد الذى كان لا يناقش ولا يمسه نقد ، هو حكمة القادة المتربعين على كراسى الحكم فى موسكو .

ولم يكن الكومنترن يسير على سياسة ثابتة ، بل كان يلائم بين سياسته وبين الأحوال المتغيرة والظروف الطارئة ، ففى المؤتمر الخامس الذى عقد سنة ١٩٢٤ ، رأى أعضاء المؤتمر أن الرأسمالية قد ظفرت باستقرار مؤقت ، وأن هذا يتطلب من الأحزاب الشيوعية سياسة لا هوادة فيها ولا سلامة ، ومعنى ذلك ترك الجبهات المتحدة ؛ وأقر المؤتمر جعل الخلية فى المصنع أساس الحزب ، وأن تقصر جهود الشيوعيين على الاستكثار من هذه الخلايا ، وقد أكدوا بذلك الصفة العمالية للشيوعية ، وفى الوقت نفسه أضعفوا العنصر الديمقراطى فى الشيوعية ، فقد كان الشيوعيون قبل ذلك يجتمعون ويتشاورون لاختيار الاعضاء الذين يمثلونهم فى الجبهات . وكانت نتيجة ذلك زيادة سيطرة الحزب على الأعضاء .

وواجه المؤتمر الخامس إخفاق المحاولة الثورية فى ألمانيا فى أكتوبر سنة ١٩٢٣ وكانت آخر محاولة لإشعال الثورة فى الغرب مدة سنوات ، وقد انتقلت محاولة إحداث ثورة بعد ذلك من ألمانيا إلى الصين ، وكان الحزب الشيوعى المحلى فى الصين قد عقد تحالفاً مع الكيومنتاج الصينى ،

ولم ير الشيوعيون بأساً فى أن يستعينوا بحركة شعبية قومية على هدم الرأسمالية .

وفى مؤتمر الكومنترن الذى عقد سنة ١٩٢٨ اتخذ الشيوعيون سياسة جديدة متطرفة ، فقد أعلن فى المؤتمر أن فترة استقرار الرأسمالية قد انتهت وبدأت الأزمات تكثر وتشتد فى العالم الرأسمالى . وليس هناك موجب لاستمرار التعاون بين المعسكرين :— معسكر الرأسمالية والمعسكر الشيوعى— وبخاصة لأن المعسكر الشيوعى مستهدف لخطر الهجوم عليه ، وأطلق الشيوعيون على الاشتراكيين لقب « الفاشيين الإشتراكيين » وكان لهذا الاتجاه أثر فى إضعاف موقف الحزب الشيوعى فى ألمانيا ، وتمكين هتلر من الوصول إلى ذروة النفوذ والقوة ، وأطاع الشيوعيون الفرنسيون أوامر الكومنترن ، فحاربوا الاشتراكيين فى انتخابات سنة ١٩٢٨ ، وكانت نتيجة ذلك تناقص عدد النواب الشيوعيين فى مجلس النواب الفرنسى إلى أربعة عشر نائباً ، وراع الضعف الذى أصاب الحزب الشيوعى الفرنسى سادة الكرملين ، فدعوا توريز إلى موسكو فى سنة ١٩٣٠ وعنفوه من أجل ذلك ، ولكنهم مع ذلك أوصوا باتباع الطريقة نفسها فى انتخابات سنة ١٩٣٢ ، فنقص عدد النواب الشيوعيين وأصبحوا عشرة ؛ وبالرغم من ذلك فإن ستالين لم يتحول عن هذه السياسة إلا فى سنة ١٩٣٤ إذ وجدت الحكومة السوفيتية نفسها فى حاجة إلى نصير ، وأخذت تلتمس الأحلاف لتدفع عن نفسها خطر قوة ألمانيا المتزايدة ، ومطامع هتلر التى لم يخفها ؛ وقد انتهت هذه السياسة الخارجية بدخول روسيا السوفيتية فى عصبة الأمم التى كانت تقول عنها من قبل إنها « مغارة اللصوص » .

وقد كان لاتجاه السياسة الجديدة أثره فى المؤتمر السابع والأخير الذى عقد فى أغسطس سنة ١٩٣٥ وتقرر فيه الدفاع عن الديمقراطية وعودة الأحزاب المناوئة للفاشية فيما يسمى « الجبهة الشعبية » ، وقد قوى ذلك موقف الأحزاب الشيوعية ، فبلغ عدد الأعضاء الشيوعيين فى مجلس النواب الفرنسى سنة ١٩٣٦ أربعة وسبعين عضواً ، وترك الشيوعيون فكرة الثورة العالمية ليثبتوا حسن نيتهم فى التعاون مع غيرهم من الأحزاب المناوئة للفاشية فى ألمانيا وإيطاليا .

وتابع الشيوعيون السير على هذه السياسة التى وضعها الكومنترن ، حتى عقد ميثاق التحالف مع هتلر سنة ١٩٣٩ ، فأمسك الشيوعيون عن مهاجمة النازية والفاشية ، وأوقفوا الحملة الشعواء التى كانت تشن عليهما ، وهى سياسة لم تجد الأحزاب الشيوعية فى الغرب ما يحملها على تقديرها والإعجاب بها ؛ وظلت حكومة السوفيت سائرة على هذه الخطة حتى قلب لها هتلر ظهر المجن وهجم على الاتحاد السوفيتى بجيوشه الجرارة فى يونيو سنة ١٩٤١ ، فتغير الموقف من جميع نواحيه ، وتحالف الاتحاد السوفيتى مع الديمقراطيات الغربية ، وتحرج موقف الكومنترن وأصبح عقبة فى سبيل السياسة الجديدة ، فألغى إلغاء شكلياً فى سنة ١٩٤٣ ، ولم تجد حكومة السوفيت صعوبة فى الاهتداء إلى ما يسوغ ذلك ، فالكومنترن قد قام بمهمته واستنفد أغراضه الأساسية وبعث الحياة فى الحركة العمالية . ولكنه أصبح من معوقات هذه الحركة بعد أن نضجت واشتد ساعدها ، وزعم الشيوعيون أن من علامات ذلك النضج ، ضيق جماعات العمال

بالحركة الهتلرية والطغيان الهتلرى ؛ ويلاحظ أن حكومة السوفيت أغفلت فى هذا الدفاع ، الحديث عن السياسة التى كانت تسير عليها فى توجيه الكومنترن ، وإنما قصرت الكلام على المنظمة نفسها . وقد انتفع زعماء الشيوعية فى موسكو من إلغاء الكومنترن ؛ فقد كان هذا الإلغاء من علامات انتهاء عهد بحث السياسة العامة للأحزاب الشيوعية ولو من الوجهة النظرية المحضة وبانتهاء عهد الكومنترن أصبح الاتحاد السوفيتى حراً مطلق التصرف فى إملاء الخطة السياسية التى يرى اتباعها وفرضها على الأحزاب الشيوعية جميعها ، وبذلك استطاع ستالين ، الذى كان بطبيعته ضعيف الإيمان بالكومنترن ، أن يقدم للدول الديمقراطية دليلا على حسن نية الشيوعية ، لا يكلفه ثمناً ولا يرهقه عسراً ، بل يزيده قوة ونفوذاً . ؛

وانتظر الشيوعيون حتى قضى على الفاشية والنازية وانتهت الحرب ، وكان ذلك على وجه التقريب سنة ١٩٤٥ ، فاستأنفوا السير على خطتهم القديمة ؛ وقد مرت سياسة السوفيت نحو حلفائهم السابقين بثلاث مراحل : المرحلة الأولى تبدأ من سنة ١٩٤٥ إلى منتصف سنة ١٩٤٧ ، وقد امتازت بالعودة إلى سياسة الجبهة الشعبية التى سبق أن أخذ بها مؤتمر الكومنترن السابع ؛ وكان الاتحاد السوفيتى قد ضم إليه مناطق واسعة ، ولكن الأحزاب الشيوعية كانت ضعيفة فى تلك الدول وقليلة العدد ، وبالرغم من أن عدد الأعضاء أخذ فى الزيادة لم يكن لأعضاء تلك الأحزاب خبرة ولا دراية ، ولا يمكن الاعتماد التام عليهم ؛ وكانت قوة الأحزاب المعادية للشيوعية ظاهرة ، وفضلا عن ذلك فإن العهود التى

قطعتها حكومة السوفيت على نفسها كانت تستلزم السير بحذر وتمهل ، حتى لا تثير سوء ظن الدول الغربية من ناحية ، ولا تحرك فى الأحزاب غير الشيوعية نزعة المقاومة من ناحية أخرى ؛ وفى تلك المرحلة كان الأعضاء الشيوعيون يشتركون فى الحكومات اليسارية ليبعدوا غير الشيوعيين حينما يحين الوقت المناسب ، وقد اتبعوا هذه الخطة فى الدول الثلاث التى دخلت فى فلكهم . . .

وفى أوائل سنة ١٩٤٧ شعرت الدول الغربية بأنها ليست أمام حكومة معادية فحسب ، بل انها تلقاء خصم عنيد لا يلين ولا يرحم ، وأن هذا العدو اللدود يعمل على هدمها ، وهو يجمع فى ذلك بين القوى الحربية والإشراف على حركة عالمية هدامة ؛ وكانت نتيجة ذلك مشروع مارشال لتقديم المساعدة الاقتصادية لأوربا ، وقد ردت موسكو على ذلك بإقامة الكومنفورم فى سبتمبر سنة ١٩٤٧ ، ودل خطاب زادنوف الافتتاحى على أن السياسة السوفيتية قد اتجهت فى عنف إلى اليسار ، وعادت تردد حججها القديمة ضد النظام الرأسمالى ، وأخذت فى تشجيع الحركات القومية فى البلاد المتأخرة ، وحرضت الاحزاب الشيوعية فى الغرب على العودة إلى الحركات الثورية ؛ فنظم الحزب الشيوعى الفرنسى فى شتاء سنة ١٩٤٧ سلسلة من الاعتصابات أحدثت رجة فى طبقات العمال والاتحادات التجارية ، وقد كان خروج تيتو على أوامر الحكومة السوفيتية من الأسباب التى حملتها على تغيير تلك السياسة . . .

وبعد فترة من التردد انتقلت سياسة موسكو إلى المرحلة الثالثة ، وهى

مرحلة العودة إلى حركات الجبهات المتحدة ، وعنيت حكومة موسكو بحملة السلام التى أصبحت سلاحاً حبيباً إلى قلوب الشيوعيين ، يحدثون به بلبلة فى الرأى العام الغربى ويلبسون به على الأغرار وحسنى النية ؛

وقد أثارت وظيفة الكومنفورم الحقيقية الكثير من التفكير والبحث ، فهو من الناحية الرسمية يوصف بأنه مكتب استعلامات الأحزاب الشيوعية ، وظاهره أنه إدارة جريدة مسؤولة عن إصدار لسان حال الكومنفورم وهى المسماة « من أجل السلام الدائم » وهى تصدر فى ثمانى عشرة لغة ، ونظامه يختلف عن نظام الكومنترن ، لأنه ليس له مؤتمرات ولا لجنة مركزية ، وغاية ما فى الأمر أن الأحزاب الشيوعية فى فرنسا وإيطاليا وألمانيا والمجر وبلغاريا ورومانيا أرسلت نواباً عنها لتشترك فى وضع الخطط التى تتبع فى حملة السلام فى الاجتماع الذى عقد فى نوفمبر سنة ١٩٤٩ . وقد طرد من هذا الاجتماع الشيوعيون اليوغسلافيون ، ولم يعقد بعد ذلك اجتماع آخر ، ومع ذلك فإن الاتجاهات التى تعلنها الجريدة وتوصى بها تقبلها الأحزاب الشيوعية فى القارات الخمس ، والظاهر أنه من المرغوب فيه أن تذيع هذه الاتجاهات وتملى التعليمات المتصلة بها هيئة تلفها أردية الخفاء والغموض ؛ وذلك عند الشيوعيين خير وأبقى من إذاعة التعليمات عن طريق المؤتمرات الدولية . . .

وقد انتظر الشيوعيون قيام ثورات فى الغرب فى السنوات التى تلت الثورة الروسية ، وبذلوا جهدهم فى العمل على قيام هذه الثورات وإثارة الهياج ، وقد تلقوا أخيراً معونة من الشرق ، ولا نزاع فى أن أعظم حادثة

فى تاريخ الشيوعية بعد الحرب هو انتصار الشيوعية الصينية ، فبعد إخفاق حركات الكومنترن المبكرة كوّن ماوتسى تونج حزبه على حدود الولايات الصينية الوسطى ، إلى أن اضطر إلى الانتقال إلى الأقاليم الشمالية ، وقد سبب تقدم هذا الحزب قلقاً وارتباكاً فى موسكو ، فقد كانت الثورة الروسية ثورة عمالية ، وكان الشيوعيون يعدونها أنموذجاً لجميع الثورات التالية ، وكان هذا الاعتقاد جزءاً من تعاليم الشيوعية ونظرياتها التى يتلقاها الأتباع والأشياع على أنها حقائق منزهة عن الخطأ ، وعلى هذا الأساس قامت دعوة موسكو لتوجيه الحركة الثورية العالمية ، والحقيقة أن الثورة فى البلاد المتأخرة ، ثورة بورجوازية ديمقراطية ، وليست عمالية أو بروليتارية كما يفضل أن يقول الشيوعيون ، ولكنهم كانوا يحتاطون فى ذلك ويزعمون أن المظهر البورجوازى الديمقراطى للثورة يشرف عليه ويوجهه العمال أو البروليتاريا ؛ والتسليم بأن الشيوعية الصينية قامت على المزارعين الذين تعدهم نظرية ماركس ولينين مجرد حلفاء ومساعدين للعمال ، معناه أن للثورة الشوعية طابعاً خاصاً ، فهى ثورة مزارعين ، ولها قانونها الخاص ، والمبادىء المسيطرة على الثورات العمالية لا تطبق عليها ..

ولكن ماوتسى كان معنياً بالمحافظة على المظاهر ، ولم يكن راغباً فى تحدّى قيمة النظرية الشيوعية ، ولذلك بذل جهداً ليجعل حركته تبدو فى صورة الحركة العمالية ، وعمل على نقل مركز الحركة إلى المدن ، ليؤكد ذلك ؛ وهكذا أضفى على التجربة الصينية ثوب الماركسية ، واعتبرت المثال الذى يحتذيه الشيوعيون الأسيويون فى حركاتهم الثورية القادمة ...

والزعماء الروسيون بطبيعة الحال يودون أن يكون لهم الإشراف على كل الحركات الثورية، ومن المرجح لذلك أنهم لا ينظرون إلى ماوتسى بارتياح تام ، والتحالف الصينى السوفيتى فى الوقت الحاضر قائم على المصلحة المشتركة .

وقد ساعد الجيش الأحمر فى فرض الشيوعية على حكومات الدول التى دخلت فى فلك الشيوعية، ويعزى إخفاق الشيوعية فى فرض النظام الشيوعى على فرنسا وإيطاليا إلى عدم وجود الجيش الأحمر بهما ؛ ومن العجيب أن الشيوعية نجحت بغير الجيش الأحمر فى البلاد التى لم تقم فيها الحركة الثورية على البروليتاريا التى يمثل الشيوعيون مصالحها من الوجهة النظرية. فى روسيا نفسها ، وفى الصين ، نجح الشيوعيون فى الاستيلاء على السلطة بتزعمهم حركة الثورة التى نشأت ضد الإقطاع ، وقد استغلوا فى روسيا رغبة المزارعين فى الأرض ، واستغلوا فى الصين موجة القومية المتصاعدة ، وقد أثبت هذان العاملان أنهما أقوى من متناقضات الرأسمالية التى كان يهتم بها ماركس ، ولذا مدت الشيوعية أطراف مذهبها ليشمل هذين العاملين ؛ وهذا سبب اختلاف مذهب لينين وستالين عن الماركسية الكلاسيكية ، ولكن الجوهر مع ذلك واحد ، وهو حكم القلة المختارة التى استدرجت الجماعات إلى قبول زعامتها بوعود الرخاء الاقتصادى الذى لا يمكن أن يتم بغير التنازل عن الحرية ، وهى فى الواقع عودة إلى العلاقة الاجتماعية بين السادة والعبيد التى عرفتها الأمم فى العصور السالفة! وبرغم ذلك يروق الشيوعيين أن يسموا أنفسهم جماعة التقدميين .

عوامل قوة وعوامل ضعف . . .

أوضحنا فى الفصول السابقة أن هدف الشيوعية البعيد هو السيطرة على العالم ، وذكرنا أن طبيعة الشيوعية تفرض هذا الهدف فرضاً على الشيوعيين ؛ ويعمل الاتحاد السوفيتى بمختلف الوسائل على تحقيق هذا الهدف ، والاستعداد الحربى الهائل الذى يقوم به الاتحاد السوفيتى ليس غرضه الأصيل هو الدفاع وحماية حوزته ، بل الغلبة والاستعلاء والسيطرة الشاملة ؛ ومن العسير – إن لم يكن فى حكم الاستحالة – تقدير القوى التى يعبئها الاتحاد السوفيتى ويحشدها حشداً للمعركة الفاصلة والصراع الحاسم ، لأن الشيوعية تحيط نفسها بستار حديدى وتعمل فى تكتم شديد وسرية بالغة ؛ ولا يمكن بطبيعة الحال الاعتماد على ما تبرزه من إحصائيات ، لأن المعروف أن هذه الاحصائيات غير صحيحة ، وأن المقصود بها الإبهام والتغرير ، لا إعطاء المعلومات الدقيقة والبيانات الصحيحة ؛ ولذلك سنكتفى هنا بالإشارة إلى بعض نواحى القوة وبعض نواحى الضعف البارزة فى النظام الشيوعى والتى لا تكاد تختلف فيها الآراء . . .

فالاتحاد السوفيتى من ناحية الموقع الجغرافى يملك قاعدة أرضية هائلة تشمل جزءاً كبيراً من القارتين القديمتين : قارة أوروبا وقارة آسيا ، وتطل على قارة إفريقية ، وتشرف من الشرق على المحيط الأعظم الهادى ؛ وهذه القاعدة الضخمة المترامية الأطراف لا يمكن أن تنال منها الأساطيل

منالا أو تظفر منها بطائل ، وكثيراً ما غاصت فيها أقدام الفاتحين الذين حاولوا غزو روسيا ، واكتفت الجيوش الروسية بأن تقف منهم موقف المدافع الذى يعتمد على طبيعة الأرض الواسعة الشاسعة المكشوفة ، أكثر مما يعتمد على قوته الدفاعية وجيوشه النظامية .

وهذه المنطقة الواسعة كثيرة عدد السكان ، موفورة الموارد ، ويضم أشتات ما بها من الأمم المختلفة فى العصر الحاضر نظام سياسى متماسك محبوك الأطراف ، وحكومة مركزية شديدة السطوة قوية الدعائم ؛ ومثل هذه القوة المركزة القائمة على هذه القاعدة المتماسكة كانت تستطيع قبل ظهور الطائرات وسائر القوى الجوية والأسلحة الذرية أن تغزو العالم القديم وتسيطر عليه ، اما اليوم فان هذه القوى الحديثة تقف عقبة فى سبيلها ؛ ولكن الحقائق الجغرافية مع ذلك ما تزال لها قيمتها ، وإذا استطاع الشيوعيون أن يمدوا سلطانهم حتى شواطىء الاطلانطيق ، وأن يقوّوا موقفهم على شواطىء المحيط الهادى ، أصبحت فرص انتصارهم فى الحرب القادمة كثيرة ، وصار التغلب عليهم ورد غارتهم يستلزم جهداً شاقاً ربما لا يكون فى طوق البشر . . .

والاتحاد السوفيتى قوى بعدد رجالة ، ففى داخل حدود هذه المنطقة نحو مائتى مليون من السكان ، وفى الدول التابعة للاتحاد السوفيتى ، مثل رومانيا وبلغاريا والمجر وغيرها ، عدد كبير من الأيدى العاملة من السهل تسخيرها فى سبيل الأهداف الشيوعية ، والشيوعيون يستعينون بهذه الكثرة الكاثرة ويعوّضون بها نقصهم فى نواح أخرى ؛ ولكثرة الرجال فى الحرب

أثر يذكر ، وقد ظهر ذلك فى صورة واضحة إبان الحرب العالمية الثانية ، فقد كانت الكثرة من العوامل التى أعجزت الجحافل الألمانية الهتلرية وهدت قواها وعرقلت سير آلتها الحربية المنتظمة ، والصناعة الحربية الروسية ليست عظيمة الكفاية ، وينقصها الكثير من الإتقان والتجويد ، ولكنها تسد هذا النقص بكثرة العدد .

والموارد الطبيعية للصناعة فى روسيا السوفيتية كثيرة موفورة ، ولكن الاستفادة من هذه الموارد على الوجه الأكمل تستلزم نفقات كثيرة وقدرة فنية فائقة ؛ ومن أجل ذلك تعد هذه الموارد حقيقة طبيعية ، ولكنها لم تصبح بعدُ حقيقة اجتماعية ، ومن أمثلة ذلك وفرة الأخشاب فى سيبيريا ، حيث تصب أكثر الأنهار فى المنطقة المتجمدة الشمالية ، فلا يمكن الاستفادة بها فى تعويم خشب الغابات إلى المناطق الصناعية ؛ والغابات العظيمة بدون أنهار لنقل الكتل الخشبية الكبيرة تقل قيمتها من الناحية الاجتماعية ؛ والكثير من المواد المعدنية فى روسيا تعترضها صعوبة النقل ، ويمكن بطبيعة الحال التغلب على هذه الصعوبة بالاكثار من السكك الحديدية واستعمال الطائرات ، ولكن الاستفادة . الكاملة منها تستلزم وقتاً طويلا وتقدماً متصلا فى الصناعة ، وفى خلال تلك المدة يكون قد تم الفصل فى الصراع العالمى على النفوذ والسيطرة . . .

وقد بولغ كثيراً فى تقدم الاقتصاد السوفيتى تحت السيطرة الشيوعية ، والواقع أن هناك تقدماً كبيراً من بعض النواحى ، ولكن الملحوظ بوجه عام ، أنه تقدم فى الكم لا فى الكيف ، على أن نقص الكفاية الفنية له

أثره الواضح فى هذا الإنتاج الضخم ؛ فكثيراً ما يؤدى إلى إنهيار المبانى والمنشآت أو تصدع جوانبها ، وفساد الآلات والمصانع . وعدد العاملين فى أى منجم من المناجم الروسية يبلغ ثلاثة أمثال الذين يعملون فى المنجم الذى يماثله فى إنجلترا أو الولايات المتحدة ، والسبب فى ذلك هو الحاجة إلى المراقبة الشديدة ، والرغبة فى سرعة الإنتاج ، كما أن المساكن التى تأوى إليها العمال غير كافية ولا مزودة بأسباب الراحة والوسائل الصحية ؛ يضاف إلى ذلك نقص الغذاء ووسائل المواصلات ؛ وكل هذه الأسباب مجتمعة تُضعف إنتاج العمال ، والشيوعيون يستغلون البلاد التى ضمت إليهم فى شرق أوربا لتحسين الإنتاج والاستكثار منه .

ولا نزاع فى أن التركيز الاقتصادى الذى تسير عليه حكومة السوفيت نافع من الناحية الاستراتيجية ، وبخاصة من ناحية إنتاج الأسلحة ؛ ومهما تكن أوجه النقص فى الصناعات الأخرى فإنهم يستطيعون أن يركزوا أقوى ما عندهم من الاستعداد البشرى والطبيعى فى عمل يعدّونه حاسما من الناحية الحربية ؛ ولذا يكون من الخطأ أن نضع إنتاج القنابل الذرية السوفيتية فى مستوى سائر الإنتاج السوفيتى الذى عُرف بالنقص وإنخفاض المستوى .

أما من الناحية الثقافية فبالرغم من أن النظام الشيوعى حارب الأمية البدائية التى كانت سائدة فى روسيا ، فإن المستوى الثقافى العام ما يزال منخفضاً ، والنسبة المئوية للعمال الأكفاء ما تزال قليلة ، وعدد العلماء والمهندسين والأطباء والمعلمين وأمثالهم من أصحاب المهن الفنية قليل بالقياس

إلى عدد السكان ، ويعنى فى تدريبهم بدراسة الآراء الشيوعية أكثر من أى شىء آخر ، وهذا من أسباب ضعفهم ؛ وعدد المدارس والمستشفيات والمكتبات قليل ، وبخاصة اذا استثنينا منها المستشفيات المعدّة للطبقة الحاكمة ولزيارات الصحفيين الوافدين . والرقابة الشديدة والدعاية تفسدان تدريس التاريخ وتشوهان وتعوقان فهم سائر العلوم الاجتماعية على حقيقتها ، ولكنهما يسهلان مهمة التنظيم السياسى ؛

ويتجلى ضعف روسيا الاقتصادى والثقافى فى عتادها الحربى ، فمستوى أسلحتها أقل من مستوى أسلحة الدول الغربية ، من وجوه كثيرة ، ويعرف الشيوعيون هذا ، ولذلك يعتمدون على كثرة العدد ووفرة الإنتاج ..

* * *

وتعد الأسطورة الشيوعية من أسباب قوة روسيا السوفيتية ، وهى أسطورة مستمدة من أحلام الإنسانية القديمة وأوهامها ؛ وهى تجعل الناس تعتقد أن ملكوت السماء سيحل فى هذه الأرض ، ولذلك يرى فيها المحرومون والبائسون والثائرون والناقمون موئل الخلاص وكهف الرجاء ؛ وهى تسمح لهم بالانتقال من عالم الواقع المملول البغيض الذى لا يرضى الذوق ولا يلائم المزاج ولا يلبى مطالب النفس وأمانى القلب ، إلى عالم خيالى مثالى يعيش فيه الناس أحراراً قد تساوت أقدارهم وخلصت من الأكدار نفوسهم ، فلا استغلال ولا انتهاب ولا سيد ولا مسود ولا حرب ولا كفاح ولا جوع ولا شقاء ، وقد ربطت الناس بعضهم ببعض رابطة الأخوة ؛ ويشتد تعلقهم بهذا الوهم اللامع حتى يظنوا الخيال حقيقة واقعة ، ويعتقدوا أن

هذه الغاية السعيدة المتخيلة لا بد أن تتحقق ، لأنها فى وهمهم الغاية الطبيعية لما يسمونه الحركة التاريخية؛ ويوحى هذا الشعور إلى الحالمين الواهمين فكرة ترضى غرورهم ، هى أنهم يعينون التاريخ فى حركته ويساعدونه على بلوغ أهدافه ، فيزيدهم هذا الشعور ثقة بالنفس وأملا فى النجاح ، كما يزيدهم تعلقاً بهذا الهدف وبذلا فى سبيله ، لأنه ككل غاية عظيمة يحتاج إلى بذل الجهود الجبارة والتضحيات الكبيرة واقتحام العقبات وخوض الغمرات وهدم النظم البالية والتقاليد العتيقة ؛

وعشرات الملايين من الناس فى أنحاء العالم يتسلون بهذا الحلم الباهر ويهدئون به شكوكهم المساورة ومخاوفهم المزعجة ، ويعتقدون أنهم سيجدون فى الشيوعية الأمن من الفقر والحاجة ، والضمان ضد البطالة ؛ وهذه الأحلام الجملية بديل من ماذا ؟ إنها بديل من الواقع الشيوعى البغيض ، القائم على الإرهاب والاسترقاق والبؤس والطغيان الذى لا يعرف له التاريخ نظيراً ؛

وهذه الأسطورة تثير الخيال ، وتشعل الحماسة ، وتقوى الحركة الشيوعية ، وتجعل أنصارها الحالمين بها يرتفعون فوق المطالب المادية وهموم الحياة الصغيرة ، لاعتقادهم أنهم يخدمون غاية نبيلة تسعى إليها الإنسانية منذ فجر التاريخ . . .

وضعف العقائد الدينية فى العصر الحاضر من شأنه أن يقوى أسطورة الشيوعية ؛ فالإنسان وقد راعته أزمات الحضارة المتعاقبة ، وخاب أمله فى المثل العليا الحرة الديمقراطية ولم تروِ الديمقراطية غليله ، وشك فى الدين والحياة بعد

الموت والجزاء والعقاب — يتعلق بأسطورة الشيوعية حتى لا تغمره أمواج الشك والحيرة . . .

ولكن العجيب فى الأمر أن هذه الأسطورة الشيوعية لا يؤمن بها إلا الذين يعيشون بعيداً عن روسيا ولا يعرفون شيئاً عن واقع الحياة فى ظل الحكومة السوفيتية، وعما يلقى الناس هناك من بؤس وهوان وذل واستعباد ...

إن الشعب فيما وراء الستار الحديدى يعانى قسوة النظام الشيوعى ويتجرع مرارته مكرهاً ، وإذا استثنينا بعض الشبان الأغرار الذين غرتهم الأسطورة الشيوعية ، نجد أن العمال فى روسيا يعلمون تمام العلم أنهم أسرى النظام الشيوعى وعبيد السادة الحكام ؛ والواقع أن معرفة حقيقة الشيوعية هى خير كفيل بتبديد تلك الأسطورة الجميلة التى تستمد كل جمالها وقوتها من أوهام الظلام والجهل ، والتى لا يمكن أن تعيش فى النور السافر . . .

وقد استقبل البولنديون الجيش الأحمر فى سنة ١٩٣٩ بحماسة وارتياح ، ورحبوا بقدومه أجمل ترحيب ، ثم لم تمض أشهر أو أسابيع ، حتى ظهرت لهم الحقيقة المؤلمة ، ففترت حماستهم وتقشعت أوهامهم ، فكفروا بالأسطورة وصانعها وزاويها جميعاً . . .

ومن أسباب قوة الشيوعية تنظيمها الدولى البالغ الإحكام والدقة ؛ وليس لأمة من الأمم مثل تلك المنظمات الدولية الناشطة العاملة فى كل ركن من أركان الأرض ؛ ومكاتب استعلامات الشيوعية لا نظير لها فى تحرى الأخبار وكشف الأسرار وتزويد حكومة السوفيت بالمعلومات الوافية

الدقيقة والخفايا المستورة والغوامض والأسرار ، مما يساعد الحكومة على أن تكون على بينة من أمرها وتحسن توجيه سياستها وتدبير خططها فلا تخدع أو تؤخذ على غرة أو تفاجأ بموقف قبل أن تأخذ الأهبة وتعد لمواجهته العدة . . .

والذين يتولون زمام الأمر فى الحكومة السوفيتية ويوجهون سياستها ويصرفون أمورها ، جماعة من ذوى الخبرة والحنكة ، قد صقلتهم التجارب وحنكتهم الأيام ووقفوا حياتهم على طلب السيطرة والنفوذ والقوة ، وهم يدرسون المشكلات التى تعرض لهم دراسة تجمع بين دقة البحث العلمى وموضوعيته ، وحماسة المتعصب المتشدد فى عقيدته ؛ وأكثر المشتغلين بالسياسة فى الأمم الديمقراطية لا تستغرق السياسة كل جهودهم وأوقاتهم ، ولهم هموم أخرى عائلية أو فنية أو أدبية أو علمية ، ولكن ساسة الكرملين وقادة الشيوعية لا يصرفهم عن طلب القوة صارف ، ولا تلهيهم عن العمل لتحقيق أهدافهم هموم الأسرة أو عواطف الصداقة أو الميل إلى الأدب والفن . والعمل على تغليب الشيوعية وانتصارها هو شغلهم الشاغل الذى يستأثر بعقولهم وعواطفهم وأهوائهم وكل جوانب شخصيتهم وأسباب وجودهم ؛ وهذا أيضاً مظهر من مظاهر قوة الشيوعية . . .

دور الدبلوماسية
فى السياسة السوفيتية

دور المفاوضات الدبلوماسية فى إدارة السياسة الخارجية السوفيتية ، متصل اتصالا وثيقاً بنظرية العلاقات الدولية عند الشيوعيين ؛ وتقرر هذه النظرية أن الحركة التاريخية فى سيرها المحتوم إلى الشيوعية العالمية ، لابد أن تنتهى بصراع بين العالم الشيوعى والعالم غير الشيوعى ، أو كما يقول الشيوعيون : بين الاشتراكية والرأسمالية ؛ وتذهب هذه النظرية إلى أن هذا الصراع سيطول أمده ويستمر عشرات من السنين ، وتتخلل أزمنة الحرب والثورات فترات تطول أو تقصر يستقر بعدها السلام . . .

وقد كانت الجولة الأولى للثورات الشيوعية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وقد انتهت بانتصار الشيوعية فى روسيا ؛ وكانت الجولة الثانية فى أواخر الحرب العالمية الثانية ، وأدت إلى اتساع حدود جمهورية السوفيت ، وإنشاء حكومات شيوعية فى شرق أوربا ، وشمال كوريا ؛ وكانت بين هاتين الجولتين فترات الانتظار والترقب والاستعداد ، والعلاقات المتبادلة بين العالم الشيوعى والعالم غير الشيوعى .

وضرورة التأهب للمعركة وللتعاون فى ميدان العلاقات الدولية ، ماثلة على الدوام فى عقل زعماء السوفيت ؛ ذلك لأن السياسة الخارجية الشيوعية تحرص على أن يكون تصرفها ملائماً لمواقف الاستقرار ولمواقف

عدم الاستقرار فى الوقت نفسه ؛ ومن ثم كان قول ستالين دون أن يناقض نفسه : « إن وجود السلام بين الاشتراكية والرأسمالية ممكن ؛ وإن وقوع الحرب بينهما أمر لا متحول عنه حتى تزول الرأسمالية ؛ »

ويعد زعماء الشيوعيين بلادهم القاعدة الأولى التى تنبعث منها الثورة الشيوعية العالمية ، ويعتبرون موسكو محور النظام للشيوعية العالمية ، وللحكومات التى تدور فى فلكها ، والتى يجب أن تثير حرباً لا هوادة فيها ضد الدول الأخرى لنشر الشيوعية ، مع مراعاة المد والجزر فى السياسة العالمية ، والظروف المواتية وغير المواتية ، ومع الاستعانة بأساليب صناعة الحكم جميعها ، بما فيها الالتجاء إلى القوة المسلحة إذا اقتضى الأمر ؛ وهذا المحرك الذى يسير السياسة السوفيتية ، هو الذى يجعل للدبلوماسية الشيوعية معنى خاصاً . . .

ووضع سياسة خارجية ملائمة لهذه النظرية فى العلاقات الخارجية ، يستلزم مرونة عظيمة ، ولتحقيق هذه المرونة يستعمل الشيوعيون وسائل حربية واقتصادية وفكرية أو أيديولوجية ؛ ويعتمدون بوجه خاص على وسيلتين من بين هذه الوسائل ؛ هاتان الوسيلتان هما : الحزب الشيوعى ، والإجراءات الدبلوماسية ؛ وللحزب الشيوعى أهمية أعظم فى إبان عهود الثورات ، وهذا الحزب يتلقى تعليماته وأوامره من سادة الكرملين ، وله أتباعه وجواسيسه فى كل نواحى الأرض ؛ وللدبلوماسية المكانة الثانية بعد الحزب الشيوعى ، ولكن لها مع ذلك أهمية جوهرية فى تنفيذ السياسة الشيوعية ، لأن أوقات الاستقرار والسلام التى تقتضى تبادل العلاقات

مع الدول الأخرى غير الشيوعية ، أطول بوجه عام من فترات الحروب والثورات ؛ وفضلا عن ذلك فإن إعداد الثورات وتهيئة أسبابها يتطلبان وقتاً طلايلا ؛ ومن ثم كان للدبلوماسية مكانة خاصة فى الاتحاد السوفيتى ..

ونجاح الدبلوماسية فى فترات الهدوء والسلام الطويلة لازم لنجاحها فى أثناء الثورات والحروب ، ومن أجل ذلك لا يألو الشيوعيون جهداً فى تدريب رجال السلك الدبلوماسى تدريباً دقيقاً ، وتثقيفهم ثقافة دبلوماسية وافية ، وتزويدهم بالمعلومات الغزيرة عن القوانين الدولية والأحوال العالمية ، ليسترشدوا بها ويسيروا فى ضوئها ؛ وبذلك كله استطاع الاتحاد السوفيتى أن يلعب دوراً هاماً فى عصبة الأمم ، وأن يتقبل النظام الدولى الذى قامت عليه العصبة ويشارك مشاركة قوية فى سن القوانين الجديدة ووضع القواعد الملائمة . . .

وفى فترة الاستقرار الأولى بين الحربين العالميتين كانت الدبلوماسية الشيوعية تقوم بالدور الرئيسى فى السياسة الشيوعية ، وكانت الأحزاب تقوم بالدور الثانوى ؛ بل كانت الأحزاب بين سنة ١٩٢٤ وسنة ١٩٣٦ تكاد تكون عقبة ومصدر إقلاق ومضايقة للسياسة الشيوعية ، وحتى بعد اصطناع حيلة « الجبهات المتحدة » ، لم يكن للأحزاب مكان من الأهمية ؛ وفى خلال هذه الفترة التى احتجب فيها نشاط الأحزاب ، حدثت حركات تطهير عدة ، خرجت منها الأحزاب أحكم نظاماً وأقدر على القيام بتنفيذ السياسة الشيوعية ؛ وفى هذه المرحلة لم يكن التعاون تاماً بين « الدولى الشيوعى » وإدارة الشؤون الخارجية الشيوعية ، ولم يكن

ستالين يرى فى الدولى الشيوعى وسيلة كثيرة الجدوى لتحقيق المطامع السوفيتية.

وغير نشوب الحرب العالمية الثانية كل شىء ، إذ رأى قادة الشيوعية أن الحرب تتيح لهم الفرصة لإحداث ثورات جديدة ، إذا أحسنوا اغتنامها والإفادة منها ، واستنهضوا همة الأحزاب الشيوعية للعمل واستغلال الموقف ؛ وتيسيراً لمهمة الأحزاب ، حُل « الدولى الشيوعى » ، وأصبحت المنظمات الشيوعية فى الخارج تحت إشراف المكتب السياسى فى موسكو وإدارة الشرطة السرية ؛ وظل الشيوعيون محتفظين بمنهجهم فى الدبلوماسية ، ولكنهم فى الجهات التى صحت نيتهم على تملكها ، كانوا يعتمدون على الأحزاب الشيوعية فى تنفيذ الخطط والقيام بالدور الرئيسى الذى يتطلبه الموقف ، وكان دور الدبلوماسية مقصوراً على التدخل لتسوية الخلافات .

وقد نجحت الدبلوماسية الشيوعية فى فترة السلام والاستقرار التى سبقت الحرب الثانية نجاحاً عظيماً ، وظفرت بالتقدير الكبير ؛ ومكنها هذا النجاح من متابعة عملها فى الفترة التالية ، التى أصبح فيها للأحزاب السياسية الشيوعية المقام الأول فى تنفيذ السياسة الشيوعية ؛ وليس معنى ذلك أن الدول الغربية لم تفطن لأساليب الدبلوماسية الشيوعية ولم تتبين حقيقة خططها وأساليبها . . .

وقد بدرت من ستالين بعض عبارات قبل فترة استئناف الثورة ، نمت على اتجاه الدبلوماسية الشيوعية ، منها قوله عن الدبلوماسية البورجوازية « إن الكلمات شىء والأعمال شىء آخر ، والكلمات الطيبة ليست سوى قناع لإخفاء الأعمال السيئة ؛ والدبلوماسية المخلصة ليست أكثر استحالة

من طلب الماء الجاف أو الخشب الحديدى ! »

ولكن ما أظهرته الدبلوماسية الشيوعية من البراعة ، ستر عيوبها وأعلى مكانها فى أعين الساسة الغربيين . . .

وحينما نعود بالذاكرة إلى الموقف فى آخر الحرب العالمية الثانية يتضح لنا ما كان يشعر به الاتحاد السوفيتى من حاجة لستر حركاته العدوانية بستار من الدبلوماسية ، فقد اكتسحت الجيوش السوفيتية فى شرق أوربا مناطق يسكنها أكثر من مائة مليون نسمة ، وكان معظم سكان هذه المناطق من أعداء الشيوعية ؛ وكان عمل الحزب الشيوعى والاتحاد السوفيتى وأعوانه المحليين الاستيلاء على الحكومة فى جميع هذه البلاد ؛ وكان هذا يستلزم مجهودات شتى ، منها تعاون الأحزاب الشيوعية المؤقت مع الجبهات الشعبية ، وإلزام قوات تلك البلاد العسكرية بالوقوف على الحياد ، وإرجاء الانتخابات حتى يتمكن الشيوعيون بوسائلهم المضللة من التأثير فى الرأى العام ، ليضمنوا الانتصار فى المعارك الانتخابية ، وكانت المنظمات الشيوعية هى التى تتولى تنفيذ هذا العمل ، الذى رسمت سياسته فى موسكو ؛

وكان عمل الدبلوماسية السوفيتية هو أن تؤكد لحلفاء الغرب أن هذه الإجراءات ليست مصطنعة ولا مدبرة ، وتحاول فى الوقت نفسه تخديرهم وتأجيل أية خطوات مضادة من جانبهم ، بل كانت تحاول أيضاً إقناعهم بالموافقة على الحالة القائمة التى تحقق غايات الشيوعيين .

ومن الأمثلة التى توضح الدور الذى لعبته الدبلوماسية فى هذا الوقت ،

استيلاء الشيوعيين على تشيكوسلوفاكيا ، وقد كان لهذا الاستيلاء ظروفه التى يسرت للدبلوماسية الشيوعية النجاح ، فحوادث سنة ١٩٣٨ ــ ١٩٣٩ أقنعت التشيكوسلوفاكيين أنهم كانوا مخدوعين فى حلفائهم الغربيين ، وقد غذى هذا الشعور النزعة السلافية الخيالية القريبة من قلوب أهل تشيكوسلوفاكيا ، يضاف إلى ذلك أن الرئيس بنيش قد قوى اعتقاده باستطاعة التعاون مع الاتحاد السوفيتى دون أن يعرض بلاده لخطر الشيوعية ، وكان اعتقاده هذا قائماً على أن الدول الغربية الكبرى تستطيع أن توقف نزعات الشيوعية العدوانية عند حد معين ، وعلى أنه يستطيع أن يقطع الطريق على الشيوعية فى داخل بلاده بما يتحراه من وجوه الإصلاح الاقتصادى والاجتماعى بعد الحرب . . .

ومهما يكن حكم الأجيال القادمة على هذه الآراء ، فإنها قد مهدت السبيل للدبلوماسية السوفيتية التى كان عليها أن تقنع الحكومة التشيكوسلوفاكية فى المنفى بأن الاتحاد السوفيتى لا ينوى ألبتة الاستيلاء على تشيكوسلوفاكيا ؛ وقد أفضى الرئيس بنيش إلى المستر إيدن « بأنه مصدق لما وعدته به حكومة الاتحاد السوفيتى ، وأنه بحكم تجاربه السابقة ليس عنده ما يحمله على الشك فى الوعد السوفيتى » ولذا لم يلق مولوتوف صعوبة تذكر فى إقناع حكومة المنفى ، وقد تغلب دفاعه القوى عن المعاهدة التى اقترحت حكومة السوفيت عقدها مع تشيكوسلوفاكيا على اعتراضات الدول الغربية ؛ وذلك فى مؤتمر وزراء الخارجية الذى عقد بموسكو فى شهر أكتوبر من سنة ١٩٤٣ .

وقد عقدت فى موسكو معاهدة صداقة بين الحكومة السوفيتية وحكومة تشيكوسلوفاكيا فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٤٣ ، نصت المادة الزابعة منها على ألا تتدخل إحدى الحليفتين فى شئون الحليفة الأخرى الداخلية ؛ وقد تألفت بعد ذلك الحكومة التشيكوسلوفاكية وأعلن تأليفها فى ٥ أبريل سنة ١٩٤٥ وأصر الشيوعيون على أن يكون لهم وزارتا الداخلية والاستعلامات ، والإشراف الفعلى على الجيش والشئون الخارجية ؛ وقوى مركز الشيوعيين حينما تريثت الجيوش الأمريكية فى تقدمها وسمحت للجيش الروسى بتحرير براج !

وما تلا ذلك من الحوادث فى تشيكوسلوفاكيا معلوم ، فقد استطاع الشيوعيون أن يوطدوا سلطانهم فى تشيكوسلوفاكيا تحت ستار المعاهدة المعقودة بينهم وبينها ؛ ولم يكن هناك تدخل مكشوف حتى سنة ١٩٤٧ ، وفى ذلك التاريخ طلب ستالين إلى تشيكوسلوفاكيا أن ترفض الدعوة إلى حضور مؤتمر مشروع المساعدات الأمريكية المعروف بمشروع مارشال ؛ وكانت القوى الديمقراطية حينذاك قد فقدت نفوذها واستقلالها فى العمل ، وحينما انتوى الشيوعيون أن يقوموا بالانقلاب بعد ذلك بسبعة أشهر ، لم يصادفوا أية معارضة منظمة !

والدور الذى لعبته الدبلوماسية السوفيتية فى الاستيلاء الشيوعى على تشيكوسلوفاكيا واضح ، فقد استطاعت أن تحصل من حكومة المنفى التشيكوسلوفاكية على شروط يسرت لها ذلك ؛ وكانت المكانة التى بلغتها الدبلوماسية السوفيتية خلال فترة ما بين الحربين كافية لتسهيل

استيلاء المنظمات الشيوعية على مراكز رئيسية لم يكن اقتلاعها منها بعد ذلك أمراً ميسوراً ... .

ولم يكن الدور الذى لعبه بنيش خالياً كل الخلو من الحكمة وأصالة الرأى ؛ فمن المعلوم أن الشيوعيين فى تشيكوسلوفاكيالم تكن لهم قوة يخشى بأسها ، ولذا اضطروا إلى إحداث انقلاب خشية أن يخسروا خسارة حاسمة فى الانتخابات الحرة التى كان مزمعاً إجراؤها فى ربيع سنة ١٩٤٨ ، وإنما أخطأ بنيش إذ بالغ فى الاعتماد على الحلفاء الغربيين لوقف عادية الاستعمار الشيوعى وإيقاف الشيوعيين عند حدهم حينما أبرزوا اليد الحديدية من القفاز الحريرى !

وكان دور الدبلوماسية الشيوعية فى الاستيلاء الشيوعى على حكومات بلغاريا ورومانيا والمجر أكثر تعقيداً وأحفل بالصعوبات من الدور الذى لعبته فى تشيكوسلوفاكيا ؛ وقد تخللته مفاوضات طويلة بين حلفاء الغرب وهذه الدول ، وكان على الدبلوماسية الشيوعية أن تقنع حلفاء الغرب بأنها ليست لها أية أغراض عدوانية فى هذه الدول ، وأن تحصل منها فى الوقت نفسه على دوائر نفوذ ، وكان عليها فوق ذلك أن تحمل الحلفاء الغربيين بعد ذلك على قبول معاهدات الصلح التى عقدتها مع هذه الدول ، بعد أن أصبحت سيطرة الشيوعية عليها حقيقة واقعة !

والنظر إلى هذه الخطوات المتعاقبة يبين لنا دور الدبلوماسية الشيوعية باعتبارها آلة من آلات سياسة السوفيت الخارجية .

وكانت الخطوة الأولى دائماً هى إنكار أى غرض استعمارى ، وكان

الشيوعيون يذيعون هذا بطرق الدعاية المختلفة ، ولكن إعطاءه الصيغة الدبلوماسية كان يزيده قوة ، وكان إنكار هذا الغرض الاستعمارى يظهر فى صور متعددة : فى تسليمهم بميثاق الاطلانطيق فى سنة ١٩٤١ ، وفى توقيعهم على ميثاق الأمم المتحدة الذى ينص على احترام حقوق الناس جميعاً فى اختيار شكل الحكومة التى يؤثرونها ، ولما دارت المفاوضات فى أبريل سنة ١٩٤٤ لعقد الهدنة مع رومانيا ، أعلن مولوتوف وزير الخارجية أن حكومة السوفيت لاتنوى التدخل فى شئون رومانيا السياسية والاجتماعية إذا نفضت يدها من التحالف مع ألمانيا . وقد حدث هذا بعد أربعة أشهر ، وكان العهد الشامل الذى قطعته حكومة السوفيت على نفسها بعدم التدخل فى يالتا فى شهر فبراير سنة ١٩٤٥ ، إذ اتفقت روسيا والحليفتان الغربيتان على المساعدة فى تحرير الشعوب المحتلة بما فيها رومانيا وبلغاريا والمجر ، وعلى أن تشكل فيها حكومة مؤقتة تسندها برلمانات تمثل فيها العناصر الديمقراطية جميعها ، وأن تتعهد تلك السلطات الحكومية فى أقرب وقت ممكن بإنشاء حكومات تستجيب لإرادة الشعب عن طريق الانتخاب الحر .

وكل هذه المواثيق والعهود التى ارتبط بها مولوتوف وستالين كان لها تأثير قوى فى الحلفاء الغربيين ، وكانت عاملا هاماً فى الاعتراف بمناطق نفوذ للسوفيت فى الحكومات الثلاث .

وكانت الخطوة الثانية الهامة ، التى تخطوها الدبلوماسية السوفيتية — بعد إنكار النيات الاستعمارية — أشق وأصعب ، لأنها لم تكن تقتضى

مواثيق مؤكدة من الاتحاد السوفيتي فحسب ، بل كانت تقتضي أن يذعن لهم الغرب بطريق المفاوضات الدبلوماسية .

وكانت العقبة الأولى التي قامت في سبيل الدبلوماسية السوفيتية ، هي خطط بريطانيا لغزو يوجوسلافيا عن طريق إيطاليا ، ويوجوسلافيا تتاخم الدول الثلاث ، وحينما تقدم الإنجليز بهذا الاقتراح ، كان الجيش الروسي مشغولا برد الهجوم الألماني على ستالينجراد ، وكان تنفيذ هذه الخطة يعطل خطط الحكومة السوفيتية في البلقان ؛ ولذلك استعملت الحكومة السوفيتية كل ما في جعبتها من الحيل لإيقاف تنفيذ هذه الخطة ؛ وقد احتالت على ذلك بتأكيد ضرورة فتح الجبهة الثانية فوراً ، وأيدت بشدة العسكريين الأمريكيين في الاعتراضات التي وجهوها إلى الاقتراح البريطاني. والحقيقة أن الدبلوماسية السوفيتية لم تكن هي وحدها السبب في الإعراض عن هذه الخطة ، ولكنها مع ذلك لعبت دوراً كبيراً حتى أمكن الوصول إلى هذا القرار . . .

وحينما زال خطر غزو الغرب عن البلقان ، اتجهت الدبلوماسية الشيوعية إلى غرضها الأصيل ، فسعت بطريق المفاوضات للحصول على مناطق نفوذ ، وتضمنت المفاوضات بعض الاشتراطات التي سلمت بها الحكومات الديمقراطية ، وقد أسفرت هذه المفاوضات عن التسليم للشيوعيين باحتلال رومانيا وبلغاريا والمجر ، وعهد إلى البريطانيين العناية بأمر اليونان ، وأن تقتسم الحليفتان النفوذ في يوجوسلافيا بموجب هذا الاتفاق ؛ وكان للشيوعيين في الوقت نفسه منظمات شيوعية في إيطاليا



مولوتوف

واليونان قوية النفوذ عظيمة التأثير ، وقد مكنت هذه الاتفاقات الدبلوماسية للشيوعيين فى الدول الثلاث ، وظهر ذلك فى سير الحوادث التالية ظهوراً جدياً .

وقد اعترف الغرب بمناطق نفوذ للسوفيت فى الدول الثلاث فى الوقت الذى كانت تكتب فيه شروط الهدنة ، فصار هذا الاعتراف جزءاً من هذه المفاوضات ؛ وقد تحقق زعماء السوفيت أن موقفهم فى المساومة قد أصبح قوياً بعد نجاح الجيوش الروسية فى الدفاع عن ستالينجراد ، ولذا رغبوا فى أن يكون ضمن شروط الهدنة بعض الامتيازات التى تسمح لهم بالسيطرة على الرأى العام ؛ ولم يطرأ تغيير يذكر على هذه الشروط عند صياغة معاهدة الصلح الأخيرة .

وقد استغل السوفيت المكانة التى وصلوا إليها عن طريق المفاوضات فى أمر تكوين الحكومات المؤقتة بالدول الثلاث ؛ وقد استطاعت حكومة السوفيت فى أول الأمر أن تظهر فى الدول الثلاث بمظهر النائب الرسمى عن الديمقراطيات الغربية ، ووجد زعماء الديمقراطية فى تلك البلاد أنفسهم فى موقف حرج ، فهم إما أن يختاروا المقترحات السوفيتية أو يظهروا فى مظهر الذى لا يريد التحالف مع الدول المتحدة ؛ ومن أجل ذلك لم تجد الحكومة السوفيتية فى شتاء سنة ١٩٤٤ — ١٩٤٥ أية صعوبة فى أن تكون من الجبهات المتحدة حكومات يستولى فيها الشيوعيون على المراكز الرئيسية ؛ وخلال هذه الفترة الممتدة بين عقد الهدنة والصلح النهائى ، كان يمثل الاتحاد السوفيتى فى الأحزاب الشيوعية بالدول الثلاث عملاء

روسيون من الحزب الشيوعي فى الاتحاد السوفيتي .

وظل الشيوعيون يتخذون الدبلوماسية وسيلة أساسية ، حتى تم لهم تنفيذ أغراضهم ، ولو أنهم فى بعض الأحيان قد شجعوا على استعمال العنف لتكملة النصر قبل أن يفلت من أيديهم .

وإذا كانت الدبلوماسية السوفيتية قد حققت أهدافها الأصيلة فى مفاوضات الهدنة فإن الإنسان قد يتساءل : لماذا عنى الشيوعيون عناية كبيرة بالحصول على موافقة الديمقراطيات على ذلك فى معاهدات الصلح ؟ وسبب ذلك أن تكوين الجبهات الشعبية كان يستلزم الاستمرار فى خداع جماعة من الزعماء ممن كان لهم نفوذ سياسي قوى ، وحدوث خلاف ظاهر مع الحلفاء الغربيين كان لابد من أن يخلق أزمة سياسية تعوق استمرار الشيوعيين فى خطتهم قبل أن يستكملوا الاستيلاء على كل أسباب النفوذ فى الدول الثلاث ؛ يضاف إلى ذلك أن الدول الثلاث لم تكن تمثل سوى قطاع واحد فى الأهداف الشيوعية ، والتوفر على متابعة سائر تلك الأهداف فى جهات أخرى كان يستلزم الإبقاء على حسن العلاقات مع الغرب ، والإيهام بأن السياسة التى تسير عليها حكومة السوفيت مؤيدة من الديمقراطيات الغربية .

وقد خلقت رغبة الشيوعيين فى إنهاء مشروعات الصلح مع الدول الثلاث فرصة كافية للديمقراطيات للمساومة على تصحيح الأوضاع فى هذه البلاد ، وكان لا بد من إرغام الروسيين على التنازل عن بعض طلباتهم الخاصة أو تقليلها ؛ وكانت الصفة الديمقراطية للحكومات

المؤقتة فى الدول الثلاث هى أهم الموضوعات التى دار حولها الجدل فى مفاوضات الصلح الطويلة فى بوتسدام ، وفى اجتماعات مجلس وزراء الخارجية التى عقدت أربع مرات ، وفى مباحثات الصلح فى مؤتمر باريس ؛ وأصر الحلفاء الغربيون على أن قرارات مؤتمر يالتا لم تحترم ، وأن معاهدات الصلح التى تعقدها حكومات لم تنتخب انتخاباً حراً لا يمكن اعتمادها ؛ ووجد الدبلوماسيون السوفيتيون بعد مجادلات طويلة ، أنه لابد من عمل شىء لمواجهة هذه الاعتراضات ؛ ولذلك قبلوا بعض شروط فرضها عليهم الحلفاء ، ولكن هذه الشروط لم تكن لتؤثر فى المركز القوى الذى وصل إليه نفوذهم فى الدول الثلاث . . .

وكان من بين ما سلم به الشيوعيون ، إجراء انتخابات حرة فى المجر سنة ١٩٤٥ ، وقد أجل لمدة سنتين لتوطيد النظام الشيوعى وتدعيمه ؛ وكان كذلك فيما سلم به الشيوعيون تأخير الانتخابات فى بلغاريا ورومانيا ، والموافقة على دخول زعيمين من زعماء المعارضة الديمقراطية فى حكومتى الدولتين ؛ وكان لإجابة هذه الطلبات المتواضعة وقع حسن عند حلفاء الغرب ، فاعترفت الولايات المتحدة بحكومة المجر قبل إجراء الانتخابات ، واعترفت بحكومة رومانيا سنة ١٩٤٦ ، وبحكومة بلغاريا سنة ١٩٤٧ ؛ وكان باعث رغبة الأمريكيين فى إمضاء معاهدات الصلح بعد موافقات الحكومة السوفيتية الشكلية هو الأمل فى انسحاب جيوش الاحتلال السوفيتية ، وتسهيل إعادة الحريات السياسية ؛ ولكن هذا الأمل كان سراباً خداعاً ، لأن النفوذ الشيوعى حينذاك لم يكن بيد

الجيش السوفيتى وإنما كان فى يد الأحزاب الشيوعية ، وقد استطاع الشيوعيون بعد ذلك أن يوجدوا فى هذه الدول ديكتاتورية العمال ، أو البروليتاريا ، على نمط الحكومة الشيوعية ؛ ومما دل على أن تسليم حكومة السوفيت بشروط الحلفاء كان من الحيل الدبلوماسية ، أنه فى اليوم الذى أقر فيه مجلس الشيوخ الأمريكى معاهدة الصلح مع بلغاريا ، ألقى القبض على بتكوف زعيم المعارضة الديمقراطية وزج به فى السجن ؛ وكان أخذ حكومات الدول الثلاث بنظام ديكتاتورية البروليتاريا الشيوعى يخالف شروط الموافقة على احترام حقوق الإنسان التى قامت على أساسها معاهدات الصلح ؛ وقد أثار ذلك معارضة الدول الديمقراطية ، ولكن الدبلوماسية السوفيتية كانت قد نجحت فى حماية النظم الشيوعية ، وحولت جهودها بعد هذا النجاح إلى جهات أخرى . . .

وكان اتجاه هذه الجهود إلى بلاد اليونان ؛ وكان الموقف فى بلاد اليونان يختلف عن الموقف فى رومانيا وبلغاريا والمجر ، وكان الجيش البريطانى هو الذى يحتل اليونان ، وقد رمت الدبلوماسية الشيوعية هناك إلى تعطيل الانتخابات الحرة ، وإجلاء الجنود البريطانيين عن اليونان ، وتشويه سمعة الحكومة القائمة فى بلاد اليونان ؛ وكانت ترى أنها إذا تيسر لها ذلك أمكنها الاستيلاء على الحكم ، وكانت قد قامت فى بلاد اليونان حركة انقلاب شيوعى فى سنة ١٩٤٤ ، قضت عليها الجيوش البريطانية واضطرت جزءاً من الشيوعيين الذين كانوا يحاربون حرب عصابات إلى تسليم أسلحتهم وحل فرقهم ، ولكن جانباً كبيراً منهم سحبوا قواتهم إلى

الجبال المتاخمة لحدود ألبانيا ويوجوسلافيا وبلغاريا وتحصنوا بها ، ومن الناحية الأخرى كانت الحكومة المحلية تستكمل الاستعدادات للعودة بالبلاد إلى حالة الاستقرار السياسى والاقتصادى ، ووضعت لذلك القواعد اللازمة لإجراء انتخابات حرة تحت إشراف البريطانيين والأمريكيين والفرنسيين والسوفيت ، لضمان حرية الانتخاب ، وقد رفضت حكومة السوفيت الاشتراك فى هذه الانتخابات التى أجريت يوم ٣١ مارس سنة ١٩٤٦ ؛ وقد ترك لها هذا الرفض حرية عدم الاعتراف بحكومة اليونان الجديدة ، وأخذ الشيوعيين يذيعون عن هذه الحكومة فيما بعد أنها حكومة ملكية فاشية !

وفى الوقت نفسه بدأت الدبلوماسية الشيوعية حملة فى الأمم المتحدة لسحب القوات البريطانية من اليونان ، وقدمت فى ذلك شكوى لمجلس الأمن فى يناير سنة ١٩٤٦ ، وقدمت حكومة أوكرانيا السوفيتية شكوى مماثلة فى أغسطس من السنة نفسها ، وكان مضمون الشكوى الأولى أن وجود الجيوش البريطانية فى اليونان يهدد السلم ؛ ومضمون الشكوى الثانية أن سياسة حكومة اليونان الرجعية هى سبب الحرب الداخلية الناشئة ؛ ولم يوافق مجلس الأمن على الشكوتين ؛ ولما اقترحت الولايات المتحدة إرسال لجنة للتحقيق فى الشكوى الثانية ، صوتت حكومة السوفيت ضد الاقتراح !

ولم تنجح الدبلوماسية السوفيتية فى زعزعة مركز الحكومة الجديدة القائمة على الانتخابات الحرة ، ولا فى حمل البريطانيين على سحب جيوشهم

من اليونان ؛ ولكن الموقف تغير حينما بدأت حرب العصابات الشيوعية من جديد ، وظفرت بمغانم هامة فى صيف سنة ١٩٤٦ وخريفها ؛ وكان جيران اليونان الشماليون يمدون هذه العصابات بالذخائر والأسلحة ؛ وقد شنت هذه العصابات غارات شعواء على القرى والمدن ، وكانت تنسحب إلى الحدود الشمالية حينما يقترب منها الجيش اليونانى ؛ وإزاء ذلك قدمت الحكومة اليونانية نفسها شكوى إلى مجلس الأمن ، أوضحت فيها أنه على حسب نص المادة الرابعة والثلاثين من ميثاق الإطلانطيق قد خلقت هذه المساعدة التى تقدم للعصابات المعتدية موقفاً يهدد السلم ؛ فاقترحت الولايات المتحدة مرة ثانية إرسال لجنة للتحقيق ؛ وفى هذه المرة وافق الاتحاد السوفيتى على ذلك ؛ على أن هذه الموافقة لم تتم إلا بعد الحصول على تغيير واضح فى الشروط المقترحة لعمل اللجنة ؛ إذ كانت توصية الأمريكيين أن تستوثق اللجنة من الحقائق الخاصة باختراق الحدود ، ولكن التعديل الذى رأى الشيوعيون إدخاله ، وسع الموضوع وجعله يشمل الحقائق والأسباب الداعية إلى وقوع الاعتداءات على الحدود وطبيعتها ؛ وبإدخال هذا التغيير أمكن أن يكون التحقيق وسيلة لزعزعة مركز الحكومة اليونانية غير المستقر ؛ وقد تناول التحقيق اعتداءات الحدود ، والحكومة اليونانية ذاتها ؛ واستعانت حكومة السوفيت بالدعاية الشيوعية ، فأسفر التحقيق عن أن تهمة الاعتداءات عارية من الصحة ، وأن الحكومة اليونانية هى سبب المتاعب والاضطرابات ؛ ولكن مطالب الحكومة السوفيتية رفضت فى الجمعية العمومية لهيئة الأمم ،

وقد أخفقت فى ذلك الدبلوماسية الشيوعية ، ولكن انتصار الغرب الحقيقى فى اليونان لم يتم عن طريق الدبلوماسية الغربية ، وإنما تم عن طريق تقديم المساعدة الحربية والاقتصادية للجيش اليونانى . . .

وقد تحرينا فى هذا الفصل بيان الطريقة الدبلوماسية التى تسير عليها الحكومة السوفيتية جنباً إلى جنب مع الخطط الشيوعية الأخرى ، وبخاصة المنظمات الشيوعية والجيش الشيوعى نفسه ؛ وترمى هذه الوسائل جميعها إلى التوسع الشيوعى ؛ وواضح مما تقدم أن الدبلوماسية الشيوعية على براعتها فى اغتنام الفرص وإدارة المفاوضات لم تكن وحدها سبيل الفوز للسياسة الشيوعية ؛ فقد كانت مساعدة الجيش واستعمال القوة والعنف لازمة ؛ وليس معنى ذلك أن الدور الذى لعبته الدبلوماسية السوفيتية كان قليل الأهمية ضعيف الأثر ، أو أن نجاح الشيوعيين فى مد حدودهم وتوسيع دائرة نفوذهم كان يمكن أن يتم بغير مساعدة الطرق الدبلوماسية .

وقد كان استدراج الديمقراطيات الغربية للموافقة على تنفيذ أغراض الشيوعية فى الجهات التى اتخذتها مناطق نفوذ دون أن تدفع فى ذلك ثمناً يذكر ، وحملها على إقرار معاهدات الصلح من عمل الدبلوماسية السوفيتية.

ولكن الدبلوماسية السوفيتية على ما يبدو ، برغم المكانة المرموقة التى بلغتها قد استنفذت طاقتها وانكشفت حيلها وألاعيبها ، وقد وعى الغرب الدروس التى تلقاها والتجارب التى مر بها ، وأصبح ساسة الغرب لا يشكون فى أساليب السوفيت الدبلوماسية فحسب ، بل ينفذون إلى ما وراءها ويتبينون الخطوط الرئيسية للسياسة السوفيتية ، وهى الرغبة فى الاستيلاء على العالم ، ليكون عالماً شيوعياً خالصاً ، خاضعاً للإدارة المركزية فى موسكو !

الشيوعية فى البحر المتوسط

منذ وطدت روسيا قدميها على شواطىء البحر الأسود فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وهى تبذل الجهد وتعمل الحيلة وتتحين الفرص للوصول إلى البحر الأبيض خلال المضيقين اللذين يفضيان إليه ، وهما مضيق البسفور ، ومضيق الدردنيل ، وقد ظلت العلاقات بين روسيا وتركيا منذ أكثر من قرنين تدور حول هذا المحور ، فالروسيون يريدون أن تكون لهم حرية المرور من المضيقين وتحريم ذلك على غيرهم ، والترك يأبون إلا أن يجنبوا بلادهم خطر النتائج التى تترتب على مرور السفن الروسية من هذين المضيقين ؛ وكان السعى لتحقيق ذلك هو الدافع إلى الحروب الكثيرة المتوالية التى وقعت بين الروس والأتراك ؛ وكادت روسيا فى بعضها تظفر بالمضيقين ، لولا الأسطول البريطانى وكان ذلك فى سنة ١٨٧٦ — ١٨٧٧ ، أوائل عهد السلطان عبد الحميد . . .

وقد ظل البريطانيون يقاومون رغبة الروس فى الاستيلاء على المضيقين مقاومة متصلة ، حتى الحرب العالمية الأولى ! وفى الوقت الذى أوشكت فيه روسيا أن تنال بغيتها المشتهاة على أساس اتفاق سرى بينها وبين الحلفاء فى سنة ١٩١٥ ، نشبت الثورة الروسية وحدث الانقلاب الشيوعى ... وظلت روسيا صابرة مترقبة ، حتى سنة ١٩٤٥ ثم أخذت تسترهب

الأتراك لترغمهم على فتح باب المفاوضة فى مسألة المضيقين ، ولكن الأتراك ثبتوا فى موقفهم ولم يتفزعوا من الإرهاب الروسى ، وقوّى ظهرهم بتأييد بريطانيا والولايات المتحدة لهم فى موقفهم ، فلم يوافقوا إلا على إعادة النظر فى معاهدة مونتريه ، واستشارة الدول التى اشتركت فى التوقيع عليها وأقرت وضع المضيقين تحت سيادة تركيا . . .

وقد حاولت روسيا الشيوعية بعد ذلك أن تجدد الضغط على الأتراك فى هذه المسألة ، ولكنهم ظلوا ثابتين فى موقفهم ؛ وبطبيعة الحال لن يكف الروسيون عن إثارة مسألة المضايق فى المستقبل . . .

ولا نزاع فى أن ثبات الأتراك فى موقفهم يرجع بعض أسبابه إلى التأييد الذي لقوه من الولايات المتحدة فى صورة مساعدات إقتصادية حربية لهم ولليونان ؛ ولبلاد اليونان أهمية واضحة فى مسألة المضيقين ، لقرب الجزر اليونانية فى بحر إيجة منهما . . .

وقد حاول الروسيون الوصول إلى البحر المتوسط عن طريق يوجوسلافيا ، وطمعوا فى الاقتراب من إيطاليا وصقلية ؛ واقترن ذلك بطلبهم الوصاية على ليبيا ؛ ولو أن ذلك تحقق لهم لكانوا قد استطاعوا الالتفاف حول المضيقين وهددوا أمن قناة السويس . . .

ويتصل بذلك محاولة السوفيت الالتفاف حول الجناح التركى من الشرق ، عن طريق تشجيع الحركة الانفصالية فى أذربيجان ، وإثارة حرب الأعصاب على تركيا بطلب إلحاق الولايتين التركيتين : قارص ، وأردهان بروسيا ؛ وكان الروسيون قد انتزعوا هاتين الولايتين

من تركيا فى سنة ١٨٧٨ ثم أعادوها إليها بعد الثورة .

أما فى إيران فقد لقى التحدى السوفيتى مقاومة من الولايات المتحدة وإنجلترا فى سنة ١٩٤٦ — ١٩٤٧ ولكنه ما يزال مع ذلك مستمراً ، وقد استوجب ذلك اليقظة التامة من الحكومة الإيرانية ، حتى لا تكتسح بلادها موجة الشيوعية ؛ وقد كشفت المحاكمات الأخيرة فى إيران عن مدى تدخل الشيوعيين فى شئون البلاد ، وقد قابل الحلفاء هذا التحدى بشد أزر حكومة إيران ، وتقوية تركيا بالمساعدات المتوالية التى تقدمها لها الولايات المتحدة .

وقد أصبح الجيش التركى قوياً منيع الجانب ، كما عنيت بريطانيا بتقوية قاعدتها الحربية فى قبرص لتأمين تركيا وحمايتها ؛ ووراء ذلك يكمن الأسطول البريطانى والأسطول الأمريكى فى البحر المتوسط ، وقواعد الطيران فى شمال أفريقيا على امتداد الساحل من طرابلس إلى مراكش ...

وقد نجحت هذه الجهود لصد التحدى السوفيتى فى شرقى البحر المتوسط ، ولكن لا يزال هناك ناحية لها خطورتها ، هى ناحية إيران والدول العربية ! والصراع فى إيران بين الشيوعية وأعدائها على أشده ، ولكن كفة مقاومة الشيوعية على ما يبدو هى الراجحة حتى اليوم ؛ ووجود النفط فى منطقة الدول العربية يجعل لها أهمية خاصة بالنسبة لدول الغرب ، وجهود الشيوعيين فى هذه المنطقة قائمة على أساس تقويض النفوذ البريطانى ومقاومة النفوذ الأمريكى الذى يحاول فى الوقت الحاضر أن يحل محل النفوذ البريطانى . . .

ولما اتسعت هاوية الخلاف بين البريطانيين والإيرانيين منذ عامين ، اعتقد الشيوعيون أن الزمن فى صفهم ؛ وزاد الأمر خطورة وجود دولة إسرائيل ، إذ أحدث شكاً فى نفوس الدول العربية من ناحية نيات الغرب ليس من السهل إزالته ؛ كما كان إجلاء نحو المليون من الأهالى العرب عن بلادهم ليستوطنها اليهود مساعداً على إيجاد حالة من القلق وعدم الاستقرار والنقمة على الحلفاء الغربيين فى هذه المنطقة من شأنه أن يساعد على تحقيق أغراض الشيوعية . وكل محاولة يمكن أن يبذلها الغرب للاستعانة بالدول العربية على صد التيار الشيوعى فى هذه الناحية لا يمكن أن تؤدى إلى نتيجة ما دامت إسرائيل قائمة تُذكّر العرب فى كل لحظة بمدى غدر الحلفاء الغربيين ؛ ومن الواضح أنه لا يمكن استدراج العرب بالضغط والإكراه أو بالخيانة والخداع للمساعدة ؛ وإنما يتحقق ذلك بالتعاون المنتج والنية الحسنة والصداقة الخالية من الشوائب ومراعاة مصالح تلك الدول ، والتكفير عن سيئات الماضى ، وأول هذه السيئات وجو إسرائيل ؛ ولا بد من التفاهم مع الدول العربية فى حدود الاحترام والتقدير.

ولا نزاع فى أن البريطانيين قد بدءوا يحسنون السياسة بالإقلاع عن تعنتهم القديم فى مسألة الجلاء عن منطقة قناة السويس ، وإعادة النظر فى سياستهم الاستعمارية بوجه عام ؛ كما بدأت الولايات المتحدة تحس بمدى الخطأ الذى تورطت فيه بمساعدة الصهيونية ؛ فلو أن حليفتى الغرب : بريطانيا ، والولايات المتحدة ، قد سارتا شوطاً آخر فى التكفير عما قدمتا من إساءة فى الماضى إلى العرب والمسلمين ؛ ولو أنهما تخلتا

عن تأييدهما للبغى الصهيونى وحمايتهما للصهيونية ، لوجدتا المعونة الصادقة من العرب لصد الزحف الشيوعى الذى كان قيام إسرائيل أعظم فرصة مهدت له السبيل فى هذا الجانب من العالم العربى !

وقد أصبحت الدول العربية حريصة على استقلالها وكرامتها ، فهى لا تطيق منذ اليوم أن تكون تحت وصاية أحد ، ولا أن يفرض عليها أحد سياسة خاصة وخطة مرسومة ؛ وهى تؤثر أن توجه سياستها حسبما تقتضية مصلحتها وتستلزمه أمانيها وتطلعاتها ؛ والشرق العربى مهد الديانات الموحدة والرسالات الروحية ، فلن تجد فيه الشيوعية منفذاً إلا إذا ساءت أحواله الاقتصادية ، واضطربت نظمه السياسية ، ونمت بذور السخط والكراهية التى غرسها الاستعمار والصهيونية .

وثقافة هذه المنطقة متصلة بثقافة الغرب اتصالا وثيقاً ، على ما بين الثقافتين من وجوه الخلاف ، وهناك تأثير متبادل بين الثقافتين ، وقد شاركت هذه المنطقة بقسط وافر فى تكوين الثقافة الغربية ؛ والشرق الأدنى هو الجسر بين الغرب والشرق الأقصى ، ولهذا يهم الغرب ويعنيه ألا يقع هذا الموقع الاستراتيجى فريسة للشيوعية والاستعمار الروسى !

الشيوعية والصهيونية

لمس الفيلسوف « نيتشه » فى القرن التاسع عشر العلاقة الوثيقة بين الشيوعية والصهيونية حين قال فى إحدى كلماته اللامعة :

« إن المفكر الذى يهمه أمر أوربا ويطيل فيه التفكير ، تكشف له نظراته إلى المستقبل أن اليهود والروس سيكونان أهم العوامل فى رواية المستقبل العظيمة وصراع القوى المنتظر ! » .

لقد كشف نيتشه بهذه الكلمة عن الصلة الخفية بين الصهيونية والشيوعية ، والشيوعية كما أشرت فى بعض الفصول السابقة ، هدفها السيادة العالمية ، وهذ هو نفسه هدف الصهيونية ؛ ومن ثم كان بين الشيوعية والصهيونية آصرة قربى وحلف لا ينفصم ؛ فقد وحدت بينهما الأهداف وتسلطت عليهما فكرة السيطرة على العالم والبشر جميعاً !

وقد طغت فكرة السيطرة اليهودية على العالم من زمن بعيد ، وبجاها اليهود فى قوانينهم السرية ، وهم يعتقدون أنهم وحدهم شعب الله المختار ، أما بقية الناس فقد خلقهم الله ليسخروا فى خدمة إسرائيل ، شعبه المختار الحبيب ؛ وهم ينتظرون فى صبر ذلك اليوم الموعود الذى تذل فيه الرقاب وينقاد لهم الناس طواعية أو مرغمين !

وهذا ما يجول فى نفوس الشيوعيين وما يحدث به الصهيونيون أنفسهم فى خلواتهم وتنم عليه نياتهم ويعلنونه فى بعض الأحيان فى كتبهم وصحافتهم

ولم يكن من قبيل المصادفة أن زعيم الشيوعية الأكبر وواضع أسسها ، هو الحبر الأعظم كارل ماركس اليهودى المتعصب ، والذى كان يمثل فى حياته الخاصة والعامة كل ما تنطوى عليه نفوس بعض اليهود من كراهية لسائر طوائف البشر ، وحقد شديد عليها ، ورغبة فى الانتقام منها والقضاء عليها . . .

وقد اعترف الصهيونيون أنهم أول من نادى بالشيوعية ، فمجلة أفريكان هيبرو ، وهى من كبريات المجلات اليهودية الأمريكية ، تقرر فى عددها الصادر يوم ١٠ سبتمبر سنة ١٩٢٠ أن « الثورة الشيوعية فى روسيا كانت من تصميم اليهود ، وأنها قامت نتيجة لتدبير اليهود الذين يهدفون إلى خلق نظام جديد للعالم ، وأن ما تحقق فى روسيا كان بفضل العقلية اليهودية التى خلقت الشيوعية فى العالم ، ونتيجة لتدبير اليهود ، ولسوف تعم الشيوعية العالم بسواعدهم ! » .

وأنصار الشيوعية فى العالم معظمهم أنصار الصهيونية ، وقد تبين ذلك بأجلى بيان فى الإحصاء الذى أجرته السلطات الأمريكية ، وظهر لها منه أن تسعين فى المائة من أعضاء الحزب الشيوعى الأمريكى من غلاة الصهيونيين ، وأن الموظفين الذين فُصلوا من الخدمة بتهمة الشيوعية كان من بينهم ١١٨ يهودى من ١٣٠ ، وأن رئيس تحرير جريدة أمريكان فرى وركر » الشيوعية هو اليهودى راجستر . . .

وعلى أثر قيام الثورة الشيوعية فى سنة ١٩١٧ حكم روسيا مجلس مكون من عشرة أعضاء ، كان بينهم ستة من اليهود !

وصهر ستالين ، وبريا الذى كان رئيساً للشرطة السرية ، وشفرنك

رئيس جلسات مجلس السوفيت الأعلى – كلهم من اليهود ! .

وكان ستالين متزوجاً من يهودية ، وكذلك فورشيلوف ، ومولوتوف ، كلاهما متزوج من يهودية ؛ وفى بعض الروايات أن ستالين نفسه كان من أصل يهودى ، وقد ذكر إمان راجوزا فى كتابه عن حياة ستالين ، أن جدته لأمه كانت يهودية ، وأربعة من أصحاب المراكز الرئيسية فى مجلس السوفييت الأعلى من اليهود ، وهم رئيس الجلسات شفرنلك ، وجوركن السكرتير ، ونائبا الرئيس : كرشنستاين ، وفارز !

ومن الشخصيات البارزة فى الاتحاد السوفيتى ، اليهودى إليا أهرنبرج ، وهو لسان حال الكرملين وداعيته المشهور ؛ واليهودى سولومون لوزفسكى مدير الاستعلامات ، وجورشن وزير العدل ، وريزر وزير منشآت الصناعة الضخمة وفومن وزير المنشآت الصناعية الآلية ، ولافر نتيف نائب وزير الخارجية ، وكاكتانوف وزير التعليم ، وغيرهم ، وهم جميعاً من اليهود !

ومن أقوال الزعيم الإسرائيلى موش سنيه فى جريدة «جويش كرونكل» اللندنية : « كل يهودى يعلم فى أعماق نفسه من كان أعظم أصدقائه وأحرصهم على صداقته . . . إنه الجمهورية السوفيتية » .

وقد ذهب ج. رينولد أبعد من ذلك ، فقال فى جريدة « صوت اليهود » التى تصدر فى كاليفورنيا : « ولا أستطيع أن أتصور يهودياً يقوم بدور العدو للاتحاد السوفيتى ، ومثل هذا اليهودى شىء شاذ غير طبيعى ، وتشويه لكل شىء لائق وحق ! » .

وسبعة من المجلس الشيوعى فى بولندا يهود ، تحت ديكتاتورية اليهودى



بريا : صهيونى ، شيوعى ، قاد حملات الإرهاب ، وراح ضحية الإرهاب !

جالوب برمان ؛ وعدد الأعضاء جميعهم لا يتجاوز أحد عشر عضواً !

وفى المجر الديكتاتور اليهودى راكوزى .

وفى تشيكوسلوفاكيا الدكتاتور الشيوعى هو اليهودى سلانسكى .

وفى رومانيا الدكتاتورة الشيوعية هى أننا بوكر اليهودية .

وديكتاتور أوكرانيا اليهودى مانولسكى !

ومعظم الذين اتهموا بالجاسوسية الشيوعية فى كندا ، من الكنديين اليهود؛ وقد حكم بالسجن على اليهودى الكندى الشيوعى روز ، وكان منظم الحزب الشيوعى فى كندا ، لاتهامهما ببيع أسرار القنبلة الذرية لروسيا !

وصاحب جريدة « الديلى وركر » الأمريكية هو الإسرائيلى راجنستر وهو يسمى نفسه الآن جون جيتز ؛ ورئيس التحرير اليهودى بارت !

وكان قادة إضراب عمال الموانى فى إنجلترا سنة ١٩٤٩ سبعة من اليهود؛

وفى الهيئة التنفيذية للحزب الشيوعى الفرنسى أربعة من اليهود !

والشيوعى الأول فى جنوب أفريقيا ، اليهودى سام كوهى !

وفى عهد روزفلت كان اليهودى جرهارت أيسلر كثير الزيارة للبيت الأبيض ، وكان جاسوس الحكومة السوفيتية فى الولايات المتحدة ، وقد تمكن من الهرب إلى بريطانيا ، واختير بعد ذلك للإشراف على رقابة الصحافة فى المنطقة الروسية بألمانيا !

ورئيس جماعة أنصار السلام ، هو اليهودى جوليوت كورى ، وهو المشرف على الحركة فى فرنسا ؛ والفنان الذى رسم حمامة السلام لجماعة أنصار السلام ، هو الشيوعى الأسبانى بابيلو بيكاسو ؛ ورئيس حركة

السلام فى الأرجنتين ، هو الشيوعى الطبيب النفسى الدكتور برمان ؛ ورئيس جماعة السلام فى المنطقة الروسية بألمانيا، هو اليهودى أرنولد زفايج ؛

وقد وقعت فى يناير سنة ١٩٥٠ حادثة مضحكة كشفت عن طبيعة حركة السلام التى يشجعها الشيوعيون ، فقد خطب الأستاذ هيجو هكمان وهو من حزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى ، وحث الألمان على التزام الحياد فى المعركة التى تقع بين الشرق والغرب ؛ فعاقبه زعماء الحزب الشيوعى فى ألمانيا الشرقية بالتطهير ، واتهموه بأنه من دعاة الحرب !

ومما يوكد كراهة الشيوعية للأديان وضيقها بالعقائد التى تخالفها قول لوناشارسكى الذى كان يوماً ما وزيراً للتعليم فى حكومة السوفيت « نحن نكره المسيحية والمسيحيين ، وحتى أحسن المسيحيين خلقاً نعده شر أعدائنا ، وهم يبشرون بحب الجيران والعطف والرحمة وهذا يخالف مبادئنا ، والحب المسيحى عقبة فى سبيل تقدم الثورة ؛ فليسقط حبنا لجيراننا فإن ما نريده هو الكراهية والعداوة وحينذاك نستطيع غزو العالم » وهذا هو مذهب الصهيونيين فى كراهتهم لسائر البشر وإضمار العداء للإنسانية والعمل على استعبادها وإذلالها ، ليصبح اليهود الطبقة الحاكمة المسيطرة المستأثرة بخيرات الدنيا !

ولا نزاع فى أن هناك أقلية من اليهود تعارض الشيوعية والصهيونية، ولكن هذه الفئة القليلة منبوذة من الأكثرية الساحقة ولا تأثير لها فى الطائفة...

. وقد اشترك كثيرون من أعيان اليهود فى تمويل الثورة الشيوعية سنة ١٩١٧ ، منهم جاكوب شف ، وجوجنهايم ، وماكس بريتونج ، وأوتو كان وغيرهم !

وقد صرح الأستاذ لاسكى الكاتب البحاثة السياسى اليهودى الذى توفى منذ سنوات قليلة ، فى كلمة ألقاها فى كارديف يوم ١٢ مايو سنة ١٩٤٦ ، أنه لو خير هو وأعضاء الحركة العمالية فى إنجلترا بين أمريكا وروسيا لاختاروا جميعاً الاتحاد السوفيتى وأسندوا ظهره !

وقد كتب الدبلوماسى السوفيتى السابق ثيودور يوننكو الذى هرب من رومانيا سنة ١٩٣٨ ، فى جريدة « جورنال ديطاليا » يوم ١٧ فبراير سنة ١٩٣٨ يقول : « لقد وعد البلشفيك العمال بإعطائهم المصانع والمناجم وجعلهم سادة البلاد ؛ والواقع أن العمال لم يعانوا ضروباً من الحرمان كالتى ذاقوها فى العهد المسمى عهد الاشتراكية ، وقد ظهر فى مكان الرأسماليين السابقين طبقة بورجوازية جديدة كلها من اليهود ، وقد أصبحت الصناعات الضخمة والمصانع الحربية والسكك الحديدية والتجارة جميعها فى يد اليهود » .

وقد استطاعت الاتحادات التجارية فى البلاد الرأسمالية أن تحد من جشع اليهود وسعيهم للحصول على الأرباح الباهظة ، وصانت حقوق العمال ودافعت عن مصالحهم ؛ أما فى النظام الشيوعى الذى يقابل الإضراب بإطلاق الرصاص ، فقد انعكس الأمر وأصبحت الاتحادات التجارية وسيلة لاستغلال العمال ولزيادة ساعات العمل وإنقاص الأجور .

وقدم الاستاذ هانزبت — أحد أساتذة جامعة كورنل ومن كبار علماء الذرة ويجرى فى عرقه دم يهودى — طلباً لحكومة الولايات المتحدة يوصيها بعدم استعمال القنبلة الهيدروجينية ضد روسيا إلا بعد أن تبدأ روسيا بإلقائها على الولايات المتحدة !

وقد أوضح الدكتور كلاوس فوخس للسلطات البريطانية سنة ١٩٤٠ أنه يعطف على الشيوعية ومع ذلك ظلت بريطانيا والولايات المتحدة تستخدمانه فى الأعمال الذرية الخفية حتى اعتقل وحوكم بتهمة التجسس فى سنة ١٩٥٠ ؛ ومثله اليهودى بونتكورفو ، أحد الثقات النوادر فى الأشعة الكونية والقنبلة الهيدروجينية ، وكان قد تجنس بالجنسية البريطانية وعرف آخر ما وصل إليه البريطانيون والأمريكيون والكنديون فى هذا الموضوع فلما أتم بحوثه حملها وهرب إلى موسكو فى سبتمبر سنة ١٩٥٠ .

يظهر مما تقدم أن الشيوعيين فى العالم بأسره يتعاونون مع يهود العالم فى دعم الشيوعية ، واليهود يتخذون الشيوعية وسيلة للتغلب على العالم والوصول إلى السيطرة وتسخير الموارد العالمية وفق أهوائهم ، وقد رأينا فى مصر نفسها أن الثرى اليهودى الصهيونى كوربيل هو الذى يموّل الحركة الشيوعية . . .

والخطر الصهيونى نوع من الخطر الشيوعى ، فالأهداف واحدة ، والعقلية واحدة ، ومن أجل ذلك نشطت الهيئات والجماعات فى مختلف العالم لتحذير الحكومات والشعوب من خطر الصهيونية والدعوة إلى محاربتها ؛ ولكن الصيحات التى يرسلها المخلصون الذين وضعوا أيديهم على مكمن الداء تذهب مع الريح أمام سلطان المال الذى يعده الصهيونيون أخطر أسلحتهم ، واليهود مع ذلك لا يكتفون بالسيطرة على الحركة المالية فى العالم ، بل تترامى آمالهم وتحدثهم أنفسهم بأكثر من ذلك وأخطر ، وهو السيطرة على النفوس البشرية ، وهم الذين يثيرون الحروب لمصلحتهم ، ويحركون كوامن الأحقاد بين الفرق والجماعات ليصلوا إلى أهدافهم ؛ والشيوعية فى العصر الحاضر أخطر وسائلهم ، فهم يعملون خلفها ويستغلونها لمصلحتهم .

النشاط الشيوعى فى بلادنا

عرفنا فى بعض ما سبق ، الرابطة بين الشيوعية والصهيونية ، والأوهام التى تداعب رءوس الشيوعيين لبسط نفوذهم على حوض البحر المتوسط ، وعلى البلاد العربية بوجه خاص ؛ ومن أجل ذلك تبذل الشيوعية جهدها لتمكين أقدامها فى مصر ، والشام ، وتتخذ لها أوكاراً فى القاهرة ، ودمشق وبيروت ، وعمان ، وبغداد ، وبلاد عربية أخرى ، لتحقيق أحلام الصهيونية الشيوعية الماركسية المدمرة . . .

وقد استطاعت بعض هذه الأوكار فى بعض البلاد أن تحقق أغراضاً شيوعية فى المجال الذى تعمل فيه ، بالسيطرة على بعض الضعفاء والمنحرفين والمرضى بعقد النقص فى محيط الطلبة والعمال ومن إليهم من ناقصى الثقافات والجهال وذوى الغفلة والانقياد . . .

وليس غرض الشيوعية من السيطرة على هؤلاء غرضاً أصيلاً ، وإنما هى تريدهم نواة لتنظيمات شيوعية فى داخل هذه البلاد تأمل أن تنمو وتتسع دائرتها لإيجاد البذرة الثورية فى مجال أوسع وأضخم إذا حانت الفرصة...

وليس من غرضنا فى هذا البحث أن نفصّل مدى نشاط الشيوعية فى بلادنا ، وإنما نريد أن نلقى أضواء على بعض الجوانب لنكشف بعض المؤامرات التى تراد بوطننا وبديننا وبقوميتنا وبنظامنا الاجتماعى ، لتنقلنا إلى مرحلة أخرى من مراحل الاستعمار تكون فيها تابعين لسادة موسكو . . .

من أجل ذلك نكتفى بالحديث عن بعض النشاط الشيوعى فى مصر ، كنموذج لمحاولات أخرى من النشاط الشيوعى فى البلاد العربية .

النشاط الشيوعى بمصر فى الوقت الحاضر ، سرّىّ ، ومفكك ، وتوجد عدة منظمات تتهم كل منها غيرها بالانحراف عن الأسس الشيوعية . . .

ويتزعم هذه المنظمات الشيوعية فى مصر بعض الإسرائيليين ، يقيم أكثرهم فى الوقت الحاضر بالخارج ، وهم من اليهود الذين كانوا فى مصر واعتقلوا فى أثناء حرب فلسطين ثم أبعد بعضهم وطلب بعضهم التصريح له بمغادرة البلاد بصفة نهائية فسمح له بذلك ؛ ويقيم بعضهم فى الوقت الحاضر بفرنسا ، وبعضهم فى إيطاليا ، وبعضهم فى إسرائيل . . .

وقد ضُبطت فى بعض قضايا الشيوعية فى مصر أوراق وتقارير ومكاتبات تثبت أن النشاط الشيوعى فى مصر يدار من الخارج ؛ فقد عثر بتاريخ ٣ — ١١ — ١٩٥٣ بمسكن بعض المتهمين بالشيوعية على كثير من التقارير الواردة إليه من هنرى كوربيل الإسرائيلى ، تحوى تعليمات للشيوعيين فى مصر . . .

كما عثر مع ناعومى كانيل الإسرائيلية التى قبض عليها فى اليوم نفسه على تقارير شيوعية واردة لها من الخارج ، وبعضها من إسرائيل . . .

وضبط بالقاهرة فى يوم ٤ — ١٠ — ٥٤ مع هنرى فيتا كوهين — وهو إسرائيلى كذلك — تقارير عن النشاط الشيوعى فى مصر كانت معدة لإرسالها للخارج . . .

وعثر مع زميله جوزيف دافيد أوزمو — الإسرائيلى أيضاً — على كثير من التقارير الواردة له من هنرى كوربيل فى تواريخ مختلفة ، وتحوى

توجيهات للشيوعيين فى مصر !

وقد ضبطت السلطات الإيطالية بميلانو فى أواخر سنة ١٩٥٠ خلية شيوعية يكوّنها بعض الإسرائيليين الذين كانوا يقيمون فى مصر ثم غادروها وأقاموا هناك ، وثبت من الأوراق المضبوطة أنهم كانوا يديرون بعض المنظمات الشيوعية فى مصر ، وأنهم على صلة بالهيئات الشيوعية فى كل من إيطاليا وفرنسا ؛ كما تبين أن لهم زملاء من الإسرائيليين يقيمون فى فرنسا ويعملون لتصيد الشبان المصريين الذين يسافرون إليها لطلب العلم !

وقد اعترف أحد الأشخاص الذين قبض عليهم فى إحدى القضايا الشيوعية بمصر أنه أقام بأوربا نحو ستة أشهر متنقلاً بين النمسا وإيطاليا وفرنسا على نفقة الشيوعيين هناك وبتوصية من الإسرائيلى هنرى كورييل !

وتصدر المنظمات الشيوعية فى مصر نشرات تتضمن مهاجمة نظام الحكم والقائمين على رأس الحكومة ، وهدفها تعبئة الشعور العام ضد الحكومة والعمل على قلب نظام الحكم وإقامة حكومة شيوعية تخضع لتوجيهات موسكو الصهيونية !

وينفذ الشيوعيون الخطة الشيوعية التى تقضى بالتسلل إلى مختلف الطوائف والهيئات بالطرق الآتية :

١ ـ التسلل إلى الاتحادات والنقابات المهنية والعمل على السيطرة عليها ، ثم توجيهها توجيهاً يلائم أغراض الشيوعية العالمية .

٢ ـ التغلغل فى منظمات الطلبة والعمل على تزعم تكتلاتهم ، واستدراج أكبر عدد منهم للإيمان بالشيوعية كوسيلة للإصلاح .

٣ ــ تكوين جبهات مع الهيئات المعارضة للحكومة يكون لها برنامج متفق عليه وهدفها القضاء على نظام الحكم .

وقد أثبتت محاكمات الجهاز السرى للإخوان أن علاقات كانت قائمة بين الشيوعيين والإخوان لتحقيق الغرض المشترك وهو تقويض نظام الحكم القائم فى مصر !

ويعمل الشيوعيون فى مصر فى الوقت الحاضر للوصول إلى هدفهم بالوسائل الآتية :

١ ــ إثارة الرأى العام ضد النظام القائم ، بتوزيع المنشورات وترويج الإشاعات المضللة .

٢ ــ إثارة الفلاحين ضد قانون الإصلاح الزراعى ومحاولة إقناعهم بفساده .

٣ ــ عرقلة الجهود التى تبذلها الحكومة لرفع المستوى الاجتماعى لأفراد الشعب ، بمحاولة إحداث إضرابات وحالات عدم استقرار ، وتحريض الطوائف على النهوض لمطالبهم .

وتحاول الشيوعية الدولية إقناع الرأى العام فى مصر ــ بواسطة منظماتها السرية ــ بتقدم الحياة ونهضة الشعوب فى البلاد التى طبقت فيها النظم الشيوعية ، وبأن سياسة الاتحاد السوفيتى والبلاد الشيوعية تهدف إلى حماية السلام العالمى ، فى حين يهدف المعسكر الغربى إلى قيام حرب عالمية أخرى ، وبأن الدول الشيوعية تحترم الأديان وتتسامح معها . . .

وتصدر مفوضيات البلاد الشيوعية فى مصر نشرات بعدة لغات توزع

على الجمهور ، كما أن الصحف والمطبوعات التى تصدرها المنظمات الشيوعية الدولية فى الخارج تصل بالبريد لأشخاص فى مصر من مختلف الطوائف والهيئات ، وتراقب الشرطة المصرية نشاطهم العلنى والمخبوء !

وتوجه الدعوات من وقت لآخر إلى الشباب المصرى لإرسال مندوبين لحضور المؤتمرات الشيوعية التى تعقد فى الخارج بدعوى أنها مهرجانات رياضية أو مؤتمرات عالمية أو اجتماعية . . .

وقد ازداد سخط الشيوعيين على النظام القائم فى مصر الآن بعد توقيع اتفاقية الجلاء ؛ إذ كانوا يستغلون توتر الموقف السياسى بين مصر وبريطانيا لبث دعاياتهم ، متظاهرين بالتطرف فى الوطنية والحماسة فى الدعوة إلى الكفاح الوطنى المسلح لتخليص مصر من الاستعمار ؛ فلما تم توقيع اتفاقية الجلاء صارت دعاياتهم كلها تنديداً بها ومهاجمة للذين ارتضوها من المصريين . . .

وقد وردت أخيراً إلى إدارة الأمن العام فى مصر معلومات تفيد أن مندوبين عن الهيئات الشيوعية التى تزاول نشاطها فى بعض البلاد العربية قد اتصلوا ببعض الإخوان الذين تجردوا من مصريتهم وأقاموا فى سوريا ، لمباحثتهم فى إمكان التعاون على إحداث « شىء » لقلقلة نظام الحكم فى مصر ؛

وكانت تعليمات الشيوعيين فى مصر تفرض على أتباعهم بمقاطعة هيئات التحرير والحرس الوطنى ومنظمات الشباب ؛ ولكن هذه التعليمات تغيرت أخيراً ، ودعيت العناصر الشيوعية غير المعروفة للاندساس بين صفوف هذه التنظيمات للتعرف على أفرادها وأساليبها والعناصر الضعيفة والقوية فيها !

* * *

وتحرص المنظمات الشيوعية فى مصر على تزويد المنضمين إليها بكل ما يراد إليها من تعليمات الشيوعية الدولية فى موسكو ، وتجعل هذه التعليمات على شكل محاضرات يزوّد بها أعضاء المنظمات .

وهذا نموذج مختصر من بعض هذه المحاضرات :

المحاضرة الأولى : وموضوعها : ما هو التنظيم ؟ وما أهمية التنظيم ؟

فى هذه المحاضرة ، يلقن العضو المبادئ الأولى للشيوعية ، وتزخرف له العبارات الطنانة ، من أمثال : « البرجوازية ، الرأسمالية ، الاحتكاريون الإقطاعيون ، الديمقراطية الشعبية ، المجتمع الاشتراكى ، الحركة التاريخية الطبقة الكادحة . . . » إلى أمثال ذلك من العبارات المفخمة ذات الرنين ؛ ثم تنتهى المحاضرة من ذلك إلى المطالبة بضرورة « تنظيم الطبقة العاملة المصرية فى صراعها الطبقى . . . على أساس تعاليم لينين . . . »

ثم تختتم المحاضرة بعبارة حماسية تبدأ هكذا :

« إن رسالتنا التاريخية طويلة ، وشاقة ، ولكننا نستطيع تحقيقها . كيف ؟ عن طريق تنظيمنا السياسى ، عن طريق حزبنا الشيوعى . . . »

أما المحاضرة الثانية فتتحدث عن أساس التنظيم ، وموضوعها « ما هى الخلية ؟ » ويأتى الجواب فى السطر الثانى ، وهو أن الخلية هى وحدة الحزب الكفاحية . ثم تمضى المحاضرة فى الحديث عن تكوين الخلايا ، وطريقتها ، والغرض منها ، والمهام الملقاة على عاتقها ، وأسلوب اتصالها بالجماهير ...

ثم تختتم هذه المحاضرة بعبارة حماسية كذلك ، هى :

« إذا وضعت الخلية فى جدول أعمالها بانتظام كيف تطبق توجيهات

الحزب فى مجال كفاحها ، كيف توسع وتدعم اتصالها بالجماهير ، إذا اهتمت بالتكوين الكفاحى والأيديولوجى لأعضائها ، إذا قامت بكل هذه المهام الملقاة على عاتقها ، استطاعت أن تنهض بدورها التاريخى فى معركة الديمقراطية والسلام . . . »

ومن بين هذه المحاضرات التوجيهية ، محاضرة عنوانها : « ما هو الأمان؟ وموضوعها تعريف العضو كيف يتوقى ويختفى ويتسلل إلى أهدافه فى الظلام ، وتصف المحاضرة لذلك طريقين ، أو اتجاهين : « الاتجاه القوقعى » ، و « الاتجاه الثورى » ؛ وبعد أن تنتهى المحاضرة من تعريف هذين الاتجاهين ، تقول : « إن الأمان يساعد على الكفاح فى ظروف السرية ولا يعرقله بأى شكل من الأشكال » .

ثم تأخذ فى الحديث عن بعض قواعد الأمان ، فى المنزل ، وفى الشارع وفى المواعيد التنظيمية ، وفى الاجتماع ، وفى حالة القبض . . . إلخ.

وتنتهى هذه القواعد بما يأتى : « كن صلباً أثناء التحقيق ، وأثبت لأعدائنا الطبقيين أننا من طينة خاصة لا تتأثر بالتهديدات ! »

ومن هذه الدروس درس عنوانه : « السجن مرحلة فى النضال » ؛ ودرس آخر عنوانه : « الدعاية والإثارة فى السجن ! »

ولكن المنظمات الشيوعية فى بلادنا ، برغم ما تبذل من نشاط ، وما تحاول من أسباب لإحداث نار الفتنة ، مستقلة فى العمل أو متحالفة مع الرجعية — لا يمكن أن يتحقق لها فى بلادنا هدف ؛ لأننا أمة ذات دين ، لا يمكن أن نبيعه بالشيوعية !

الشيوعية والدين

بين الشيوعية والدين عداوة شديده وحرب لا هوادة فيها ولا مهادنة ؛ وهذا أمر طبيعي ، فإن الشيوعية نظام مادى يستمد فكرته من نظرية فلسفية ملحدة تزعم أن كل ما يقع فى التاريخ من حركات فإن مرجعه إلى الأسباب الاقتصادية ولا مرجع له غيرها ؛ وما دامت الأسباب الاقتصادية — دون غيرها — هى التى تملى على التاريخ حركته وتسيره حيث تشاء ، فلا مجال هناك للاعتراف بإله خالق أو قوة وراء الغيب توجه البشر إلى مصايرهم بقدرة وإرادة . . .

والشعور الدينى عندنا وعند كل ذى دين فى الأرض ، هو إحساس طبيعي فى الإنسان يشعره بأن من فوقه قوة عليا توجهه ، وتسدده فى طريقه ، وتعصمه من اليأس فى ساعات الحرج والشدة ، وتمنحه العزيمة والقوة على اقتحام المصاعب ، وتمنعه من الاستسلام لنزعات الشر والسوء أو للشهوات والنزوات والمطامع الفردية ، وتربط البشر بعضهم إلى بعض بروابط تجمعهم على الأخوة الإنسانية المتعاونة من غير انتظار لجزاء مادى أو غير مادى يلقاه الإنسان على الأرض ! فهو إذن شعور مثالى لا يتم تمام الإنسانية إلا به و لا يتحقق السلام على الأرض بغيره . . .

ولكن الشيوعيين ومن قبلهم الماركسيين لا يرون فى الدين هذا الرأى ؛ فليس الدين عندهم إلا تفسيراً خاطئاً للظواهر الاجتماعية ، وبقية من

بقايا النظم الاستغلالية البالية ، ولوناً من الخداع صنعه بعض الناس ليستعبدوا به كل الناس ؛ فهو عندهم مظهر جهل ووسيلة استغلال وحيلة مخادع ، ومن واجب الشيوعيين أن ينبذوه ويتحللوا من قيوده ويبرءوا من كل آثاره . . .

كذلك يقول الشيوعيون ويلقنون أتباعهم بصراحة مكشوفة وبلا مواربة . . .

وهذا الاختلاف فى أمر الدين بين الشيوعيين وغيرهم هو الحد الفاصل بين الشيوعية وغيرها من مذاهب الرأى أو من نظريات الحكم ؛ فالشيوعى الكامل عندهم هو الذى ينبذ دينه ويتبرأ منه ويقطع كل صلة تربطه به فى كل شأن من شئون حياته ، فى العمل وفى غير العمل ، وفى الزواج والطلاق ، وفى الأبوة والأخوة والأمومة ، وفى كل ما جل أو قل من علاقاته العامة وشئونه الخاصة ؛ وهم لا يكتفون من الشيوعى بأن يبرأ من الدين بقلبه ولسانه ، بل يريدونه أن يعمل ما وسعه الجهد لرد المؤمنين با لله عن دينهم ، ليكون الناس جميعاً شيوعيين على دين ستالين ولينين وكارل ماركس لا على دين نبى من أنبياء الله ورسله ؛ وقد كان من الجرائم العظمى بروسيا فى يوم من الأيام أن يضبط روسى متلبساً بجريمة الصلاة أو العبادة فى كنيسة أو مسجد ؛ وقد هدمت المساجد والكنائس جميعاً فى روسيا منذ سنين بعيدة ، وحول كثير منها إلى مصانع أو مخازن أو مسارح للهو أو زرائب للماشية ، وبقى قليل منها كمتاحف تمثل عهد الرجعية الاستغلالية البائد !

ومسلم الأمس فى روسيا — ومثله مسيحى الأمس — لا يباح له أن يتخذ زوجة يرتبط إليها وترتبط إليه ارتباط الزوجين فى كل بلد من بلاد

المسلمين أو من بلاد المسيحيين ليكونا أسرة ذات كيان وقومية صغرى ، وإنما هما رجل وامرأة كذكر الحيوان وأنثاه ، ليس بينهما إلا صلة الفراش المشترك حين يبدو لهما أن يشتركا فى فراش ؛ بعقد موقوت أو بغير عقد ، ثم يذهب الرجل إلى حيث شاء وتذهب المرأة ؛ فهى أنثى من إناث الدولة الشيوعية وهو رجل من رجالها ، وللدولة أبناؤهما وبناتهما جميعاً ، ينتسبون إليها وحدها انتساب ولد الحيوان إلى جنسه لا إلى أبيه وأمه . . .

وقد رأينا فى بعض قضايا الشيوعية بمصر واحدة من « زوجات الدولة » هؤلاء ، اسمها « ميرى روزنتال » ، وكان لها فى مصر زوجان تختلف إلى كليهما وتقاسم كلا منهما الفراش حين تشاء أو حين يشاء هو ، ولم تنكر هى أنها « زوجة » لكل منهما ، ولم ينكر أحد منهما أنها « زوجته » ، ولم تر أو ير أحدهما فى ذلك عيباً ؛ لأنهم جميعاً « شيوعيون » !

وكلمة « زوج » أو « زوجة » التى يعبر بها عن مثل هذه العلاقات الفاحشة بين الشيوعيين ونسائهم ، ليس لها إلا هذا المدلول فى دين الشيوعية !

* * *

ويفيض فلاسفة الشيوعيين فى تبرير إنكارهم للدين ومحاربتهم له ! فيزعمون أن الدين خرافة وجهل ، ويعللون انتشار الأديان بالظروف المادية التى عاش فيها الإنسان الأول ، فيقولون إن الإنسان الفطرى فى العهد البدائى كان يقف عاجزاً حائراً أمام الظواهر الطبيعية ، كالرعد والبرق والعواصف والفيضانات وغيرها ، وكان جهله بأسباب تلك الظواهر يجعله يردها إلى إرادة عليا ، فسعى إلى كسب عطفها والتماس أسباب الزلفى إليها

بتقديم القرابين واصطناع ألوان العبادات ؛ ومن ثم نشأ الإيمان بالقوى غير المنظورة ، وعبادة تلك القوى ؛ ثم استفاضت تجارب الإنسان واتسعت آفاق معرفته وأنارت الكشوف العلمية بصيرته ! ولكن النظام الرأسمالى الجاثم على صدور الناس ظل يخضعهم لقوى أمضى سطوة من القوى المجهولة التى كان يخضع لها الإنسان البدائى ، فرأس المال يستطيع أن يسلط على الإنسان الفقر والبطالة ، ويعرضه للأزمات المالية المذلة والحاجة الملحة ، فيجد نفسه مضطراً إلى الاستعانة بالقوى غير المنظورة ، أى بقوة الله ؛ وهذا الإيمان يلائم الطبقة المستغلة ، إذ يصرف جموع الشعب عن الكفاح فى سبيل السعادة الدنيوية ويجعلها تتعلق بأوهام البعث ، ويغرى الدين الناس بأن يُستغلوا بالعبادة ويخضعوا للطبقة المستغلة ويتقبلوا النظام الرأسمالى على أنه نظام لا مفر منه وقضاء لا مرد له ، ومن شأن الطبقة البورجوازية أن تؤيد الروح الدينية لتضمن سيطرتها على الطبقة العاملة كما يشجع المستعمرون الأديان لتعيش جماهير الشعب فى البلاد المغلوبة على أمرها سادرة فى ظلمات الجهل والاستسلام ؛ وهذا فى رأى الماركسيين سبب تعاون المستعمرين مع رجال الدين ممثلى الرجعية .

ولكارل ماركس كلمة مشهورة عن الأديان جرت فى أفواه الشيوعيين مجرى الحكم والأمثال ، وهى « إن الدين أفيون الفقراء ! »

وللزعيم الشيوعى الكبير لينين كلمات مأثورة فى الحملة على الدين والحض على الإلحاد ونسفيه المعتقدات الدينية ، منها قوله : « الماركسية هى المادية ، وهى من ثم معادية للدين ! »

وفى فلسفة الشيوعية أن ليس هناك حقيقة سوى المادة ، ولكن هذه المادة ليست شيئاً مجرداً ، وإنما هى تشمل الإنسان وأعماله ؛ ويتكون التاريخ من عمل الإنسان فى المادة وتأثير المادة فى الإنسان ، وبين الإنسان والمادة تأثير متبادل ، فالمادة تغير من الإنسان ، والإنسان فى دوره يغير فى المادة لتلائم حاجاته وتقضى لباناته ؛ وعلاقة الإنسان بغيره أساسها الإنتاج والاستهلاك ، وهذا باعث الحركة الديالكتيكية التاريخية وصراع الطبقات ، وتقضى الحركة الديالكتيكية بأن يظل الصراع قائماً بين الفقراء المستعبدين والأغنياء المستغلين ، حتى تحدث الثورة ويحطم العمال النظام الرأسمالى ويتحقق الفردوس الأرضى ، ولا مكان للروح فى مثل هذه الفلسفة ، وإنما يمتاز الإنسان عن الحشرات والسائمة بقدرته الفنية ، وليست هناك حياة أخرى ولا عالم روحى ولا حرية ، لأن الإنسان خاضع للضرورات المادية ؛ وأما الآداب والأخلاق فليس لها مصدر علوى ، وإنما هى وسيلة لحفظ المجتمع ؛ ومن أقوال لينين فى ذلك « علينا أن نكون مستعدين لكل لون من ألوان التضحية ، وإذا استلزم الأمر فإننا نمارس كل شىء ممكن ، فالحيل وفنون المكر وكل الأساليب غير الشرعية جميعها مباحة ، وكذلك السكوت وإخفاء الحق ؛ وموجز القول أننا نستخلص الآداب من مصالح حرب الطبقات ! »

ويقول أحد الشيوعيين فى تقديمه لكتاب لينين عن الدين : « الإلحاد جزء طبيعى من الماركسية لا ينفصل عنها ! »

وفى برنامج المؤتمر السادس للدولى الشيوعى الذى عقد فى سنة ١٩٢٨

ما يأتى : « الحرب ضد الدين — أفيون الشعب — تشغل مكاناً هاماً بين أعمال الثورة الثقافية ، ويلزم أن تستمر هذه الحرب بإصرار وبطريقة منظمة وحكومة العمال تعترف بحرية الضمير ، ولكنها فى الوقت نفسه تستعمل كل الوسائل التى تملكها للقيام بدعاية ضد الدين وتنظم التربية على أساس التصور المادى للدنيا » !

ويقول لينين فى فصل له عن « الاشتراكية والدين » : « الدين يعلم هؤلاء الذين يكدحون طوال حياتهم فى الفقر الاستسلام والصبر فى هذه الدنيا ، ويغريهم بالأمل فى المثوبة بالعالم الآخر » .

ويضرب لينين على هذه النغمة فى فصل له آخر عن موقف حزب العمال من الدين ، فيقول : « قال ماركس إن الدين هو أفيون الفقراء ، وهذا حجر الزاوية فى الفلسفة الماركسية جميعها من ناحية الدين ، وتعد الماركسية الديانات الحديثة جميعها ، والكنائس ، وكل أنواع المنظمات الدينية ، آلة لرد الفعل البورجوازى الذى يستهدف الاستغلال بتخدير الطبقة العاملة ! »

وفى كتاب أرسله لينين إلى الكاتب الروسى الكبير ماكسم جوركى يقول لينين : « إن البحث عن الله لا فائدة منه ، ومن العبث البحث عن شىء لم يخبأ ، وبدون أن تزرع لا تستطيع أن تحصد ، وليس لك إله لأنك لم تخلقه بعد ، والآلهة لا يبحث عنها وإنما تخلق ! » .

فالشيوعية تعادى الأديان جميعها ، وتعدها دليل الرجعية والرغبة فى مقاومة النظام الشيوعى ! وهى تخالف مبادئ الإسلام الأساسية ، لأن

أساس العقيدة الإسلامية أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأنه خاتم النبيين ، واعتبار القرآن وحى الله للنبى محمد ، وكذلك الإيمان بالحياة بعد الموت ، والجزاء والمثوبة والعقاب ؛ وهذه المبادئ جميعها تنكرها الشيوعية وتشكك فيها وتحاربها . . .

وقد لقى الشيوعيون عناء فى تحويل ولاء المسلمين الخاضعين للاتحاد السوفيتى للإسلام إلى الولاء للشيوعية ، وقد اضطهدوا المسلمين لتعلقهم بالعقيدة الإسلامية واستمساكهم بها وإيثارها على الشيوعية .

وكان الشيوعيون فى بعض الأحيان يغيرون سياستهم تبعاً للظروف ويهادنون المسلمين ويلينون معهم ، حينما كانت تقتضى السياسة الخارجية ادعاء العطف على المسلمين والتظاهر بمسالمة الإسلام ؛ فيكفون عن اضطهادهم ، ويظهرون لهم حسن النية والتسامح ؛ فإذا استدعت الأحوال العدول عن تلك السياسة عادوا إلى مذهبهم الأصيل فى اضطهاد الأديان جميعها والعمل على إزالتها ومحوها . . . .

وقد روى فريق من المسلمين اللاجئين من الاتحاد السوفيتى قصصاً مثيرة عن حوادث التعذيب والتجويع والتقتيل التى عانوا منها الأمرين على أيدى السوفيت ، وهم يقولون إن عدد مسلمى الاتحاد السوفيتى انخفض خلال الثلاثين سنة الماضية إلى النصف أو أكثر قليلا ، فبعد أن كان عددهم ٤٥ مليوناً هبط إلى ٢٢ مليوناً ، ويروون أيضاً أن السوفيت انتهكوا حرمة المساجد ، وأعدموا مئات الألوف من المسلمين ، وأرسلوا آخرين إلى معسكرات الاعتقال فى سيبيريا للقضاء على الإسلام فى الاتحاد السوفيتى . . .

وقد قال أحد هؤلاء اللاجئين إن والديه توفيا من الجوع والبرد والمرض فى عام ١٩٣١ ، وإنه هو لاذ بالفرار وشق طريقه عائداً إلى بلدته فى التركستان ، ولكن الشيوعيين ما لبثوا أن قاموا بحملة أخرى من حملاتهم التى تقوم على أساس « لا صلاة ولا قرآن ولا أعياد » وحولوا المساجد إلى إصطبلات ومراقص ، أو هدموها ، وطلبوا من جميع المسلمين توقيع ورقة كتب عليها « لا إله ، ولا دين ، ولا أى شيء غير ستالين ! » وكل من رفض التوقيع اختفى ولم يسمع عنه شيء !

والواقع أن معاملة المسلمين فى روسيا تخضع لعاملين : العامل الأول الأسس الفكرية للنظام الشيوعى التى تنكر الدين بوجه عام ، وتراه عقبة فى طريق تقدم البشرية ، والعامل الثانى الخطط السياسية التى يضعها ساسة الكرملين لتحقيق أهدافهم ، وهم يغيرونها من الحين إلى الحين لتلائم الأحوال العالمية ، فهم يغضون الطرف عن المسلمين ويكفون عن اضطهادهم حينما تستلزم خطتهم السياسية هذا التساهل والتغافل ، فإذا ما تغيرت الظروف وشعروا بعدم الحاجة إلى هذا الإغضاء وذلك التغافل ، عادوا إلى خطتهم الأصلية فى مقاومة الأديان عامة والدين الإسلامى بوجه خاص .

وحرية الاعتقاد بوجه عام لاتقرها الشيوعية ، لأن الشيوعية تقاوم الحريات جميعها على اختلاف أنواعها ، وهى تحاول أن تستأثر بأفكار أتباعها وعواطفهم ولا تطيق أن ترى منافساً لها فى ذلك ، والشيوعية فى جوهرها عقيدة أرضية أو دين مخترع إن صح هذا التعبير ، فليس من المستغرب محاولتها القضاء على العقائد الواقفة فى سبيلها ، سواء كانت

عقائد سماوية أو عقائد أرضية مثلها .

* * *

ومع وضوح رأى الشيوعية فى الدين ، وإنكارها العلنى له ، تزعم الدعاية الشيوعية أن فى روسيا حرية دينية ؛ وإنه لباطل مفضوح لا يسيغه عاقل ولا مجنون . . .

لقد وزعت السفارة السوفيتية فى إحدى العواصم العربية أخيراً ، كتاباً باللغة العربية عنوانه « حرية الدين فى الاتحاد السوفيتى » أرادت به تبرئه الحكومة السوفيتية من اضطهادها للدين وأصحابه . . . وقد جاء كل ما فيه أدلة اتهام لا أدلة براءة . . .

ورد بالكتاب فى الفصل الأول تحت عنوان « الدين فى روسيا قبل الثورة » ما نصه :

« وفى زمن الثورة الأولى فى روسيا ، كتب لينين : يجب ألا تشتغل الدولة بالدين ، ويجب ألا تكون للجمعيات الدينية أية صلات بسلطة الدولة ، يجب أن يصبح كل فرد حراً تماماً فى اعتناق أى دين يرضيه ، أو فى عدم الإيمان بأى دين على الإطلاق . ولا يمكن التسامح بشأن أى تمييز بين المواطنين فى حقوقهم على أساس معتقداتهم الدينية ؛ ويجب أن تحذف أية إشارة إلى معتقدات المواطنين من جميع الوثائق الرسمية بلا قيد أو شرط ، ويجب ألا تقدم أية منحة حكومية للكنيسة والجمعيات الدينية ، التى يجب أن تصبح هيئات حرة كلية ومستقلة تماماً عن الدولة » .

ويلى هذا باب بعنوان : تشريعات الدولة السوفيتية بشأن الدين ، ورد به :

« قضت ثورة أكتوبر الاشتراكية الكبرى على العلاقات القديمة بين الكنيسة والدولة ، فأصدرت الحكومة السوفيتية فى ٢٣ يناير سنة ١٩١٨ مرسوماً سوّى مسألة حرية الدين وموقف الدولة السوفيتية تجاه الدين والجمعيات الدينية ؛ وقد أعلن هذا المرسوم التاريخى ما يلى :

١ ــ الكنيسة منفصلة عن الدولة .

٢ ــ محظور إصدار أى قوانين محلية أو لوائح فى أراضى الجمهورية يكون من شأنها عرقلة أو تقييد حرية الضمير أو إيجاد أية امتيازات أو ميزات على أساس معتقدات المواطنين الدينية .

٣ ــ لكل مواطن أن يعتنق أى دين ، أو لا يعتنق أى دين على الإطلاق .

٤ ــ لن تجرى أية مراسيم أو احتفالات دينية فى أى عمل من أعمال الدولة أو فى أى احتفال رسمى عام أو اجتماعى .

٥ ــ حرية القيام بالطقوس الدينية مكفولة إلى الحد الذي لا تؤدى فيه إلى اضطراب النظام العام ، وإذا كانت غير مصحوبة بالتعدى على حقوق المواطنين فى الجمهورية السوفيتية ؛ وللسلطات المحلية الحق فى اتخاذ جميع التدابير اللازمة فى هذه الأغراض لضمان المحافظة على النظام العام والأمن .

٦ ــ لا يستخدم أحد معتقداته الدينية كعذر للتنصل من واجباته المدنية .

٧ ــ يلغى عمل قسم أو عهد دينى ، وفى الأحوال الضرورية يكتفى فقط بالوعد الصادق .

٨ ـ تقوم السلطات المدنية ـ وحدها ـ بجميع أعمال التسجيل المدنى عن طريق مكاتب تسجيل الزواج ، والميلاد .

المدرسة مفصولة عن الكنيسة والتعليم الدينى محظور فى جميع المدارس العامة ، والخاصة ، ويتعلم المواطنون الدين على انفراد !» .

* * *

ونحب أن نوجه النظر إلى البند الخامس الذى يزعم أنه يبيح القيام بالطقوس الدينية ، ويشترط لهذه الإباحة أن تكون « إلى الحد الذى لا تؤدى فيه إلى اضطراب النظام العام » . فمعنى هذا أن صوت المؤذن أو قرع النواقيس . من الممكن أن يعتبر مخلا بالنظام العام ، فيترتب عليه منع الطقوس الدينية ، وهذا هو الحاصل فعلا .

والبند السادس الذى يقول « لا يستخدم أحد معتقداته الدينية كعذر للتنصل من واجباته المدنية ، أليس أبسط نتائجه أن المسيحى ممنوع من الذهاب إلى الكنيسة فى أثناء العمل ، وأن المسلم غير مسموح له بصلاة الجمعة مثلا ، خلال ساعات العمل ؟

والبند السابع الذى يلغى القسم الدينى ، والذى أملاه على المشرعين البلاشفة إنكارهم لله ، وبغضهم لاسمه .

وكذلك البند الثامن الذى يجعل تسجيل الزواج والميلاد من شأن المكاتب المدنية ، وحدها ؛ لإبعاد شبح الشرائع السماوية من علاقات المجتمع بعضه ببعض ؛ وإذا قام الزواج على غير ما رسمت الشرائع الدينية وكان مجرد صفقة مدنية ، فهل يكون زواجاً أو هو مجرد اتفاق

على مشاركة فى الفراش ؟

وأخيراً ، هذا البند التاسع الذى يفصل المدرسة عن الكنيسة ويضع تعليم الدين فى المدارس العامة ، والخاصة ، ويبيحه « على انفراد » .

ما معنى الانفراد ؟ هل يعلم الفرد نفسه ؟ إن هذا فى أغلب الأحوال مستحيل، والوضع الطبيعى أنه لابد للمتعلم من معلم، فمن الممكن للبوليس إذا علم أن أباً يعلم ولده أو أولاده أن يعتبر هذا « مدرسة خاصة » ، لأنها خرجت عن الانفرادية التى ينص عليها القانون ، فيسارع إلى المنع ، ثم إلى توقيع العقاب الشديد على هؤلاء الخارجين على القانون !

* * *

إن الثورة البلشفية ما كادت تنجح حتى هدمت أكثر بيوت الله من كنائس ومساجد ، وأصدرت قوانين قضت بحرمانها من كل إعانة ، وبمصادرة الأوقاف المرصودة عليها ، وشنت حملة تشهير برجال الدين ، متهمة إياهم بضعف الثقافة وباستغلال الدين لإحراز الثروات العريضة ، وأقامت لهم محاكمات صورية انتهت إلى إلقاء عدد عظيم منهم فى أعماق السجون ، ثم أخذت فى تجريح العقيدة الإطلامية ومهاجمة الله والرسول والقرآن . . .

ولما لم يبق للبقية الباقية من المساجد والكنائس مال ينفق منه على صيانتها وتدفع أجور القائمين بخدمتها ، تحولت مع الزمن إلى خرائب ، ينعق فيها البوم ، والغربان .

* * *

إن القفص الذى حبست فيه الشيوعية الأديان لم يكن متسع ، إلا بمقدار ما يتطلبه رياء السياسة ودهائها .

ومن هذا ورود بعض الحجاج الروس إلى مكة فى سنتى ١٩٥٣ و ١٩٥٤ لا قبلهما ، ومن المضحكات أن يكون عدد هؤلاء الحجاج فى أول مرة أحد عشر حاجاً وفى المرة الثانية ثمانية عشر ، مع أن عدد المسلمين فى الاتحاد السوفيتى يقدر بعشرات الملايين . . .

* * *

ولن ينسى المسلمون ولا ذراريهم ، ذلك المؤتمر الإسلامى الذى انعقد فى خوقند سنة ١٩١٧ ، أى فى أوائل حكم الثورة الشيوعية ، ليطالب بالحكم الذاتى لتركستان ، فإذا الجنود الشيوعيون يغيرون على المدينة غارة وحشية إجرامية ، ويقتلون آلافاً من المسلمين ، ويهدمون بيوتهم ، ويصادرون أملاكهم وأموالهم ، وتقع بعد ذلك تلك المجاعة البشعة التى مات فيها عدد لا يحصى من المسلمين .

وقد قدرت المصادر الروسية نفسها عدد ضحايا الحكم السوفيتى من المسلمين فيما بين سنتى ١٩١٧ و ١٩١٨ بثمانمائة ألف !

إن الشيوعية هى انطلاق من كل قيود الروح ، واندفاع فى طريق المادة يقطع كل سبب بالأخلاق الفاضلة ، ويجرئ على كل فاحشة ، وينسى الله وثوابه وعذابه ، ويرد الإنسانية المتحضرة إلى بهيمية الغابة !

فهرست

مجموعة اخترنا لك

١ هذه هي الصهيونية (طبعة ثانية)
٢ زعماء العصابات الاستعمارية
٣ فلسفة الثورة عربي (طبعة خامسة)
٤ إفريقيا حلم الاستعمار البريطاني
٥ العدالة الاجتماعية
٦ أضواء على الحبشة
٧ البترول
٨ شمال إفريقيا
٩ جنوب إفريقيا
١٠ تركيا والسياسة العربية
١١ حقيقة الشيوعية

الكتاب التـــالى

الإمبراطورية البريطانية فى مفترق الطرق

يصدر فى أول مارس ١٩٥٥

الطابع والناشر

دار المعـــارف بمصر